

الفاطمة المعصومة (سلام الله عليها)

مُحَمَّدُ عَلِيّ الْمَعْلَم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يا فاطمة اشفعي لي في الجنة فإن لك عند الله شأننا من الشأن »

الإمام الصادق عليه السلام :

«... ألا إن حرمي وحرم ولدي بعدي قم، ألا إن قم الكوفة الصغيرة، ألا إن للجنة ثمانية أبواب، ثلاثة منها إلى قم، تقبض فيها امرأة من ولدي، واسمها فاطمة بنت موسى، تدخل بشفاعتها شيعتنا الجنة بأجمعهم.»

بحار الأنوار ٦٠ : ٢٢٨

الإمام الرضا عليه السلام : «... من زارها فله الجنة»

عيون أخبار الرضا ٢ : ٢٦٧

الإمام الجواد عليه السلام : « من زار قبر عمتي بقم فله الجنة »

كامل الزيارات : ٥٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، مُحَمَّدٍ وآله الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد: فهذه صفحات تشرفت بكتابتها حول ثمرة من ثمرات دوحه النبوة، وغصن من أغصان شجرة الإمامة، وتناولت فيها بعض الجوانب المشرقة من حياة سيدة جليلة من سيدات البيت العلوي الطاهر، وهي كريمة أهل البيت فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، والتي تعد - بحق - بابا من أبواب الرحمة، ولا يزال حرمها الشريف مؤثلا وملاذا.

وكان الباعث على هذا الأمر هو ما حدثني به الصديق الوفي والرجل الصالح الحاج عبد الله صالح المدن حفظه الله - من أهل قريتنا المعروفة باسم (الجارودية) إحدى قرى القطيف - أنه رأي - في عالم الرؤيا - أكتب كتابا يتناول حياة هذه السيدة الجليلة، فأحدث حديثه في نفسي الرغبة لتحقيق هذه الرؤيا العزيرة.

والذي أكد هذه الرغبة أنني لا زلت أتفياً ظلال حرمها الشريف، وأعيش وأتلقى العلم في
حماها وحوزتها، ولا زالت أطفها الجلية والخفية تحوطني وترعاني.
وقد أقدمت على الكتابة أداء لبعض حقها علي، وتصديقا لرؤيا صاحبي العزيز الذي إليه يعود
الفضل في تنبيهي لذلك.
وأرجو أن يحالفني التوفيق في التعريف بسيدة عش آل محمد ﷺ ومنه تعالى ببركاتها استمد
العون والتسديد.

والحمد لله رب العالمين محمد علي المعلم قم المقدسة الثلاثاء ٤ محرم الحرام ١٤٢٠ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين مُجَّد وآله الغر الميامين.

الشجرة الطيبة:

يقول الحق تبارك وتعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أ كُلَّهَا كُلَّ حِينٍ يَا ذُنِ رَبَّهَا) ^(١).

تلك هي شجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي، إنها شجرة أصلها المصطفى، وفرعها المرتضى، وغصنها الزهراء، وثمرها الأئمة النجبا.

روى علي بن إبراهيم القمي بسنده عن سلام بن المستنير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله: (مثل كلمة طيبة الآية) قال:

الشجرة رسول الله صلى الله عليه وآله، ونسبه ثابت في بني هاشم، وفرع الشجرة علي ابن أبي طالب عليه السلام، وغصن الشجرة فاطمة عليها وعلى الأئمة من أولادها السلام، وثمرتها الأئمة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام، وشيعتهم ورقها... ^(٢).

وروى الصدوق بسنده عن جابر الجعفي، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٤.

(٢) تفسير القمي ج ١ ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

عن قول الله عز وجل: (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْفِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) قال: أما الشجرة فرسول الله، وفرعها علي، وغصن الشجرة فاطمة بنت رسول الله، وثمرها أولادها، وورقها شيعتنا... (١).

وروى الكليني بسنده عن عمرو بن حريث، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) قال: فقال: رسول الله ﷺ أصلها، وأمير المؤمنين عليه السلام فرعها، والأئمة من ذريتهما أغصانها، وعلم الأئمة ثمرتها، وشيعتهم المؤمنون ورقها... (٢).

إلى غير ذلك من النصوص (٣) الدالة على أن هذه الشجرة مباركة، قد ثبت أصلها، وامتد فرعها، وأينع ثمرها، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها.

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يقترن النبي ﷺ بكثير من النساء، وكان بعض دواعي وأسباب هذا الاقتران خفيا، وبعضها جليا، ولكن أراد الله لحبيبه المصطفى ﷺ أن ينحدر نسله الطيب، وتنحصر سلالته الطاهرة في بضعة الزهراء عليها السلام، حيث اقترن نورها بنور ابن عمه علي عليه السلام، فكانت الذرية الطيبة والنسل الطاهر، وأئمة الدين، وحملة الشرع، وحفظة الكتاب، وسادات الأنام، وهو النسل الذي لا ينقطع

(١) معاني الأخبار ج ٢ باب نوادر المعاني الحديث ٦١ ص ٣٨٠.

(٢) الأصول من الكافي ج ١ باب أن الأرض كلها للإمام عليه السلام الحديث ٨٠ ص ٤٢٨.

(٣) تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٥٣٥ - ٥٣٧.

كما أخبر النبي ﷺ عن ذلك، فقد روى الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي ﷺ قال: كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسي (١).

السلالة الموسوية:

لما كانت سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام واسطة العقد بين شمس النبوة وقمر الإمامة انحدر من نسلها الطاهر أحد عشر كوكبا، يمثلون ولاية الله في أرضه، وخلافة رسول الله على العباد، وأئمة الهدى في الدين الذين انتجهم الله لنوره (بنوره)، وأيدهم بروحه، ورضيهم خلفاء في أرضه، وحججا على بريته، وأنصارا لدينه، وحفظة لسره، وخزنة لعلمه، ومستودعا لحكمته، وتراجمة لوحيه، وأركاننا لتوحيده، وشهداء على خلقه، وأعلاما لعباده، ومنارا في بلاده، وأدلاء على صراطه، (إذ) عصمهم الله من الزلل، وآمنهم من الفتن، وطهرهم من الدنس، وأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا (٢).

وإلى هؤلاء الأئمة الاثني عشر عليهم السلام ينتمي الشيعة الإمامية في العقيدة والفقهاء والإخلاق، وإليهم ينتسبون، ويهم يعرفون، وأصبح اسم الاثني عشرية علما عليهم. وإنما اعتقد الشيعة الإمامية بإمامة هؤلاء لأنهم أحد الثقلين،

(١) وسائل الشيعة ج ١٤ باب ٨ من أبواب مقدمات النكاح وآدابه الحديث ٥.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٧٤.

وأعدال الكتاب، بل هم حقيقة الكتاب ووجوده العيني^(١)، ووراث علم الرسول ﷺ .
وقد قامت الأدلة العامة والخاصة على وجوب الاعتقاد بإمامتهم، وضرورة الالتزام بأوامرهم
ونواهيهم، والسير على خطاهم، وتفصيل ذلك في الكتب الكلامية التي وضعها علماء الشيعة
الإمامية، وتناولوا فيها مسألة الإمامة بأدق تفاصيلها، ومختلف أبعادها وما يترتب عليها من
اللوازم.

ويأتي - بحسب تسلسل أئمة أهل البيت ﷺ - الإمام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن
الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ، ليكون سابع أئمة الهدى ﷺ من حيث الترتيب في تولى
منصب الإمامة الخطير.

وقد حفلت حياة هذا الإمام العظيم بما يقصر البيان عن وصفه، فإنه أحد أئمة الحق والهدى،
وهو خير أهل الأرض، وأجلهم قدرا، وأرفعهم مقاما، وهو المنصوص عليه بالإمامة من بعد أبيه
الإمام الصادق ﷺ الذي يعتبر - تاريخيا - واضع حجر الأساس لمعالم الفكر الإمامي على
الصعيدين الاعتقادي والفقهي.

وإنما قلنا إن الإمام الصادق ﷺ هو واضع حجر الأساس لمعالم الفكر الإمامي وقيدناه
بالناحية التاريخية لأن عهده ﷺ هو العهد الذي نشأت فيه فكرة المذاهب الفقهية المختلفة، وإلا
فإن الفكر الإمامي

(١) المنهج القويم في إثبات الإمامة من الذكر الحكيم ص ١٠١ - ١٢٠.

- بفقته وعقيدته وأخلاقه - يقترن باسم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوم نص عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإمامة، وبايعه المسلمون قاطبة في غدير خم، في الحادثة المشهورة التي خلدتها القرآن الكريم في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ...)^(١).

ولم تكن مسألة الإمامة شيئاً آخر منفصلاً عن تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به، ولكن الأحداث التي أعقبت وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألقّت الستار على هذه القضية ولم تكن الظروف آنئذ لتساعد على إظهارها، وكانت نظرة أمير المؤمنين عليه السلام تقتضي بالتزام الصمت برهة من الزمن ليتأكد للناس أنهم أخطأوا الطريق حيث عدلوا عنه إلى غيره، ولذا لم يكن صمت أبي الحسن عليه السلام إعراضاً وانصرافاً، بل كان صمت الحكيم البصير العالم بحقائق الأمور، وقد كان عليه السلام على يقين مما ستؤول إليه الأمور.

حتى إذا ألقى الزمام بيده سعى في أن يعيد الأمة إلى رشدها، وينبهمهم على فداحة الخطأ الذي ارتكبوه، والآثار السيئة التي نجمت عن ذلك، ولم يفته أن يبين لهم أن قيامه بالمهمة لم يكن طمعاً في حطام، أو رغبة في سلطان، وإنما من أجل تحقيق إرادة الله والرسول، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

وقد كانت المهمة صعبة جداً، إلى حد اضطرته للدخول مع مناوئيه في صراعات دموية في حروب ثلاث طاحنة، أعاقته كثيراً عن أداء

(١) سورة المائدة الآية ٦٧ وراجع كتاب الغدير في الكتاب والسنة والأدب.

مهمته كما يريد هو ويريد الله ورسوله، ذلك لأن الذين ترعرعوا في العهود السابقة ورسخت جذورهم فيها واستطالت فروعهم واستمرؤا الحياة الناعمة المترفة، لم يرق لهم المنهج الجديد الذي وضعه أبو الحسن عليه السلام حيث يجعلهم فيه متساوين مع سائر الناس، ويحملهم فيه على المحجة البيضاء، وأن قيمهم - في نظر الحق - هي مقدار ما يحسنون، ولم يكن منهج علي عليه السلام جديدا بقدر ما هو إعادة إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته مع الناس، ولكن حب الدنيا والطمع في حطامها أدى بأولئك الذين كانوا ينادون بعلي ويهتفون باسمه، إلى التنكر له ومحاربتة، وقد أخطأوا التقدير لأنهم ظنوا أن عليا عليه السلام سيبقي لهم امتيازاتهم التي ظفروا بها في العهود السابقة، ولكنهم فوجؤا بأنه لا يدهن على حساب الدين وحقوق الناس، ولن يتنازل عن مبادئه مهما آليت إليه الأمور « ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق »^(١) وهو على منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله.

وقد كان عليه السلام على التفات إلى هذا الأمر، فإنهم لما طلبوا أن يبايعوه بالخلافة أجابهم بقوله: دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت، واعلموا أي إن أحببتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم

(١) نهج البلاغة - الخطبة ١٥ ص ٣٦.

وزيراً خيراً لكم مني أميراً^(١).

وما ذلك إلا لعلمه بواقع الحال ومآله.

هذا عدا الفئات الأخرى التي كانت تعيش الانحراف الذاتي وتشكل خطاً موازياً لخط علي عليه السلام وأهل بيته في خلاف تاريخي عميق الجذور.

وهكذا توالى الأحداث مريرة مؤلمة، ومن خلالها كان تحديد معالم الخط الذي سار عليه أهل البيت عليهم السلام، يتوارثه الأبناء عن الآباء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا يمثلون الحق والهدى والصلاح.

حتى إذا كان زمان الإمام الصادق عليه السلام برزت الفوارق واضحة، وساعد على ذلك الهدوء النسبي في سلسلة المعاناة، واستطاع الإمام الصادق عليه السلام في هذه الظروف أن يرفد الفكر الإمامي بشيء من علمه، ويغدق عليه من عطائه، ولا سيما أنه برزت على الساحة الإسلامية الأفكار والآراء المختلفة، فتصدى الإمام الصادق عليه السلام إليها رداً أو تصحيحاً فتحدت معالم المنهج الذي اتبعه أهل البيت عليهم السلام بشكل واضح، الأمر الذي أدى إلى نسبة مذهب أهل البيت عليهم السلام إليه. ولكن ما إن استقرت الأوضاع السياسية إثر التحول الإداري الأموي إلى العباسي حتى عادت المعاناة بأبشع صورها وشتى أشكالها، وجاء بنو العباس ليكملوا ما بدأه الأمويون من مسلسل الإبادة لأهل البيت عليهم السلام بالأساليب المختلفة.

(١) نهج البلاغة - الخطبة ٩٢ ص ١٣٨ - ١٣٩.

ويحدثنا التاريخ بفواجع الخطوب وفوادح المآسي التي لقيها أهل البيت عليهم السلام - على أيدي بني عمهم من حملات الإبادة المسعورة - وكل من ينتمي إليهم بسبب .
وفي هذه الظروف العصيبة عاش الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، وشاهد ما كان يعانيه أبوه وشيعته من المآسي والآلام، ولسنا في مقام التاريخ لهذه الفترة، وإلا لأسمعناك ما ينصدع به الصخر وتنشق الأرض وتخر له الجبال، وحسبنا هذا الإجمال، وإن شئت التفصيل فعليك بالدراسات التي تناولت حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وسنشير إلى بعض الروايات التي أرخت تلك الفترة الحرجة .

أقول: ينتمي السادة الموسويون إلى جدهم الأكبر موسى بن جعفر عليه السلام ، وهم أكثر السادة انتشارا في الأرض، وإنما عبر عنهم بالسادة لانتهاه سلسلة أنسابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيد ولد آدم، وإلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ينتهي نسب السادة النقويين، وهم العلويون الذين ينحدرون من سلالة الإمام علي الهادي عليه السلام ، وهكذا الرضويون، وهم الذين ينحدرون من سلالة الإمام الرضا عليه السلام ، كما ينتهي نسب السادة الحسينيون إلى الإمام الحسين عليه السلام ، وأما السادة الحسينيون فهم الذين ينتهي نسبهم إلى الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، ولكن اصطلاح علماء النسب على النسبة إلى الإمام المعصوم الذي هو الأصل بالنسبة لأبنائه وأحفاده ومن ينحدر عنهم، فيقال السادة النقويون لانتهاه إلى الإمام علي النقي عليه السلام والموسويون لانتهاه إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، والحسينيون لانتهاه إلى الإمام الحسين عليه السلام ، والحسينيون لانتهاه إلى

الإمام الحسن عليه السلام، وإلا فالنسب كله بفروعه وبطونه ينتهي إلى الإمام علي عليه السلام والزهراء عليهن السلام حيث أهما مبدأ الذرية الطيبة.

أسباب انتشار السادة الموسويين:

ويمكن إرجاع الأسباب التي أدت إلى انتشار السادة الموسويين في أطراف الأرض إلى عاملين رئيسين:

الأول: إن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كان أكثر الأئمة أولادا، فقد ذكر بعض علماء الأنساب أنه عليه السلام قد أنجب ستين ولدا بين ذكر وأنثى ^(١)، واتفقوا على أن عشرة من أولاده الذكور قد أعقبوا، وقيل إن الإمام موسى عليه السلام أعقب من ثلاثة عشر رجلا، أربعة منهم مكثرون، وهم: علي الرضا عليه السلام، وإبراهيم المرتضى، ومُجد العابد، وجعفر، وأربعة منهم متوسطون، وهم: زيد النار، وعبد الله، وعبيد الله، وحمزة، وخمسة مقلون، وهم: العباس، وهارون، وإسحاق، والحسين، والحسن ^(٢). وذكر آخرون غير هؤلاء ممن أعقب من أولاده عليه السلام.

ولعل الغاية من وراء الإكثار من النسل عند أهل البيت عليهم السلام - عدا رجحانه في نفسه - هي الحفاظ على استمرار بقاء هذا الوجود الطيب لذرية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وخصوصا مع العلم بما انطوت عليه نوايا خصومهم من السعي في القضاء عليهم والتخلص منهم على ما سيقف عليه القارئ العزيز.

(١) مناهل الضرب في أنساب العرب ص ٣٩٣.

(٢) مناهل الضرب في أنساب العرب ص ٣٩٣.

هذا، وذكر الشيخ المفيد في الإرشاد أن لكل واحد من ولد أبي الحسن موسى عليه السلام فضلاً ومنقبة مشهورة^(١)، ومثله ذكر الطبرسي في إعلام الوري^(٢).

وقد ذكروا في بعض أحوال أولاد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنهم كانوا من أهل العلم والحديث والفضل والصلاح، فإن إسماعيل بن موسى هو الذي ولاه أبوه على الوقف، وروي أن الإمام الجواد عليه السلام أمره بالصلاة على جنازة صفوان، وله كتب كثيرة يرويها عن أبيه عن آبائه عليهم السلام^(٣)، وأن محمد بن موسى كان صاحب وضوء وصلاة، وكان ليله كله يتوضأ ويصلي، فيسمع سكب الماء، ثم يصلي ليلاً ثم يهدى ساعة، فيرقد ويقوم فيسمع سكب الماء والوضوء، ثم يصلي ليلاً، فلا يزال كذلك حتى يصبح. وقال بعضهم: وما رأيت قط إلا وذكرت قول الله تعالى: (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)^(٤).

وغيرهما ممن وصف بالفضل والصلاح والشجاعة.

وقد تنقل أبناء الإمام عليه السلام في مختلف البقاع، فقطن بعضهم في مصر، وبعضهم في العراق، وآخرون في إيران، ومنهم انتشرت ذرية موسى بن جعفر عليه السلام، ولا زالت هذه الشجرة الطيبة تؤتي أكلها بإذن ربها، فقد ضمت هذه السلالة الشريفة على مر تاريخها المعطاء الأفاضل من الرجال الذين صنعوا التاريخ، وكانوا غرراً في جبين الدهر يفتخر

(١) الإرشاد ج ٢ ص ٢٤٦.

(٢) إعلام الوري ج ٢ ص ٣٧.

(٣) معجم رجال الحديث ج ٤ ص ١٠٠ - ١٠٢.

(٤) الإرشاد ج ٢ ص ٢٤٥.

بهم الزمان، ونبغ منها رجال حملوا العلم والمعرفة والأخلاق والسيادة، وقد حفلت بذكرهم كتب الرجال والتراجم.

الثاني: - وهو الأهم - الظروف العصيبة التي أحاطت بالإمام موسى ابن جعفر عليه السلام، فإنه بعد أن استقر الحكم العباسي وتربع المنصور الدوانيقي على دست الحكم بدأ المسلسل الدامي في ضراوة بلغت حدا عاش فيه أهل البيت عليهم السلام الرعب بأبشع صورته، وثمر المنصور عن ساعديه لإبادة بني عمه بشتى الأشكال، ووصفه الباحثون بأنه تتبعهم وراء كل حجر ومدبر، حتى إذا استشهد الإمام الصادق عليه السلام مسموما بإيعاز من المنصور اضطرب أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم اضطرابا شديدا، كما يحدثنا بذلك من أرخ تلك الفترة، حتى كادت معالم التشيع أن تنطمس لولا ظهور الإمام موسى عليه السلام في الوقت المناسب مع حراجة الظروف وخطورتها.

ويصور لنا الشيخ القرشي تلك الظروف في عرضه الرواية التي تضمنت كيفية رجوع الشيعة إلى الإمام عليه السلام، فيقول: وحدث هشام بن سالم أحد عيون الشيعة ووجهها عن كيفية رجوعه ورجوع إخوانه إلى الإمام بعد وفاة أبيه، يقول: كنت بالمدينة مع محمد بن النعمان صاحب الطاق حين وفاة الإمام أبي عبد الله، وقد اجتمع الناس على عبد الله بن جعفر ظانين أنه صاحب الأمر والقائم بعد أبيه، فدخلت عليه مع أصحابي، ولما استقر بنا المجلس، وجهنا له السؤال الآتي: كم تجب الزكاة في المائتين من الدراهم؟

- خمسة دراهم.

- ففي المائة؟

- درهمان ونصف.

وتعجبوا من هذه الفتوى التي لا تمت إلى الشريعة الإسلامية بصلة، فإن النصاب الأول في نصاب الدراهم مائة، وما نقص عنها فليس عليه شيء، وطفق هشام يقول مستهزئاً بهذه الفتوى التي لا مدرك لها:

والله ما تقول المرجئة هذا!!

والله ما أدري ما تقول المرجئة؟

وخرج هشام ومُحَمَّد من عنده وهما لا يبصران الطريق من الألم والحزن لعدم ظفرهما بالإمام القائم بعد أبي عبد الله، وجعل هشام يقول:

إلى المرجئة، إلى القدرية، إلى المعتزلة، إلى الزيدية، إلى الخوارج؟

وبينما كان هشام ومُحَمَّد هائمين في تيار من الهواجس والأفكار لا يعلمان أي مبدأ يعتنقانه إذ أطل عليهما شيخ، فأوماً إلى هشام يشير إليه باتباعه، فتوهم هشام أنه من عيون المنصور وجواسيسه قد فهم حديثهما، فالتفت إلى صاحبه وقد استولى عليه الذعر والارتباك وأمره بالبعد عنه ليكون وحده الذي ينال العقوبة والجزاء، فتبع الشيخ حتى أورده على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فلما دخل سكن روعه، فلما استقر به المجلس التفت إليه الإمام قائلاً بنبرات تفيض لطفاً وحناناً:

إلى لا إلى المرجئة، ولا إلى القدرية، ولا إلى المعتزلة، ولا إلى الزيدية... ففرح هشام لأنه ظفر ببعيته حيث أخبره الإمام بما انطوت عليه نفسه، وتلك من أمارات الإمامة وعلائمها، ووجه له هشام السؤال الآتي:

- جعلت فداك مضى أبوك؟
- نعم.
- مضى موتاً؟
- نعم.
- من لنا بعده؟
- إن شاء الله أن يهديك هداك.
- جعلت فداك إن عبد الله أخاك يزعم أنه الإمام بعد أبيه.
- عبد الله يريد أن لا يعبد الله.
- من لنا بعده؟
- فأجابه مثل جوابه الأول وطفق هشام يقول:
- أفأنت هو؟
- لا أقول ذلك.
- وأخطأ هشام في حديثه، والتفت إلى خطله فقال:
- عليك إمام؟
- لا.
- فداخله من الإكبار والإجلال ما لا يعلم به إلا الله، ثم قال له:
- جعلت فداك، أسألك عما كنت أسأل به أباك؟
- سل ولا تدع، فإن أذعت فهو الذبح.
- ثم وجه إليه أسئلة كثيرة، فإذا به بحر لا ينزف لكثرة علمه وفضله، وانبرى بعد معرفته ووثوقه بإمامته قائلاً:
- جعلت فداك شيعة أبيك في ضلال، فألقي إليهم هذا الأمر

وأدعوهم إليك فقد أخذت علي الكتمان؟

- من أنست به رشدا فألق إليه وخذ عليه الكتمان، فإن أذاع فهو الذبح - وأشار بيده إلى حلقه - .

ثم خرج وهو ناعم الفكر مسرور القلب بما ظفر به، فبادر إليه صاحبه قائلاً:

- ما وراءك؟

- الهدى.

ثم حدثه بالأمر... وأقبلت جماهير الشيعة تترى أفواجا نحو الإمام وهي تعقد له الولاء والطاعة وتعترف بإمامته...^(١).

وتلا المنصور ابنه المهدي على دست الحكم، وقد ذكر الباحثون أنه ورث من أبيه المنصور العداة للعلويين وشيعتهم، فقد أترعت نفسه بالبغضاء والكراهية لهم، وكان يغري الشعراء ويغدق عليهم من أجل هجاء أهل البيت عليهم السلام، والحط من شأنهم، والتقليل من أهميتهم، وذكروا عنه أنه أرحب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حيث أمر باعتقاله وإرساله من المدينة إلى بغداد، وكاد أن يقتله لولا أن العناية الإلهية حفظت الإمام عليه السلام من بطشه.

حتى إذا جاء عهد موسى الهادي ابتدأت سلسلة أخرى من المآسي، لقي منها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم الأمرين، وعلى الرغم من أن عهده كان قصيرا كعمره، إلا أنه كان ثقيلا مجهدا واجه فيه أهل

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ١ ص ٤١٨ - ٤٢٠.

البيت عليه السلام وشيعتهم أعنف الرزايا وأكثرها محنة وصعوبة، فسفكت دماؤهم وانتهكت حرماهم وهدرت كرامتهم، بما لا مجال لوصفه وبيانه.

وقد ذكر المؤرخون أن في عهد موسى الهادي حدثت واقعة فخر التي ضارعت حادثه الطف في كفيها وأسماء أشخاصها، وبعض آثارها، وما جرى فيها.

وأما عهد الرشيد فكان أسوء عهد مر على العلويين والشيعة، فقد قابلهم منذ بداية حكمه بكل قسوة وجفاء، وصب عليهم جام غضبه، وأقسم على استئصالهم وقتلهم، فقال: والله لأقتلنهم - أي العلويين - ولأقتلن شيعتهم ^(١).

وأمن الرشيد في التنكيل بالعلويين وشيعتهم، وذكرت المصادر أنه كان يتتبعهم بشتى الوسائل، ويحتال لقتلهم بمختلف الطرق، وكان يرى أن بقاء ملكه وسلطانه لا يستقر إلا بإبادتهم.

لقد كان الرشيد شديد الوطأة على عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا على علم بمقتته وبغضه لهم، فحينما علموا بخلافته هاموا على وجوههم في القرى والأرياف متنكرين لئلا يعرفهم أحد، قد أحاط بهم الرعب والفرع، واستولى عليهم الخوف والإرهاب، وكان في طليعة من لقي العناء من أهل البيت عليهم السلام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فقد فرض الرشيد عليه رقابة صارمة، ترصد عليه تحركاته وسكناته، حتى ثقل عليه وضاق

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٧٤.

به ذرعا، فغيبه في سجون البصرة وبغداد، ينقل من سجن إلى آخر، وكان آخرها سجن السندي بن شاهك حيث قضى الإمام عليه السلام مسموما ^(١).

وقد تمخض عن ذلك تفرق سلالة الإمام الكاظم عليه السلام وانتشارهم في مختلف البقاع، ولم يكن هذا الأمر خاصا بأولاد الإمام عليه السلام، بل كان عاما لجميع العلويين وشيعتهم، نعم كان أبناؤه عليهم السلام من أكثرهم محنة وأشدهم ابتلاء.

وكان من آثار ذلك أن ذهب بعضهم في طي النسيان، فلم يعرف له عقب أو مكان، إذ كان بعضهم يخفي نسبه خشية أن يفاجأ بما يودي بحياته، كما كان من نتائج ذلك أيضا بروز ظاهرة التقية التي فرضت على أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم فرضا لم يجدوا مناصا عنها، طلبا للنجاة، وبحثا عن الأمن والأمان.

وقد انعكست مسألة التقية على جميع مظاهر سلوكهم في عباداتهم ومعاملاتهم، ونشأ من ذلك ما يمكن أن يعبر عنه بالفقه الوقائي الذي يعنى بهذه الحالة عند تحقق موضوعها كما بينها الفقهاء، واستندوا في ذلك إلى ما رسمه الأئمة عليهم السلام الذين عانوا من تلك الظروف القاسية التي مرت بهم مستثنين منها بعض الموارد حيث تكون المواجهة هي الحل، وقد حددها الفقهاء وضبطوها في دراساتهم الفقهية.

على أن موضوع التقية لا ينحصر بالشريعة الإمامية وحدهم، بل هو أمر

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٤٨٥ - ٥٢٠.

يعود إلى تأمين الحماية والوقاية من الوقوع في الخطر الذي يتهدد الحياة.
وبعبارة أخرى: إن مسألة التقية قضية فطرية تستوجب درء المخاوف عن النفس، وفق ضوابط محددة مدروسة، مع الاحتفاظ بالثوابت وصيانتها، وليست هي انسلاخا عن المبدأ وإلغاء للمعتقد، وهي عملية مؤقتة تعالج ظرفا طارئا ليعود الإنسان بعدها إلى طبيعته الأولى التي كان عليها في سلوكه (١).

ومن خلال ذلك يمكننا أن ندرك أن ما يقوم به خصوم الشيعة من الحملات والتشنيع عليهم في أمر التقية ما هو إلا استغلال لظروف الشيعة الصعبة والتشهير بمحتهم، وإلا فلو أن هؤلاء عانوا بعض ما عاناه الشيعة لحملوا لواء التقية عاليا، وما يدرينا لعلهم يتقون في بعض أعمالهم من حيث لا نشعر بأنهم يتقون.

السيدة تكتم:

عرفنا مما مر أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام - والد السيدة المعصومة - هو أحد الأئمة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وإليه تنتمي السلالة الموسوية، ولا بد لنا من التعرف على أم السيدة المعصومة لنتمكن من الخروج بصورة واضحة عن الجو الذي عاشت فيه هذه السيدة الجليلة، والبيت الذي تلقت فيه تربيتها فإن للأب والأم

(١) عالج سماحة الأستاذ آية الله الشيخ مسلم الداوري دام ظله مسألة التقية بجميع أبعادها على ضوء المعطيات الشرعية والضوابط العقلية في دراسة مستوعبة ناضجة لم يسبق لها نظير في محاضراته الفقهية العليا فخرجت في ثلاثة أجزاء تحت عنوان « التقية في فقه أهل البيت عليهم السلام » بقلم المؤلف.

دورها الكبير الفعال في سلوك الوليد ونشأته وانعكاس أخلاق الأبوين عليه .
وقد ذكر المؤرخون وعلماء الأنساب أن أم السيدة المعصومة هي تكتم، وتسمى نجمة، وأروى،
وسمانه، وأم البنين، وخيزران، وصقر، وشقراء، والطاهرة، ولنا حديث حول تعدد الأسماء سيأتي .
وهي وإن كانت جارية أم ولد إلا أن لها من الفضل والجلال والعفة والعبادة ما فاقت به نساء
زمانها فكانت بذلك قرينة لإمام معصوم، وأما لإمام معصوم، وسنشير إلى بعض خصائصها
ومميزاتها فيما سيأتي .

أمهات أكثر الأئمة عليهم السلام من الجواري... لماذا؟!!

والذي نريد أن نتناوله بالبحث هنا ظاهرة الجواري وأمهات الأولاد، فإن مما يدعو إلى الالتفات
ويثير التساؤل هو أن أكثر أمهات الأئمة جوار من غير العرب، فأم كل من السجاد والكاظم
والرضا والجواد والهادي والعسكري والحجة عليهم السلام أمهات أولاد، وقعن في الأسر، واقترن بمن الأئمة
عليهم السلام، مع أنه لا يغيب عن بالنا ما يجري في سوق العبيد والجواري، مضافا إلى أن مسألة الإمامة
ليست من المسائل العادية، فإنها تستوجب الحيطة والحذر في كل ما يرتبط بولادة الإمام المعصوم
وتربيته ونشأته، وكما أن الأب ينبغي أن يكون في أعلى درجات الكمال الممكن، فكذلك الأم
وعلى ذلك قامت

الأدلة.

وهذا البحث جدير بالعناية والدراسة، وإنما نذكره هنا لصلته القوية بما نحن فيه، وذلك لما أشرنا إليه من أن السيدة المعصومة شقيقة الإمام الرضا عليه السلام فأمهما واحدة وهي السيدة تكتم. والسؤال الذي يواجهنا هو ما هو السر في اختيار الأئمة عليهم السلام للجواري من دون الحرائر العرييات من البيوتات الرفيعة ذات المنزلة الاجتماعية؟ ولماذا يقتزن الأئمة عليهم السلام بالجواري ليلدن لهم أفضل الأولاد والبنات؟

وللإجابة عن ذلك لا بد أن نسلط الأضواء على بعض المفاهيم العامة والركائز الأساسية ذات الصلة بما نحن فيه لنخرج من خلالها بما يرفع الغموض والإبهام عن هذه المسألة. والذي يظهر من خلال دراسة بعض المفاهيم العامة والقواعد الأساسية أن وراء اختيار الأئمة عليهم السلام الجواري أسباباً أهمها ثلاثة.

الأول: إن مما لا شك فيه أن أئمة أهل البيت عليهم السلام - كما نعتقد وعليه قامت الأدلة - قد أوتوا العلم بحقائق الأمور والأشياء ومعرفة مداخلها ومخارجها، ومنها العلم بأحوال الناس وخصوصياتهم، وقد ورثوا ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو أطلعهم الله تعالى عليه لتنفيذ بصائرهم، وصفاء نفوسهم وطهارة ذواتهم، ولما كان الأمر يتعلق بالإمامة ومنصب الولاية فلا بد من اختيار الوعاء الطاهر، والأصل الزاكي، والحجر العفيف الذي

سيكون حاملا وحاضنا لولي الله، وخليفته على العباد، والحجة على الخلق، ويعد ذلك من المسلمات البديهية في عقيدة الشيعة الإمامية، وإنما وقع اختيار الأئمة عليهم السلام على هؤلاء الجواري من دون سائر النساء لعلمهم عليهم السلام بأنهم قد جمعوا شرائط الاقتران بالمعصوم عليه السلام وصلاحيتهن للأمومة التي ستوجب الإمام المعصوم إذ كما يشترط أن يكون الآباء طاهرين مطهرين فكذلك الحال بالنسبة للأمهات.

وغني عن البيان مدى تأثير الأم على ولدها، فإن لعامل الوراثة مدخلا كبيرا في التكوين الخلقي المنعكس على الولد من قبل أبويه، كما نصت عليه روايات أهل البيت عليهم السلام وأيدته البحوث العلمية التي عنيت بهذا الجانب في حياة الإنسان.

ومما يؤيد هذا الوجه أن الإمام عليه السلام قد يختار واحدة بعينها من دون سائر الجواري اللاتي عرضن للبيع، وقد تكون غير صالحة - بحسب المعايير المادية - للبيع والشراء إلا أن الإمام عليه السلام لا يختار غيرها، بل تذكر المصادر أن هذه الجارية - مثلا - قد تمتنع عن الاستسلام لأي مشتر يتقدم لشرائها حتى يكون الذي يشتريها هو الإمام عليه السلام، مع أنها في ظروف لا تملك من أمرها شيئا، الأمر الذي يؤكد على أن هناك تخطيطا إلهيا متقنا لأن تكون هذه المرأة قرينة للإمام عليه السلام وقد أعدها الله تعالى لتصبح أما للمعصوم عليه السلام.

روى الصدوق بسنده عن هشام بن أحمد، قال: قال أبو الحسن

الأول عليه السلام: هل علمت أحدا من أهل المغرب قدم؟ قلت: لا، فقال عليه السلام:
بلى، قد قدم رجل أحمر، فانطلق بنا، فركب وركبنا معه حتى انتهينا إلى الرجل، فإذا رجل من
أهل المغرب معه رقيق، فقال له: اعرض علينا، فعرض علينا تسع جوار كل ذلك يقول أبو الحسن
عليه السلام: لا حاجة لي فيها، ثم قال له: اعرض علينا، قال: ما عندي شيء، فقال له: بلى اعرض
علينا، قال: لا والله، ما عندي إلا جارية مريضة، فقال له: ما عليك أن تعرضها، فأبى عليه، ثم
انصرف عليه السلام، ثم أرسلني من الغد إليه، فقال لي: قل له: كم غايتك فيها؟ فإذا قال: كذا وكذا
فقل: قد أخذتها، فأتيته، فقال: ما أريد أن أنقصها من كذا، فقلت: قد أخذتها، وهو لك، فقال:
هي لك، ولكن من الرجل الذي كان معك بالأمس؟
فقلت: رجل من بني هاشم، فقال: من أي بني هاشم؟ فقلت: من نقبائهم، فقال: أريد أكثر
منه، فقلت: ما عندي أكثر من هذا، فقال:
أخبرك عن هذه الوصيفة، إني اشتريتها من أقصى بلاد المغرب، فلقيتني امرأة من أهل الكتاب
فقلت: ما هذه الوصيفة معك؟ فقلت:
اشتريتها لنفسى، فقالت: ما ينبغي أن تكون هذه الوصيفة عند مثلك، إن هذه الجارية ينبغي
أن تكون عند خير أهل الأرض، فلا تلبث عنده إلا قليلا حتى تلد منه غلاما يدين له شرق
الأرض وغربها، قال: فأتيته بها، فلم تلبث عنده إلا قليلا حتى ولدت له عليا عليه السلام ^(١).

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٧ - ١٨.

ونقل المحدث القمي أنه عليه السلام لما ابتاعها (أي تكتم) جمع قوما من أصحابه ثم قال: والله ما اشتريت هذه الأمة إلا بأمر الله... (١).

على أن المرأة التي يقع اختيار الإمام عليه السلام عليها لم تكن من عامة الناس، بل من أشرف النساء، وذات مكانة في قومها، غير أنها وقعت في الأسر وجرها ذلك إلى سوق النخاسين.

روى الشيخ الطوسي بسنده عن محمد بن بحير بن سهل الشيباني أنه قال: قال بشر بن سليمان النخاس وهو من ولد أبي أيوب الأنصاري أحد موالى أبي الحسن وأبي محمد وجارهما بسر من رأى: أتاني كافور الخادم. فقال: مولانا أبو الحسن علي بن محمد العسكري يدعوك إليه، فأتيته، فلما جلست بين يديه قال لي: يا بشر إنك من ولد الأنصار، وهذه الموالاتة لم تنزل فيكم يرثها خلف عن سلف، وأنتم ثقاتنا أهل البيت، وإني مزيك ومشرفك بفضيلة تسبق بها الشيعة في الموالاتة بسر أطلعك عليه، وأنفذك في ابتياع أمة، فكتب كتابا لطيفا بخط رومي ولغة رومية، وطبع عليه خاتمه، وأخرج شقيقة صفراء فيها مائتان وعشرون ديناراً.

فقال: خذها، وتوجه بها إلى بغداد، واحضر معبر الفرات ضحوة يوم كذا، فإذا وصلت إلى جانبك زواريق السبايا وترى الجواري فيها، ستجد طوائف المبتاعين من وكلاء قواد بني العباس، وشرذمة من

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٠٦.

فتيان العرب، فإذا رأيت ذلك فأشرف من البعد على المسمى عمر بن يزيد النخاس عامة نهارك، إلى أن تبرز للمبتاعين جارية صفتها كذا وكذا، لابسة حريرين صفيقين، تمتنع من العرض ولمس المعترض، والانقياد لمن يحاول لمسها، وتسمع صرخة رومية من وراء ستر رقيق، فاعلم أنها تقول: وا هتك ستراه.

فيقول بعض المبتاعين: علي ثلاثمائة دينار فقد زادني العفاف فيها رغبة، فتقول بالعربية: لو برزت في زي سليمان بن داود، وعلى شبه ملكه ما بدت لي فيك رغبة، فاشفق على مالك، فيقول النخاس: فما الحيلة؟! ولا بد من بيعك، فتقول الجارية: وما العجلة؟! ولا بد من اختيار مبتاع يسكن قلبي إليه وإلى وفائه وأمانته، فعند ذلك قم إلى عمر بن يزيد النخاس، وقل له: إن معك كتابا ملصقا لبعض الأشراف كتبه بلغة رومية وخط رومي، ووصف فيه كرمه، ووقاره، ونبله، وسخاءه، فناولها لتأمل منه أخلاق صاحبه، فإن مالت إليه ورضيته فأنا وكيله في ابتاعها منك.

قال بشر بن سليمان: فامتثلت جميع ما حده لي مولاي أبو الحسن عليه السلام في أمر الجارية، فلما نظرت في الكتاب بكت بكاء شديدا وقالت لعمر بن يزيد: بعني من صاحب هذا الكتاب وحلفت بالمرجة والمغلظة إنه متى امتنع من بيعها منه قتلت نفسها، فما زلت أشاحه في ثمنها حتى استقر الأمر فيه على مقدار ما كان أصحابنيه

مولاي عليه السلام من الدنانير فاستوفاه، وتسلمت الجارية ضاحكة مستبشرة، وانصرفت بها إلى الحجيرة التي كنت آوي إليها ببغداد، فما أخذها القرار حتى أخرجت كتاب مولانا عليه السلام من جيبها وهي تلمسه وتطبقه على جفنها وتضعه على خدها وتمسحه على بدنها.

فقلت تعجبا منها: تلمين كتابا لا تعرفين صاحبه؟! فقالت: أيها العاجز الضعيف المعرفة بمحل أولاد الأنبياء، أعزني سمعك وفرغ لي قلبك، أنا مليكة بنت يشوعا بن قيصر ملك الروم، وأمي من ولد الحواريين، تنسب إلى وصي المسيح شمعون أنبئك العجب... (١).

إلى غير ذلك من القضايا التي دلت على أن الأمر لم يكن بصورة عفوية، أو من القضايا الاتفاقية، بل كانت على وفق تخطيط إلهي محكم، وإن كانت لا تخرج عن ظاهرة الخضوع للأسباب المتعارفة، والتي كانت يبدو فيها أن الأمر طبيعي جدا.

أقول: لا يبعد أن يكون هذا أحد الأسباب التي دعت إلى أن تكون أمهات بعض الأئمة عليهم السلام من الجواري.

وحيث أن أم الإمام الرضا عليه السلام كانت إحدى الجواري، وإنما وقع اختيار الإمام الكاظم عليه السلام عليها لأنها كانت ذات شرف ومكانة وطهر وعفاف، ولما كانت السيدة فاطمة شقيقة الإمام الرضا عليه السلام حيث يتحدان في الأب والأم يتبين أن أمها لم تكن امرأة عادية من سائر

(١) كتاب الغيبة ص ٢٠٨ - ٢١٠.

النساء، بل كانت جليلة القدر عظيمة الشأن ذات منزلة رفيعة كما سيأتي بيان ذلك في محله من هذه الصفحات.

الثاني: إن من أعظم الركائز التي قام عليها الدين هو إلغاء الفوارق الطبقية بين أبنائه والمنتسبين إليه، وقد أكد القرآن الكريم في آياته، والرسول العظيم ﷺ في سيرته على ذلك، وكانت النظرة إلى جميع الناس على أساس من التساوي ونبذ الفوارق العرقية والنسبية، وأن المعيار في التفاضل بين الناس هو مقدار ما يتحلى به الإنسان من الإيمان والتقوى ومكتسباته الشخصية: **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** ^(١) « ليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى » ^(٢) وليس للعنصر العربي فضل على سواه، وليس لسواه فضل عليه، وليس ثمة ما يميز أحدهما على الآخر إلا مقدار قربه من الله تعالى، أو بعده عنه، ولذا رفع الإسلام من شأن سلمان الفارسي الأصل حتى غدا ينسب إلى أهل بيت العصمة فقال ﷺ: (سلمان منا أهل البيت) ^(٣)، ووضع الإسلام أبا لهب العربي الأصل والقرشي النسب، وهو عم النبي ﷺ حتى غدا من أشد الناس عداوة لله ولرسوله، ونزل فيه قرآن يتلى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) ﴿٤﴾

وقد اتخذ هذا المنهج القويم صوراً وأشكالاً مختلفة، لتثبيت هذه

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) مجمع البيان ج ٩ ص ١٣٨ .

(٣) بحار الأنوار ج ٢٢ ص ٣٢٦ .

(٤) سورة المسد الآية ١ - ٤ .

القاعدة، حتى تكون هي المنطلق والأساس في تقييم الأشخاص، وسعى سعياً حثيثاً بالقول تارة، وبالفعل أخرى، لبيان أن الإنسان لا يقعد به نسبه، ولا يعيقه عنصره، أو صنفه، عن تسنم أرفع الدرجات، إذا كانت على وفق ما يريد الله ورسوله: **(أَنْتِي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ) (١)**.

ولم يكن الأمر يقتصر على القضايا الرئيسية ذات الأهمية القصوى، بل كانت تشمل الشؤون الجانبية الأخرى، فما كان النبي ﷺ يفاضل بين أحد من المسلمين في العطاء - مثلاً -، وكان يرى أن المال مال الله والناس عباد الله، وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام الذي أخذ هذه السيرة النبوية منهاجاً له، يقتفي خطى النبي ﷺ في تطبيقها على المسلمين معتبراً نفسه واحداً منهم، وأنهم جميعاً أخوة في الدين، حتى أصبح هذا المبدأ أحد الأسس التي مهدت السبيل أمام كثير من الناس للالتحاق بهذا الدين والسير في ركابه.

ولو أن هذا المبدأ أخذ مجراه كما أراد الله تعالى ورسوله، وسعى أمير المؤمنين عليه السلام لتطبيقه، لما احتجنا إلى حروب الفتوحات التي يعتبرها البعض إحدى إنجازات الإسلام الكبرى. وما يدرينا فلعل ما يحيق بالمسلمين من خصومهم من الكيد والعدوان إنما هو عمل انتقامي واقتصاص مما جرى في سالف الزمان

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٥.

من حروب الفتوحات إذ تركت حقدا دفينا تتوارثه الأجيال، حتى إذا أمكنتهم الفرصة للانتقام شنوا حروبا لا هوادة فيها على الدين والأخلاق وبأساليب مختلفة.

على أن هؤلاء القائمين على هذه الفتوحات لم يكونوا إلا ذوي أطماع في الدنيا وتهالك عليها، ولم يكن لهم نصيب من الإسلام.

والذي يؤيد ذلك: ما رواه ابن كثير في تفسيره - عند قوله تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)** (١) - بسنده عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس، قالت:

بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل فنادى: هل بلغت، اللهم هل بلغت، ثلاثا، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم، ثم أصبح، فقال رسول الله ﷺ: ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى موطنه، وليخوضن رجال البحار بالإسلام وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرؤنه، ثم يقولون قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذي هو خير منا، فهل في أولئك من خير؟ (وفي رواية أخرى) فما في أولئك من خير، قالوا: يا رسول الله فمن أولئك؟ قال: أولئك منكم، وهم وقود النار (٢).

أقول: كان هذا المبدأ أحد الركائز التي فتحت الباب على مصراعيه للدخول في دين الله، ولكن سياسة القائمين على الأمر بعد رسول الله ﷺ هي التي أوصدت الباب، وأحكمت إغلاقه، حيث رأت غير هذا.

(١) سورة آل عمران الآية ١٠.

(٢) تفسر القرآن العظيم ج ١ ص ٣٥٧.

وأول من أحدث الطبقة بين المسلمين وأوجد الفوارق وأحیی النعرات الجاهلية بينهم فميز العرب على غيرهم، والقرشيين على سائر القبائل، والمهاجرين على الأنصار، والأحرار على الموالي، وفرق بين المسلمين هو عمر بن الخطاب (١).

وقد كانت هذه النزعة إحدى الفلتات التي كانت تظهر عليه في حياة النبي ﷺ، ولما آل الأمر إليه اتخذها سياسة أجراها على الناس.

روى الكليني بسنده عن حنان، قال: سمعت أبي يروي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كان سلمان جالسا مع نفر من قريش في المسجد، فأقبلوا ينتسبون، ويرفعون في أنسابهم حتى بلغوا سلمان، فقال له عمر ابن الخطاب: أخبرني من أنت؟ ومن أبوك؟ وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالا فهداني الله عز وجل بمحمد ﷺ، وكنت عائلا فأغواني الله بمحمد ﷺ، وكنت مملوكا فأعتقني الله بمحمد ﷺ، هذا نسي، وهذا حسي، قال: فخرج النبي ﷺ وسلمان عليه السلام يكلمهم، فقال له سلمان: يا رسول الله ما لقيت من هؤلاء، جلست معهم فأخذوا ينتسبون، ويرفعون في أنسابهم حتى إذا بلغوا إلي قال عمر بن الخطاب: من أنت؟ وما أصلك؟ وما حسبك؟ فقال النبي ﷺ: فما قلت له يا سلمان؟ قال: قلت له: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالا فهداني الله عز ذكره بمحمد ﷺ، وكنت عائلا فأغواني الله

(١) الإمام الحسين عليه السلام ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

عز ذكره بمحمد ﷺ، وكنت مملوكا فأعتقني الله عز ذكره بمحمد ﷺ، هذا نسي، وهذا حسبي، فقال رسول الله ﷺ: يا معشر قريش إن حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله، قال الله عز وجل: (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (١) ثم قال النبي ﷺ لسلمان: ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل، وإن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل (٢).

وكانت هذه السياسة منه طامة كبرى حرفت مسار الإسلام عن طريقه المستقيم، ولو أعطينا التأمل حقه في هذا الأمر لرأينا أن ما أحدثه عمر من التمايز والتفاضل بين المسلمين على أساس من اعتبارات محضة، لا واقع لها أو بإزائها، قد أوجد ثغرة كبيرة، وأحدثت ردة فعل عنيفة راح ضحيتها كثير من المبادئ المشرقة، بل إن ذلك أوجد الخلاف والشقاق بين المسلمين أنفسهم، وما تمرد المتمردين على أمير المؤمنين عليه السلام إلا نتيجة طبيعية لهذه السياسة التي أسسها عمر بن الخطاب، وذلك لأن عليا عليه السلام أراد أن يرجع بالناس إلى سيرة الرسول ﷺ فأبأها أكثرهم، وكان الخلاف والشقاق إذ اعترضوا على أمير المؤمنين عليه السلام لمساواته بينهم وبين عبيدهم، وهم يرون أن لهم شأنًا، ذلك الشأن الذي غرسه عمر في أنفسهم، ووافق هوى في

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) الروضة من الكافي - الحديث ٢٠٣ ص ١٨١ - ١٨٢.

قلوبهم، فصدقوا، وقد حليت الدنيا في أعينهم فأبوا الحق بل حاربوه.
ولذا فليس من البعيد القول بأن قتل عمر إنما هو نتيجة لسياسته التي انتهجها وطبقها على
الناس من تفضيل العرب على غيرهم، فكان الساعي لحنقه بظلفه، وإن كانت المسألة في واقعها
أبعد من ذلك.

ولقد استشرت هذه السياسة العمرية، ولا سيما في العصر الأموي وما تلاه من العصور، لأنها
وافقت هوى بني أمية الذين تباهوا بأصولهم العربية حتى بلغ الأمر أن ألغي الإسلام، وكانت الجزية
تؤخذ ممن أسلم بحجة أنه إنما أسلم هرباً من دفع الجزية، فانطمست قيم الدين من نفوس الناس،
ولم يبق من الإسلام إلا شكل لا يحمل محتوى، وأصبح هم القائمين على الأمر فرض سيطرتهم
وسياستهم على الناس في معزل عن الدين، وأصبح الكتاب والشعراء بعد ذلك يتغنون بهذه الأمجاد
الزائفة حيث يتشدقون بأن الإسلام قد ضرب بأطنابه في أقصى الشرق وأقصى الغرب وما علموا
أو علموا وتغافلوا أن هذا الإسلام الذي يتحدثون عنه إنما هو قشور خالية من اللباب^(١)، ولذا
تلاشى ذلك الإسلام عند أول وثبة من بعض أهل تلك المناطق، فعادت البلدان إلى كفرها بعد أن
كانت بحسب الظاهر في عداد البلاد الإسلامية وأهلها في عداد المسلمين.

إذن كانت هذه السياسة خطيرة إلى حد كبير، وقد تربت عليها

(١) الشهاب الثاقب في بيان معنى الناصب ص ٥٩ - ٦٧.

النفوس، وأصبح الذين يرون أنفسهم من سادة القوم أن الاقتران بالجواري عار لا يليق بالأشراف.

ويدل على ذلك ما ورد من معاتبة عبد الملك بن مروان للإمام زين العابدين عليه السلام، واعتراضه عليه حين تزوج بإحدى الجواري، فقد روى الكليني بسنده عن يزيد بن حاتم، قال: كان لعبد الملك بن مروان عين بالمدينة يكتب إليه بأخبار ما يحدث فيها، وإن علي بن الحسين عليه السلام أعتق جارية ثم تزوجها، فكتب العين إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى علي بن الحسين عليه السلام: أما بعد، فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنه كان في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر، وتستنجبه في الولد، فلا لنفسك نظرت، ولا على ولدك أبقيت، والسلام.

فكتب إليه علي بن الحسين عليه السلام أما بعد، فقد بلغني كتابك تعنفي بتزويجي مولاتي، وتزعم أنه كان في نساء قريش من أتمجد به في الصهر، واستنجبه في الولد، وأنه ليس فوق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتقى في مجد ولا مستزاد في كرم، وإنما كانت ملك يميني خرجت متى أراد الله عز وجل مني بأمر التمس به ثوابه، ثم ارتجعتها على سنة، ومن كان زكيا في دين الله فليس يخل به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الحسيصة، وتمم به النقيصة، وأذهب به اللؤم فلا لؤم على امرء مسلم، وإنما اللؤم لؤم الجاهلية، والسلام.

فلما قرأ الكتاب رمى به إلى ابنه سليمان، فقرأه فقال: يا أمير المؤمنين لشد ما فخر عليك علي بن الحسين عليه السلام ، فقال: يا بني لا تقل ذلك، فإنه ألسن بني هاشم التي تفلق الصخر، وتغرف من بحر، إن علي ابن الحسين عليه السلام يا بني يرتفع من حيث يتضع الناس ^(١).
وعرض بعض المحققين صوراً من هذه السياسة الهوجاء التي اتبعها الحكام في احتقار كل من هو غير عربي فقال: لقد أمر الحجاج أن لا يؤم في الكوفة إلا عربي...، وقال لرجل من أهل الكوفة: لا يصلح للقضاء إلا عربي. كما طرد غير العرب من البصرة والبلاد المجاورة لها، واجتمعوا يندبون: واُمَّجداً و أحمداً، ولا يعرفون أين يذهبون، ولا عجب أن ترى أهل البصرة يلحقون بهم ويشتركون معهم في نعي ما نزل بهم من حيف وظلم.

بل لقد قالوا: لا يقطع الصلاة إلا حمار، أو كلب، أو مولى.
وقد أراد معاوية أن يقتل شطراً من الموالى عندما رأهم كثروا، فنهاه الأحنف عن ذلك.
وتزوج رجل من الموالى بنتاً من أعراب بني سليم، فركب مُجَّد ابن بشير الخارجي إلى المدينة، وواليتها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكى إليه ذلك، فأرسل الوالي إلى المولى، ففرق بينه وبين زوجته، وضربه ماءً تي سوط، وحلق رأسه وحاجبه ولحيته، فقال

(١) الفروع من الكافي ج ٥ - كتاب النكاح - باب آخر منه الحديث ٤ ص ٣٤٤.

مُجَّد بن بشير في جملة أبيات له:

قضيت بسنة وحكمت عدلا ولم تثرث الخلافة من بعيد
ولم تفشل ثورة المختار إلا لأنه استعان فيها بغير العرب، فتفرق العرب عنه لذلك.
ويقول أبو الفرج الأصفهاني: ... كان العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا جاء العربي من
السوق ومعه شئ ورأى مولى دفعه إليه فلا يمتنع.
بل كان لا يلي الخلافة أحد من أبناء المولدين الذين ولدوا من أمهات أعجميات.
وأخيرا فإن البعض يقول: إن قتل الحسين كان الكبيرة التي هونت على الأمويين أن يقاوموا
اندفاع الإيرانيين إلى الدخول في الإسلام^(١).
ونقل المرحوم السيد عبد الرزاق المقرم في كتابه مقتل الحسين عليه السلام عن أحمد أمين في كتابه
ضحى الإسلام قوله: الحق أن الحكم الأموي لم يكن حكما إسلاميا يسوى فيه بين الناس،
ويكافئ المحسن عربيا كان أو مولى ويعاقب المجرم عربيا كان أو مولى، وإنما الحكم فيه عربي،
والحكام خدمة للعرب، وكانت تسود العرب فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية^(٢).
ولما كان أهل البيت عليهم السلام هم أئمة الدين، أرادوا إظهار فساد هذه

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام هامش ص ٢٧.

السياسة بإجراء عملي، وبدأوا بأنفسهم، وهم وإن لم يعطوا الفرصة ليمارسوا دورهم في تطبيق تعاليم الدين إلا أنهم لا يتخلون عن أداء وظيفتهم مهما أمكن، لذلك اختاروا أمهات الأولاد الجواري - مع ملاحظة سائر الشرائط - ليثبتوا أن لا فرق بين أحد من الناس، وأن ما وضع من الامتيازات لبعض دون بعض لم تكن بحسب المقاييس الإلهية، وإذا كانت الظروف قد قهرت بعض أولئك النسوة فأصبحن يبعن في أسواق الرقيق فلا يعني ذلك أنهن خاليات من الشرف والفضيلة، بل قد يكون العكس صحيحا، فرب جارية أحاطتها العناية الإلهية لتكون قرينة للعصمة وأما للمعصوم، وهذا ما حدث بالنسبة إلى أمهات بعض الأئمة عليهم السلام.

ولا يقاس بعد ذلك فضل هذه الجواري والإماء اللاتي أصبحن أوعية لحمل الإمامة بأي امرأة أخرى ممن لم تحظ بهذا الشرف العظيم وإن كانت من أرقى البيوتات العربية بحسب الظاهر.

الثالث: إن مما لا شك فيه أن رسالة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هي الخاتمة الناسخة لجميع الرسائل السابقة وهي الشاملة لكافة البشر، فلا دين بعد دين الإسلام، **(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ** **الإِسْلَامُ)** ^(١) ولا نبي بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وذلك من البديهيات المسلمة التي لا مجال للنزاع فيها، وأيدت ذلك الأدلة والبراهين.

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يبقى هذا الدين محفوظا وإن رحل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد أوكلت مهمة حفظ الدين إلى ذرية النبي ﷺ وعترته، وهم وراث علمه ومقامه الأئمة الاثنا عشر أولهم أمير المؤمنين عليّ بن الحسين العسكري عليه السلام، وعلى ذلك قامت الأدلة والبراهين أيضا.

ونتيجة ذلك أنه كما أن نبوة النبي ﷺ عامة شاملة، فكذلك إمامة الأئمة عليهم السلام عامة وشاملة، ومعنى ذلك أن إمامة الأئمة عليهم السلام ليست مقتصرة على مجتمع معين أو عنصر معين، أو فئة من الناس معينة، فكما أن النبي ﷺ بعث للأبيض والأسود على السواء، فكذلك إمامة الأئمة عليهم السلام لكافة الناس.

ومن هنا يتضح لنا وجه آخر في اقتران بعض الأئمة عليهم السلام بنساء غير عربيات بل من قوميات أخرى كالفارسية أو الرومية أو غيرها، وقد وردت الروايات الدالة على ذلك. فإن أم الإمام السجاد عليه السلام كانت من أصل فارسي^(١)، وكانت أم الإمام الكاظم عليه السلام من أشرف الأعاجم^(٢)، وكانت أم الإمام الرضا عليه السلام من أهل المغرب^(٣)، وكانت أم الإمام الجواد عليه السلام من أهل النوبة من قبيلة مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وكانت أفضل نساء زمانها، وأشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: بأبي ابن خير الإمام النوبة الطيبة^(٤)، وكانت أم الإمام الهادي عليه السلام

(١) الأنوار البهية ص ١٠٧.

(٢) الأنوار البهية ص ١٧٩.

(٣) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٨.

(٤) منتهى الآمال ج ٢ ص ٥٢٣.

مغربية، ولم يكن لها مثيل في الزهد والتقوى^(١)، وكانت أم الإمام الحسن العسكري في بلدها من الأشراف في مصاف الملوك^(٢)، وكانت أم الإمام الحجة بنت قيسر ملك الروم، وأمها من ولد الحواريين، وتنسب إلى وصي المسيح شمعون^(٣).

والذي نود أن نشير إليه في هذا الوجه أن الإمامة لما كانت عامة وأن الإمام إمام لكل الناس على شتى اختلاف أعراقهم وأصولهم انحدر بعض الأئمة من جهة أمهاتهم من أصول غير عربية ليكون ذلك علامة بارزة على عالمية إمامتهم، وشمولها لجميع أهل الأرض، وأن لكل من السلالات البشرية طرفا يوصلها بهذا الدين الإلهي العظيم، وتلك حكمة بالغة ولطف عام لكل البشر، وأما العروبة فليس لها خصوصية في حد ذاتها من حيث هي، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ولعل هناك سرا آخر ينطوي تحت هذا الوجه قد تكشف عنه الأيام نوره كاحتمال ليس إلا، إذ لا نملك دليلا قاطعا عليه، وإن كان في نفسه غير بعيد، وحاصله: أن الإمام المهدي الموعود به على لسان النبي ﷺ، ونطق بذلك القرآن الكريم، وأكدت عليه الروايات المتواترة عن أهل البيت عليهم السلام سيكون له الشأن العظيم في إعلاء كلمة الله تعالى، وسيملا الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، وسيقوم بأداء مهمته في أغلب أحواله بشكل طبيعي، وإن كان يأتي

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٥٩١.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٦٤٩.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٦٩٥.

بالمعجزة والكرامة تأييدا من الله تعالى، ولا شك أن تلك مهمة شاقة كما شرحتها الروايات والآيات.

وإذا كانت أم الإمام المهدي عليه السلام تنحدر من سلالة أحد أوصياء عيسى بن مريم عليه السلام فما يدرينا: لعل في ذلك تمهيدا وتسهيلا لإنجاز مهمة الإمام عليه السلام في خضوع النصارى والكفار وتسليمهم له نظرا إلى أن أجداده لأمه منهم، فيحرك في نفوسهم الجانب العاطفي للرحم القائمة بينه وبينهم، الأمر الذي يختصر عليه كثيرا من الأمور وينجزها في سهولة ويسر. على أن ذلك أحد أسباب اللطف العام بأولئك النصارى حيث يكونون على مقربة من الهداية والنجاة.

وبعد هذا نقول: إن أم السيدة فاطمة المعصومة هي أم الإمام الرضا عليه السلام، وقد اجتمعت فيها الكمالات والفضائل التي أهلتها لأن تكون أما لولي الله عليه السلام وحاضنة لكرامة أهل البيت عليهم السلام، ولم تسعفنا الروايات الواردة في تاريخ مراحل حياتها إلا بالنزر القليل، وإن كان يكشف عن جلاله قدرها ورفعة مقامها، فقد ورد في بعض الروايات أنها كانت تعيش في بيت الإمام الصادق عليه السلام قبل اقترانها بالإمام الكاظم عليه السلام، وكانت جليلة ذات عقل ودين ^(١).

روى الصدوق بسنده عن علي بن ميثم أنه قال: اشترت حميدة المصفاة - وهي أم أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام - وكانت من

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٠٥.

أشرف العجم - جارية مولدة واسمها تكتم، وكانت من أفضل النساء في عقلها ودينها وإعظامها لمولاتها حميدة المصفاة، حتى أنها ما جلست بين يديها منذ ملكتها إجلالا لها. وكانت علائم الجلالة والنجابة تلوح منها حتى شهدت بذلك مولاتها حميدة المصفاة على ما يروي الصدوق، فقد روى أن حميدة قالت لابنها موسى عليه السلام: يا بني إن تكتم جارية ما رأيت جارية قط أفضل منها، ولست أشك أن الله تعالى سيظهر نسلها، إن كان لها نسل، وقد وهبتها لك فاستوص بما خيرا ^(١).

ولا شك أن الحياة في بيت الإمام الصادق عليه السلام، في حد ذاتها كافية في تأسيس حياة هي أفضل ما تكون، حيث منبع الطهر والعفاف والقداسة والكمال، فإذا انضم إلى ذلك الاستعداد التام كانت النتيجة هي بلوغ الغاية الممكنة، في الكمال والاستقامة. وقد انعكس ذلك على حياة السيدة تكتم، فكانت من أهل العبادة والتهجد، فإنها لما أنجبت الرضا عليه السلام وكان كما تصفه الروايات يرتضع كثيرا، وكان تام الحلقة، قالت: أعينوني بمرضعة، فقيل لها أنقص الدر؟

فقالت: لا أكذب، والله ما نقص، ولكن علي ورد من صلاتي وتسييحي وقد نقص منذ ولدت ^(٢).

وفي ذلك دلالة على عظمة هذه المرأة، ومدى تعلقها بالله تعالى وارتباطها به، ولا شك أن لذلك تأثيرا على ما ينحدر منها من نسل.

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٥.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٥.

تنبيه:

قد تقدم أن الإمام الكاظم عليه السلام هو الذي اشترى السيدة تكتم حيث بعث هشاما لابتياعها له، ومر آنفاً أن حميدة المصفاة أم الإمام الكاظم عليه السلام هي التي اشترتها وظاهر ذلك هو التنافي. ولكن يمكن الجمع بين الروایتين بأن يقال: إن الإمام الكاظم عليه السلام اشترها جارية لأمه فمكثت عند أمه مدة، ثم وهبتها أمه إليه، وبذلك يرتفع التنافي بين الروایتين. وعلى أي تقدير فقد ذكرت الروايات أن السيدة تكتم كانت ذات حظوة عند الإمام عليه السلام، وموضع عنايته، فإنها لما ولدت له الرضا عليه السلام سماها الطاهرة ^(١). وكان لها عدة أسماء منها: تكتم، ونجمة، وأروى، وسكن، وسمانة، وأم البنين، وقيل: خيزران، وصقر، وشقراء ^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٥.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

تعدد الأسماء:

ومما يناسب المقام الإشارة إلى ظاهرة تعدد أسماء الجوارى والعبيد، والملاحظ أن لأمهات الأولاد عدة أسماء، فإن لأم الإمام الرضا عليه السلام كما مر عشرة أسماء، ولغيرها من أمهات الأئمة عليهم السلام عدة أسماء، وهي ظاهرة تثير الالتفات، ووراءها حكمة لعلنا نستطيع استجلاءها من خلال ما تسعفنا به المصادر التي تناولت هذه الظاهرة أو أشارت إليها.

ونقول: إن لهذه الظاهرة أصلاً شرعياً، فقد ورد النص بذلك، واستفاد الفقهاء منه استحباب تغيير اسم العبد أو الجارية، أما النص فهو ما رواه الكليني في الكافي بسنده عن ابن أبي عمير (عن رجل) عن زرارة، قال: كنت جالسا عند أبي عبد الله عليه السلام، فدخل عليه رجل، ومعه ابن له، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ما تجارة ابنك؟ فقال: التنخس، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: لا تشتري شيئا ولا عيبا، وإذا اشتريت رأسا فلا ترين ثمنه في كفة الميزان، فما من رأس يرى ثمنه في كفة الميزان فأفلح، وإذا اشتريت رأسا فغير اسمه وأطعمه شيئا حلوا إذا ملكته، وصدق (وتصدق خ ل) عنه بأربعة دراهم ^(١).

قال المحقق في الشرائع: ويستحب لمن اشترى مملوكا أن يغير اسمه ^(٢).

(١) الفروع من الكافي ج ٥ باب شراء الرقيق الحديث ١٤ ص ٢١٢.

(٢) شرائع الإسلام ج ٢ ص ٥٨.

وقال العلامة في القواعد: ويستحب لمن اشترى مملوكا تغيير اسمه وإطعامه حلوة والصدقة عنه بشئ^(١).

وقال في التذكرة: يكره للرجل إذا اشترى مملوكا أن يريه ثمنه في الميزان، ويستحب له تغيير اسمه، وأن يطعمه شيئا من الحلوة، وأن يتصدق عنه بأربعة دراهم^(٢).

وقال صاحب الحدائق: ومنها أنه يستحب لمن يشتري مملوكا أن يغير اسمه، وأن يطعمه شيئا من الحلو، وأن يتصدق عنه بشئ^(٣).

وغيرها من الأقوال الكثيرة الدالة على ذلك، والتي يظهر منها الاتفاق على هذا الحكم، وإن كان أمرا استحبابيا.

ويبدو الجانب الأخلاقي واضحا في هذا الحكم، فإن للرقية واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان وصيرورته آلة لا يملك من أمره شيئا آثارا سيئة خطيرة.

ولم تكن الرقية تشريعا إلهيا، وليس في الإسلام حكم بمشروعية الاسترقاق الابتدائي، وإنما كان الرق نظاما سائدا بين الناس قبل الإسلام في الأمم السابقة.

ولما جاء الإسلام كان هذا النظام قائما بين الناس فأقره ووضع له أحكاما خاصة من شأنها القضاء عليه قضاء تاما في معالجة حكيمة لهذه المسألة المهمة.

(١) قواعد الأحكام ص ١٣٠.

(٢) تذكرة الفقهاء ج ٢ ص ٥٠٠.

(٣) الحدائق الناضرة ج ١٩ ص ٤١٧.

وفي الأحكام الجزائية التي وضعها الإسلام عند المخالفات الشرعية أكبر شاهد على ذلك، إضافة إلى ما ندب إليه الدين، ورغب فيه، ووعد عليه الثواب ونيل الدرجات، وإثارة الشعور الإنساني وتحريك الجانب العاطفي عند الأحرار نحو العبيد الذين قهرتهم ظروف معينة أصبحت فيها أمورهم وشؤونهم بأيدي غيرهم.

هذا غير ما فتحه الإسلام من أبواب تمكن العبد من الدخول فيها للانطلاق من قيد الرقبة، فإن لذلك دورا آخر ساهم في القضاء على هذه المشكلة.

نعم سوغ الإسلام الاسترقاق في حالة واحدة، وليست هي أمرا ابتدائيا كما ذكرنا، وهي ما ذكرته المصادر الفقهية من جواز الاسترقاق في حالة الحروب بين المسلمين وبين غيرهم من الملل الكافرة، ولكن على ضوء شرائط معينة، وفي حالات خاصة، وقد تكفلت الكتب الفقهية ببيان ذلك ضاربة بذلك أروع المثل الأخلاقية.

وإنما ساغ ذلك لأنه عمل جزائي لوقوفه في مواجهة الإسلام ومحاربه، وقد كان في معرض القتل، إلا أنه لما وقع أسيرا كان جزاؤه أن يسترق، وفي ذلك تخفيف وامتنان عليه، على أن هناك حلولا ذكرت في الفقه تعالج حالة الاسترقاق يتمكن من خلالها الخروج من هذه الحالة.

ومن ذلك يظهر أن الاسترقاق ليس مقصودا في الشرع لذاته، ولا

غرضاً من أغراضه، وإنما هو أمر استثنائي وظرف طارئ اقتضى ذلك، ولسنا في مقام دراسة هذه الناحية، وتكفينا هذه الإشارة الإجمالية التي يتضح من خلالها عظمة الإسلام وسمو أحكامه وشرف مقاصده ونبيل أهدافه.

ثم نقول: إن هذا الإنسان الذي قهرته الظروف فجعلت منه آلة لا يملك من أمره شيئاً، يمر بمعاناة وآلام نفسانية خطيرة، وتعتصره المرارة حيث يرى نفسه عبداً حقيراً يستعبده غيره، ممن قد يكون دونه شرفاً ومكانة فتنهدم معنوياته وتنسد في وجهه الآمال والأحلام، وربما ينتقل من يد تصفع إلى أخرى تلطم، وهكذا يعيش محطماً قد ارتبط مصيره بأيدي الباعة والنخاسين.

ومن هنا تتجلى الحكمة في استحباب تغيير اسمه عند الشراء لأنه بذلك يبدأ حياة جديدة ينسى فيها ماضيه البائس، وأيامه السوداء، وفي ذلك إغاثة له على نسيان أو تناسي عهده السابق وتخفيف لآلامه ومعاناته.

وفي إطعامه الحلو دلالة أخرى: فإن فيها إشعاراً ببداية عهد جديد لا مرارة فيه، وهكذا في التصديق عنه بشيء.

وأما كراهة أن يرى ثمنه فهي أوضح دلالة وأجلى بياناً في مراعاة الشعور وحفظ الكرامة الإنسانية التي دأب الإسلام على مراعاتها والحفاظ عليها في جميع الأحوال والظروف.

ولسنا نقول: إن ما يعانيه هذا الإنسان من الهوان دائمى التحقق والوقوع، وإنما هو مقتضى طبيعة الاسترقاق وشأنه، وإلا فقد ينتقل المملوك من يد رحيمة إلى يد أرحم، ومن عطف إلى ما هو أشد عطفًا وشفقة وحنوا، وربما كانت سعادة امرء أن يعيش مملوكا لا أن يعيش طليقا، وفي ما يذكره التاريخ من قصة زيد بن حارثة حيث فضل الحياة مع رسول الله ﷺ على الحياة مع أبيه حتى بلغ الأمر أن تبناه النبي ﷺ فكان يدعى زيد بن محمد بعد أن تبرأ منه أبوه إلى أن نزل قوله تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) (١).

وفي ما حدث به التاريخ من سيرة أمير المؤمنين عليه السلام وأولاده مع ممالئهم شواهد تدل على أن ما ذكرناه ليس مطردا وفي جميع الأحوال، فإن كثيرا من أولئك العبيد والجواري قد بلغوا مبلغا من العلم والفضيلة والشرف انحنى لهم التاريخ إجلالا لمقامهم واعترافا بسمو ذواتهم، وإكبارا لعظمتهم، لأنهم حظوا بقلوب عطوفة، ونفوس رحيمة، وعقول ناضجة مدبرة، مكنتهم من تسنم أرقى الدرجات.

إذن فتغيير الاسم يكشف عن حكمة بالغة أراد منها الشرع أن يخفف من شئ من المعاناة التي قد ينالها من قهرته الظروف فساقته إلى سوق الرقيق.
ومن المحتمل أن يكون تعدد الأسماء للشخص الواحد لكونها

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ج ٧ ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

تتضمن معاني وإشارات إلى خصائص المسمى، وهذا الأمر نقف عليه في كثير من الناس أحرارا كانوا أو عبيدا، فإن لرسول الله ﷺ أكثر من اسم يحمل أكثر من معنى وأكثر من لقب كذلك، كما للأئمة عليهم السلام وللصديقة الزهراء عليها السلام، وكان ذلك محل عناية من الآداب الشرعية التي لم تغفل هذا الجانب فرغبت في اختيار الاسم الحسن واللقب الحسن والكنية الحسنة. ومن المحتمل أيضا أن تعدد الأسماء لم يكن عن شئ من ذلك ولا سيما في العبيد والجواري، إذ لا يعيشون حياة مستقرة، ولا يهتم البائع أو المشتري اسم سلعته، فيضع بإزائها اسما ما لمجرد التمييز، فتجتمع عدة أسماء للشخص الواحد نتيجة ذلك. ولعل هناك وجوها أخرى لم ندرکها بعد وراء تعدد الأسماء، إلا أن في ما ذكرناه قد يكشف بعض الوجه في تعدد أسماء أمهات الأئمة عليهم السلام. وبذلك لا نحتاج إلى تكلف البحث عن المعنى الاشتقاقي لمعنى الاسم وتطبيق المعنى المناسب على المسمى كما حاول بعضهم (١) أن يوجد المناسبة ولو كانت بعيدة ليستنتج الوجه في التسمية. وإنما لا نحتاج إلى ذلك لأننا لا نعلم الواضع لهذه الأسماء، لنلتمس الوجه اللائق في التسمية بالاسم المعين، نعم إذا كان الواضع معروفا وهو عالم بمداليل الألفاظ قاصدا لمعانيها فلا بد من حمل كلام الحكيم

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام (فارسي) ص ٨٣ - ٨٦.

على ما يناسبه من المعاني، صيانة لكلامه عن اللغو، وقد مر أن الإمام الكاظم عليه السلام أطلق اسم الطاهرة على السيدة تكتم بعد أن أنجبت الإمام الرضا عليه السلام .

فهذه التسمية منه عليه السلام تكشف عن معنى عظيم في المسمى صدر من المعصوم في شأن أم المعصوم، وهو العالم بحقائق الأمور الذي يضع الأشياء في مواضعها، وهو نظير ما ورد عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام ، فقد جاء في كتاب الكافي أنه عليه السلام لما بعث من يشتري حميدة أم الإمام الكاظم عليه السلام وجى بها إليه، قال لها: ما اسمك؟ قالت: حميدة، فقال عليه السلام: حميدة في الدنيا محمودة في الآخرة ^(١) .

فإنه وإن لم تكن التسمية منه عليه السلام إلا أنه إقرار لها وإمضاء منه، بل فسره عليه السلام بتفسير يكشف عن معنى عظيم في هذه المرأة الطاهرة، وقد وصفها الإمام الصادق عليه السلام كما في الكافي بقوله: حميدة مصفاة من الأدناس كسبيكة الذهب، ما زالت الأملاك تحرسها حتى أدت إلي كرامة من الله لي، والحجة من بعدي ^(٢) .

وبناء على هذا فبقية الأسماء إن كانت على الوجه الذي ذكرناه فهو، وإلا فلا داعي للتكلف في التماس معنى مناسب فإن بعض ما ذكر من المعاني وتطبيقه عليها بعيد جدا. هذا، وقد ذكرت ستة أسماء أخرى لأم الإمام الرضا عليه السلام غير ما

(١) الأصول من الكافي ج ١ باب مولد أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام الحديث ١ ص ٤٧٧ .

(٢) الأصول من الكافي ج ١ باب مولد أبي الحسن موسى عليه السلام الحديث ٢ ص ٤٧٧ .

ذكرناه، وهي: سكيّنة، وسلامة، وتحيّة، ونجية، وسها، وشهد (١).
وإلى هنا تبين أن أم الإمام الرضا عليه السلام والسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام من سيدات النساء،
وقد بلغت من الشرف والفضل والطهر والعفاف والكمال أعلى المراتب وأرفع الدرجات، حتى
أصبحت قرينة المعصوم وأما للمعصوم. فسلام الله عليها وتحياته وبركاته.

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٨٦.

ولادة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام

في ذلك البيت الطاهر ولدت سليلة الطهر والعفاف فاطمة المعصومة، وكانت الظروف التي ألمت بأهل البيت عليهم السلام آنذاك عصبية جدا إلى حد غاب فيها عن المؤرخين والرواة تسجيل أحداث الولادة وتأريخها، أو ذكر شيء مما يتعلق بها، إذ كانت السلطة العباسية قد أحكمت قبضتها وأخذت تتتبع مناوئها ممن تتوجس منهم وترى أنهم سبب إزعاج لهم ومصدر قلق لسياستهم، وهم العلويون وفي طليعتهم الإمام الكاظم عليه السلام صاحب الحق الشرعي الذي ما فتئ يلمح بل ويصرح بأنه صاحب الحق، وأن العباسيين خدعوا الأمة بسياستهم الملتوية حيث أعلنوا للناس أن حركتهم ضد بني أمية إنما كانت غضبا لبني هاشم مما حل بهم من خصومهم الأمويين، وطلبوا لثأرهم منهم، وأن دعوتهم كانت للرضا من آل محمد عليهم السلام، وبذلك استطاعوا أن يسيروا عواطف الناس ومشاعرهم نحو تأييدهم، وانطلت اللعبة على أكثر الناس فاستجابوا لهم في سداجة وحسن نية، وفي غفلة عما بيته

العباسيون، حتى انخدع بذلك القواد الذين كان لهم الدور في توطيد الملك والقضاء على بني أمية وإخضاع البلاد، في ظن منهم أن الدعوة للرضا من آل محمد عليه السلام دعوة صادقة، وما علموا أن بني العباس إنما استخدموهم آلات لتحقيق أغراضهم، ولذا ما إن استلم العباسيون زمام الأمر واكتشف هؤلاء القواد أنهم خدعوا فأعلنوا سخطهم حتى فتكوا بهم واستأصلوهم كأبي سلمة الخلال، وأبي مسلم الخراساني وغيرهما من القادة العسكريين ^(١).

ولم تكن هذه اللعبة لتخفى على آل محمد عليه السلام الذين اتخذهم العباسيون درعا تترسوا به من أجل الوصول إلى أغراضهم، وقد كشف الإمام الصادق عليه السلام هذه المهزلة العباسية وأخذ حذره ولم يتورط في أحداث هذه الحركة المبينة في حين قد تورط غيره من بني عمه فانساق معهم، وكان مآله أن فتك به كما فتك بغيره.

وفي هذه الحقبة الزمنية من التاريخ أحداث كبيرة، وهي جديرة بالبحث، ولسنا في صدد الحديث عنها، ولعلنا نشير إلى بعضها في موضع آخر.

أقول: من أجل هذا تحاشى الرواة والمؤرخون من الدنو من أهل البيت عليه السلام في هذه الفترة لتسجيل ونقل بعض الأحداث التي ترتبط بتاريخهم خوفا على أنفسهم من بطش الحكام وغضبهم بل انضم

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٧٢.

بعضهم إلى صفوف الحكام تزلفا وطمعا.

وقد غاب عنا كثير من الحقائق وخفيت علينا وقائع كثيرة، وذهبت في طي النسيان، ومنها تاريخ ولادة السيدة المعصومة عليها السلام، فلم يرد في شيء من الروايات ذكر السنة التي ولدت فيها فضلا عن اليوم أو الشهر.

وما بأيدينا من المصادر التي ذكرت تاريخ ولادتها عليها السلام هي في الحساب متأخرة جدا، ولم تذكر مستندا لذلك، بل ذكر بعض الكتاب أن ذلك أمر مجهول ^(١).

ونحن وإن نقل ما ذكره المؤلفون إلا أننا لسنا على يقين، وتبقى حلقة مفقودة تضاف إلى كثير من الحلقات الضائعة من تاريخ أهل البيت عليهم السلام.

ذكر بعض المؤلفين - ونسبه إلى المؤرخين - أن ولادتها عليها السلام كانت سنة ١٨٣ هـ، وهي السنة التي استشهد فيها والدها الإمام الكاظم عليه السلام، في قول أكثر المؤرخين ^(٢).

وعلى هذا فلم تحظ السيدة المعصومة بلقاء أبيها عليه السلام ورعايته، وعاشت في كنف أخيها وشقيقها الإمام الرضا عليه السلام وصي أبيه والقائم مقامه.

واستبعد بعضهم ^(٣) أن تكون ولادتها عليها السلام في تلك السنة، لأن السنوات الأربع الأخيرة من عمره عليه السلام - على أقل التقادير - كان فيها

(١) رباحين الشريعة ج ٥ (فارسي) ص ٣١.

(٢) أعلام النساء المؤمنات ص ٥٧٦.

(٣) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ١٠٣.

رهين السجون العباسية، مضافا إلى أنه قد ذكر أن للإمام الكاظم عليه السلام أربعاً من البنات ^(١)، اسم كل منها فاطمة، وأن الكبرى من بينهن هي فاطمة المعصومة عليها السلام، ولذا فلا بد أن تكون ولادتها قبل سنة ١٧٩ هـ، وهي السنة التي قبض فيها على الإمام عليه السلام وأودع السجن. ولكن بالالتفات إلى احتمال أن هؤلاء الفاطميات الثلاث - غير الكبرى - لسن من أم واحدة، بل من أمهات شتى، فلا استبعاد في أن تكون ولادتهن في سنة واحدة. على أنه يمكن القول بأنه قد قبض على الإمام عليه السلام وأمهاهن حوامل بهن، وكانت ولادتهن بعد سنة ١٧٩ هـ، وأن فاطمة المعصومة كانت ولادتها في سنة ١٧٩ هـ. ولكن مع ذلك لا يمكن الجزم بشيء، نعم بناء على أن شهادة الإمام الكاظم عليه السلام كانت سنة ١٨٣ هـ، فمن البعيد أن تكون ولادة السيدة المعصومة في تلك السنة، ولا سيما أنها الكبرى من بين أخواتها الثلاث. ثم إنه قد ذهب آخرون ^(٢) إلى أن ولادتها عليها السلام كانت في غرة شهر ذي القعدة سنة ١٧٣ هـ. والقائل بذلك وإن كان من الباحثين الأجلاء وله باع طويل في التحقيق والتتبع، وأرسل ذلك إرسال المسلمات إلا أنه لم يشر إلى مستنده في تحديد هذا التاريخ.

(١) تذكرة الخواص ص ٣٥١.

(٢) مستدرك سفينة البحار ج ٨ ص ٢٦١.

وبناء على هذا التاريخ تكون السيدة فاطمة قد عاصرت من حياة أبيها عشر سنوات، غير أن السنين الأربع الأخيرة من عمره عليه السلام كان فيها رهين السجون العباسية كما ذكرنا، فلم تحظ منه إلا بست سنوات.

ولم نقف في شيء من المصادر على غير هذين القولين في تحديد سنة ولادتها عليها السلام. وعلى أي تقدير فقد فتحت هذه السيدة عينيها على الدنيا في أيام محنة أبيها، وقد أحاطت به الخطوب، فارتسمت حياتها بالحزن والأسى، وإذا كان عمرها عليها السلام ست سنوات يوم قبض على أبيها فهي في سن تدرك فيه غياب الأب عن البيت، وتعي ما يجري في هذا البيت، وما يسوده من الحزن والألم، وما يعانيه أهله من لوعة وعناء، ثم ما يتناهى إلى سمعها من شهادة أبيها عليه السلام، وما تلاها من أحداث مروعة فيعتصر الألم قلبها الصغير، وهي لا ترجو لأبيها عودة إلى البيت، وترى أن هناك أخطارا تحدق بأهل هذا البيت، وربما أثار ذلك في نفسها كثيرا من التساؤلات حول ما يجري، ولماذا قصد أبوها بالذات، وأهل بيتها بالخصوص، بأنواع الإيذاء من دون سائر الناس، ولكنها ما تلبث أن تدرك أن لهذه القضايا جذورا تمتد إلى زمان جدتها الزهراء عليها السلام.

فمن ذلك اليوم الذي عانت فيه أمها فاطمة عليها السلام آلام الظلم والعدوان، ومن ذلك اليوم الذي نحي فيه جدها أمير المؤمنين عليه السلام عن

منصب الإمامة أصبح أهل هذا البيت عرضة لظلم الظالمين وتعدي الغاشمين .
وما كانت السيدة فاطمة المعصومة لتبقى مهملة بلا كفيل، فإنها وإن فقدت أباهما وهي في
مقتبل العمر إلا أنها عاشت في كنف شقيقها الرضا عليه السلام ، وأولها العناية الخاصة في تربيتهما
ورعايتهما، حتى غدت أفضل بنات الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام .
ونشأت هذه السيدة تتلقى من أخيها العلم والحكمة في بيت العصمة والطهارة، فأصبحت
ذات علم ورواية ومقام وسيوفيك عنه حديث .

أسماء وألقاب:

لا يخفى أن للتسمية أهمية كبيرة، ولها في نظر أهل البيت عليهم السلام عناية خاصة، وهي وإن
وجدت مع وجود الإنسان باعتبار المدنية الطبيعية المقتضية للتعامل مع الأشخاص والأشياء
المختلفة الموجبة للتمييز فيما بينها إلا أن تعاليم أهل البيت عليهم السلام أدخلت تعديلات مهمة في
وضعها وإطلاقها على الأشخاص والأشياء راعت فيها الجوانب النفسانية والأخلاقية، فحثت على
تخير الاسم الحسن، واعتبرت ذلك من حقوق الأبناء على آبائهم.
ففي رواية عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: جاء رجل إلى

النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ما حق ابني هذا؟ قال: تحسن اسمه، وأدبه، وضعه موضعا حسنا^(١).

بل إضافة على ذلك كان أهل البيت عليه السلام يغيرون بعض الأسماء إذ ربما تترك أثرا سلبيا على نفس المسمى.

فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليه السلام: أن رسول الله ﷺ كان يغير الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان^(٢).

وروي عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث إسلام سلمان وأن اسمه كان روزبه، وأن النبي ﷺ اشتراه من امرأة يهودية بأربعمائة نخلة - إلى أن قال عليه السلام - قال سلمان: فأعتقني رسول الله ﷺ وسماي سلمان^(٣).

وروى الكليني بسنده عن يعقوب السراج أنه قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو واقف على رأس أبي الحسن موسى عليه السلام، وهو في المهدي، فجعل يساره طويلا فجلست حتى فرغ، فقامت إليه، فقال: ادن إلى مولاك فسلم عليه، فدنوت فسلمت عليه، فرد علي بلسان فصيح ثم قال لي: إذهب فغير اسم ابنتك التي سميتها أمس، فإنه اسم يبغضه الله، وكانت ولدت لي بنت فسميتها بالحميراء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: انتبه إلى أمره ترشد فغيرت اسمها^(٤).

(١) وسائل الشيعة ج ١٥ باب ٢٢ من أبواب أحكام الأولاد الحديث ٦.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٥ باب ٢٢ من أبواب أحكام الأولاد الحديث ٧.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة ص ١٦٥.

(٤) الأصول من الكافي ج ١ باب الإشارة والنص على أبي الحسن موسى عليه السلام الحديث ٣ ص ٣٠٨.

ومن هنا ندرك مدى اهتمام أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، ومدى ارتباطه الوثيق بالجانبيين الفردي والاجتماعي وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

كما ندرك أنهم عليهم السلام كانوا يتخيرون لأولادهم أسماء حسنة مراعاة لهذه الجوانب، وهي تحمل دلالات مهمة، ومعان سامية، وقد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: - في حديث - إنا لنكني أولادنا في صغرهم مخافة النبز أن يلحق بهم ^(١).

وقد ذكرت الروايات الترغيب في أسماء معينة كمحمد وعلي، وحسن، وحسين، وجعفر، وطالب، وعبد الله، وحمزة، وغيرها من الأسماء كأسماء الأنبياء والأئمة عليهم السلام، بل ورد استحباب تسمية الأولاد قبل أن يولدوا، بل وإن كانوا أسقاطا فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد سمى محسنا قبل أن يولد ^(٢).

وأما أسماءهم عليهم السلام فقد اختارها الله تعالى لهم وجاء في الزيارة الجامعة: (فما أحلى أسماءكم) وقد دلت عدة روايات على ذلك.

ولما كانت السيدة المعصومة ربيبة الإمامة فقد حظيت بأحسن الأسماء، وأجمل الألقاب، وإن لأسمائها وألقابها من الدلالات والمعاني ما يشير إلى عظمتها، ذلك لأن الاسم أو اللقب لم يطلق عليها جزافا، وإنما صدر عن المعصوم الذي يضع الأشياء في مواضعها، الأمر الذي يدل على جلالة هذه الشخصية وعظمتها في كل شأن من

(١) وسائل الشيعة ج ١٥ باب ٢٧ من أبواب أحكام الأولاد الحديث ١.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٥ باب ٢٣ وباب ٢٤ من أبواب أحكام الأولاد.

شؤونها.

وأما أسماؤها وألقابها فهي:

١ - فاطمة:

وكم لهذا الاسم من شأن وخصوصية عند الأئمة عليهم السلام وشيعتهم، وكم كان الأئمة عليهم السلام يولون هذا الاسم أهمية فائقة، لا نجدها في سائر الأسماء عندهم.

روى الكليني بسنده عن السكوني، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وأنا مغموم مكروب، فقال لي: يا سكوني ما غمك؟ فقلت:

ولدت لي ابنة، فقال: يا سكوني على الأرض ثقلها، وعلى الله رزقها، تعيش في غير أجلك، وتأكل من غير رزقك، فسرى والله عني، فقال: ما سميتها؟ قلت: فاطمة، قال: آه، آه، آه، ثم وضع يده على جبهته، - ثم قال -: أما إذا سميتها فاطمة فلا تسبها، ولا تلعنها، ولا تضربها ^(١).

إن لهذا الاسم قدسية في نفوس أهل البيت عليهم السلام، ولذا ذكر بعض الباحثين أن جميع الأئمة عليهم السلام كانت لهم بنات بهذا الاسم، حتى أن أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان اسم أمه فاطمة واسم زوجته فاطمة، كان له بنت اسمها فاطمة، وأن الإمام الكاظم عليه السلام كانت له أربع بنات بهذا الاسم، الأمر الذي يؤكد على أن هذا الاسم ليس أمراً عادياً، فيا ترى ما هو الوجه في ذلك؟

(١) الفروع من الكافي ج ٦ - كتاب العقيدة - باب حق الأولاد الحديث ٦ ص ٤٨.

إن شيعة أهل البيت عليهم السلام يدركون تماما خصوصية هذا الاهتمام وأبعاده ومغزاه، فإن المتسميات بفاطمة من النساء كثير، إلا أنه ما إن يطلق هذا الاسم ويتناهى إلى الأسماع حتى تتبادر الأذهان إلى فاطمة بضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت واسطة العقد وملتقى النورين ومنشأ السلالة النبوية الشريفة والذرية الطاهرة.

وإلى ما جرى على فاطمة عليها السلام - من الخطوب والمآسي، وما نالته فاطمة من إجماع أصحاب أبيها على هضمها، والتنكر لمقامها، وحرمانها من حقها - يعود كل ما تمخض من أحداث مؤلمة وفجائع أصابت أبناءها وشيعتها عبر التاريخ.

وإن في تأوه الإمام الصادق عليه السلام ثلاث مرات ووصيته للسكوني أن لا يسب ابنته ولا يلعنها ولا يضربها حيث سماها فاطمة دلالات تقصر عنها العبارات وتتعرش الأفكار.

إن الأمة قد انحرفت عن طريق الهداية والرشاد منذ اللحظة التي عزم فيها القوم على هضم فاطمة وظلمها وهتك حرمتها حيث داسوا على وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأقدامهم وتجاسروا على بيت النبي في هجوم شرس زعزع القواعد التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لضمان سلامة الأمة من الضيعة والضلال.

ولو أن الأمة أنصفت وأعطت فاطمة حقها لكانت قيادة الأمة بيد أمير المؤمنين عليه السلام ولا بيض وجه التاريخ.

ولسنا في مقام الحديث عن تاريخ حياة فاطمة عليها السلام، وإنما أردنا الإشارة إلى أن تسمية إحدى بناتها باسمها يحمل من الدلالات ما هو أكبر من مجرد إطلاق اسم على مسمى، فإن في التسمية بهذا الاسم تذكيراً وإيحاء بما جرى في تلك الأيام التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
ومن هنا ندرك اهتمام الأئمة عليهم السلام وشيعتهم بهذا الاسم العظيم.
وقد ذكرت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام عدة تفاسير لمعنى فاطمة وكلها تدل على عظمة الصديقة الزهراء عليها السلام ومقامها ^(١).

٢ - المعصومة:

ويقترن هذا الاسم باسم فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، فيقال في الأعم الأغلب: فاطمة المعصومة، كما يقال عند ذكر أمها الكبرى: فاطمة الزهراء عليها السلام.
وقد ورد هذا الاسم في رواية عن الرضا عليه السلام حيث قال: من زار المعصومة بقم كمن زراني ^(٢).
ولهذه التسمية من الدلالة ما لا يخفى، فإنها تدل على أن السيدة فاطمة عليها السلام قد بلغت من الكمال والنزاهة والفضل مرتبة شامخة حيث سماها الإمام عليه السلام بالمعصومة، والعصمة تعني الحفظ والوقاية،

(١) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٠ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٨ - ٦٥.

(٢) رباحين الشريعة ج ٥ ص ٣٥.

والمعصوم هو الممتنع عن جميع محارم الله تعالى، وهي لا تنافي الاختيار، فتكون مرتبة من الكمال لا تهم النفس معها بارتكاب المعصية فضلا عن الإتيان بها مع القدرة عليها عمدا أو سهوا أو نسيانا، ولا يكون معها إخلال بواجب من الواجبات، بل ولا مخالفة الأولى كما في بعض المعصومين عليهم السلام، وليست هي أمرا ظاهرا وإنما هي حالة خفية من حالات النفس، ويستدل عليها بالنص أو القرائن القطعية الدالة على ثبوتها، كما أنها أمر مشكك، أي ذات مراتب تتفاوت فيها القابليات والاستعدادات من شخص إلى آخر.

وقد اتفقت كلمة الشيعة الإمامية على عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام والملائكة وبعض الأولياء، وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الاثني عشر والصديقة الزهراء عليها السلام في أرقى درجات العصمة، فإنهم بلغوا من العصمة مقاما لا تصدر منهم معصية، ولا يتكون واجبا، ولا يبدر منهم ما كان على خلاف الأولى، وبذلك نطقت الأدلة وقامت البراهين العقلية والنقلية كما هي مبثوثة في كتب الشيعة الإمامية الكلامية ^(١).

ويتلوهم الأئمة فالأئمة بمقتضى تفاوت المراتب والمقامات.

وعلى هذا فلا يبعد القول بأن السيدة فاطمة هي إحدى المعصومات وإن لم تبلغ درجة الصديقة الزهراء عليها السلام، أو أحد الأئمة عليهم السلام.

(١) أوائل المقالات ص ٣٥ وتلخيص الشافي ج ١ ص ١٨٣ - ١٩٦ وكشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد ص ٢٧٤ وص ٢٨٦ - ٢٨٧.

وقد ذكر بعض الباحثين ^(١) عدة قرائن تدل على ذلك ومنها:
أولاً: ما ورد في الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام من أنه قال: من زار المعصومة بقم كمن زارني.
ومن المعلوم أن الإمام عليه السلام لا يلقي الكلام جزافاً، ولا يمكن أن تصدر منه مبالغة في القول في حق شخص من الأشخاص على خلاف الحق.
ولم يكن اسم المعصومة يطلق على السيدة فاطمة في حياتها ليكون التعبير بالمعصومة عنواناً مشيراً، بل إن هذا التعبير منه عليه السلام صدر عنه بعد وفاتها عليها السلام وهو يدل على إثبات العصمة لهذه السيدة الجليلة لأنه بناء على أساس القاعدة المعروفة من أن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعلية، يصبح معنى الحديث هكذا: من زار المعصومة بقم كمن زارني لأنها معصومة.
فإذا ثبت أن هذا الحديث صادر عنه عليه السلام فلا إشكال في دلالة على عصمتها عليها السلام.
وثانياً: بما ورد من الأحاديث الصحيحة المستفيضة الواردة في وجوب الجنة لمن زار قبر هذه السيدة الجليلة.
وإن كان لا ملازمة بين العصمة ووجوب الجنة، ولكن لم يعهد في شأن غير المعصوم ذلك، حتى أن ثلاثة من الأئمة المعصومين عليهم السلام يؤكدون على زيارتها - وسيأتي الحديث عن ذلك -.

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٣٦ - ٤٢.

وثالثاً: بشفاعتها الشاملة لجميع شيعة أهل البيت عليهم السلام .

نعم ذكرت الشفاعة في شأن العالم والشهيد ونحوهما، ولكن لم يرد شمول الشفاعة وسعتها بحيث تشمل الجميع إلا في حقها وحق آبائها المعصومين، يقول الإمام الصادق عليه السلام : تدخل بشفاعتها شيعتنا الجنة بأجمعهم.

رابعاً: الروايات المتواترة الواردة في فضل قم وقداصة أرضها ببركة قدوم هذه السيدة الجليلة، ولم يرد في شأن مدينة أخرى كما ورد في شأن مدينة قم، ومن الطبيعي أن قداسة هذه المدينة إنما هي من أجل هذه السيدة الجليلة.

خامساً: التعبير عن قم بأنها حرم أهل البيت، وعش آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وغيرها من التعبيرات العالية التي لم يرد لها مثل إلا في مواطن ومشاهد الأئمة عليهم السلام .

سادساً: الكرامات الباهرة لهذه السيدة الجليلة التي كانت ترى على مر القرون والأزمان، ولم يكن لأحد من أولاد الأئمة ذلك، إلا ما كان من أبي الفضل العباس عليه السلام الذي يقال بعصمته أيضاً.

سابعاً: التعبيرات العالية الواردة في زيارتها مثل: « فإن لك عند الله شأنًا من الشأن » وحيث أن هذه الزيارة مروية عن الإمام الرضا عليه السلام ، فإن هذه التعبيرات العالية الشأن لا تتناسب مع غير المعصوم.

ثامناً: إخبار الإمام الصادق عليه السلام عن تشرف هذه البقعة - مدينة قم -

ببضعة من ولده موسى عليه السلام ، وكان إخباره بذلك قبل ولادة موسى بن جعفر عليه السلام ، وهو يدل على مقامها العظيم، ومع هذا يؤكد عليه السلام على أن جميع الشيعة يدخلون الجنة بشفاعتها، وذلك علامة على جلاله قدرها، الأمر الذي لم نقف عليه في شأن غير المعصوم.

وعاشراً: مجئ الإمامين الرضا والجواد عليه السلام لتجهيز ودفن هذه السيدة الجليلة دليل واضح على عصمتها، وذلك لأن من معتقدات الشيعة أن جنازة المعصوم لا يتولى دفنها إلا المعصوم، فإن أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي تولى تجهيز فاطمة عليها السلام مع حضور أسماء، حتى أن الإمام الصادق عليه السلام رأى أن ذلك ثقل على المفضل - الذي كان يحدثه - فقال له عليه السلام : لا تضيقن فإنها صديقة، ولم يكن يغسلها إلا صديق، أما علمت أن مريم لم يغسلها إلا عيسى ^(١).

فقد ورد في أحكام غسل الميت أن الزوج أحق بتغسيل زوجته، وإن وجد المماثل، وأما الولد فلا يمكنه أن يغسل أمه في حال الاختيار مع وجود المماثل، ولكن لما كانت مريم عليها السلام معصومة فلم يكن مناص إلا أن يتولى ولدها عيسى عليه السلام تغسيلها.

ومن قوله عليه السلام : « صديقة » استفاد عصمة مريم عليها السلام ، وقد ورد في القرآن الكريم التعبير عنها بذلك، وهكذا تولى الإمام الرضا عليه السلام تغسيل أبيه، كما أن الإمام الجواد عليه السلام جاء من المدينة إلى خراسان، والإمام

(١) الأصول من الكافي ج ١ - كتاب الحجّة - باب مولد الزهراء فاطمة عليها السلام الحديث ٤ ص ٤٥٩.

الهادي جاء من المدينة إلى بغداد، ومن قبلهما جاء الإمام زين العابدين عليه السلام من السجن لتجهيز والده في كربلاء.

والملفت للنظر أن الإمام زين العابدين عليه السلام لما أراد أن يدفن أباه الحسين عليه السلام، وعلي الأكبر عليه السلام، وأبا الفضل العباس عليه السلام، لم يطلب العون من بني أسد، بل قام بذلك بنفسه، ولكن لما أراد أن يدفن الشهداء طلب منهم أن يحفروا حفرتين وأمرهم بدفن شهداء بني هاشم في واحدة، ودفن سائر الشهداء في الأخرى.

وهذا بنفسه علامة على عصمة علي الأكبر. وأبي الفضل العباس عليه السلام.

وهكذا في تجهيز السيدة فاطمة، فإن حضور الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام له معنى كبير، وهو شاهد حي على عصمة هذه السيدة الجليلة.

فمع الالتفات إلى هذه الأمور فإذا ادعى شخص أن السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام نالت مرتبة من العصمة فليس فيه انحراف في القول أو مجازفة في المقال، نعم هذه المرتبة من العصمة دون مرتبة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، فإن أولي العزم من الأنبياء لم يبلغوا تلك المرتبة.

وهناك تفاوت آخر، وهو أن العصمة في الأنبياء والأئمة أمر لازم

لا بد منه، وأما العصمة في هذه الشخصيات العالية فليست بلازمة^(١). ولئن لم تكن معصومة بالمعنى الخاص للعصمة الخاصة بالأئمة عليهم السلام والصديقة الزهراء عليها السلام إلا أن في التعبير عنها بالمعصومة إشعارا ببلوغها مرتبة عالية من الطهارة والعفة والنزاهة والقداسة، ولا غرو فإنها تنحدر من بيت العصمة وترت على يد المعصوم، وكانت ابنة معصوم وأخت معصوم وعمة معصوم.

٣ - كريمة أهل البيت:

وهو من ألقاب هذه السيدة الجليلة، وعرفت به من دون سائر نساء أهل البيت. وقد اشتهر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بهذا اللقب من دون سائر الرجال، فكان يقال له كريم أهل البيت.

وقد أطلقه عليها الإمام المعصوم عليه السلام في قصة وقعت لأحد السادة الأجلاء وقال له: «عليك بكرامة أهل البيت» مشيرا إلى هذه السيدة الجليلة، وسنذكر تفاصيلها في موضع آخر. ولهذا اللقب دلالة بعيدة الغور على شأن فاطمة بنت الإمام موسى ابن جعفر عليهما السلام، فإن أهل البيت عليهم السلام قد جمعوا غر الفضائل والمناقب وجميل الصفات، ومن أبرز تلك الخصال الكرم، وقد عرفوه بأنه إثارة الغير بالخير ولا تستعمله العرب إلا في المحاسن الكثيرة، ولا يقال

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٣٦ - ٤٢.

كريم حتى يظهر منه ذلك^(١)، والكريم هو الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل.
ومن ذلك يعلم أن للكرم معنى واسعاً لا ينحصر في بذل المال أو إقراء الضيف أو حسن
الضيافة، فإنها من مصاديق الكرم لإتمام معناه.

وعلى ضوء هذا المعنى الشامل للكرم يتجلى لنا المراد من وصف أهل البيت عليهم السلام بأنهم أكرم
الناس على الإطلاق لما اهتملوا عليه من أنواع الخير والشرف والفضائل، وقد حفظ لنا التاريخ
شيئاً من ذلك وحدث به الرواة.

كما يتجلى لنا أيضاً اتصاف هذه السيدة الجليلة بأنها كريمة أهل البيت عليهم السلام.
وإن من أبرز مظاهر كرمها أن مثواها المقدس كان ولا يزال منبعاً للفيض، وملاذاً للناس، ومأمناً
للعباد، ومستجاراً للخلق، وباباً من أبواب الرحمة الإلهية للقاصدين، وأن مدينة قم حيث تضم
مرقدتها الطاهر كانت ولا تزال حاضرة العلم، وحرم الأئمة وعش آل محمد عليهم السلام ومنفراً لأهل العلم
من شتى بقاع الأرض، يتلقون علوم أهل البيت عليهم السلام محتضنة كوكبة من العلماء والطلاب، ولا
زالت هي والنجف الأشرف فرسي رهان تتسابقان في تخريج حملة العلوم على شتى مراتبهم،
وسيوافيك عن ذلك حديث.

ففي وصف هذه السيدة الجليلة بأنها كريمة أهل البيت دلالة على

(١) مجمع البحرين ج ٦ ص ١٥٢.

أنها ذات خير وبركة على الخلق، ولا سيما شيعة آل مُجَدِّ وأختص أهل قم منذ اللحظة التي تشرفت أرضهم بها أنهم لا يزالون يعمون ببركاتهما وخيراتهما آناء الليل وأطراف النهار، ويعيشون في حماها ويتفياؤن ظلالتها في امتياز خاص بهم من دون أهل سائر المناطق الأخرى.
أسماء وألقاب أخرى:

ذكر العلامة المتتبع الشيخ علي أكبر مهدي پور في كتابه القيم (كرامة أهل البيت عليهم السلام) (١)
أن لفاطمة المعصومة عدة أسماء وألقاب غير ما ذكرنا، وردت في عدة من المصادر، وهي:
١ - الطاهرة ٢ - الحميدة ٣ - البرة ٤ - الرشيدة ٥ - النقية ٦ - النقية ٧ - الرضية ٨ - المرضية ٩ - السيدة ١٠ - أخت الرضا ١١ - الصديقة ١٢ - سيدة نساء العالمين.
وسواء ثبتت هذه الألقاب والأسماء أو لم تثبت إلا أن من الواضح انطباق ما تضمنته من معان ودلالات على هذه السيدة الجليلة.
وقد أطلق أكثر هذه الأوصاف على أمها فاطمة الزهراء عليها السلام، ولا سيما الأخير منها، فإن فاطمة الزهراء عليها السلام هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، كما أطلق على السيدة مريم بنت عمران عليها السلام،

(١) كرامة أهل البيت عليهم السلام ص ٤٧ - ٤٨.

وقيد - كما في الروايات - بأن سيادتها على نساء العالمين إنما هو خاص بنساء زمانها، ولذا ينبغي التخصيص في إطلاقه على فاطمة المعصومة عليها السلام أو يقال بالتخصص إذ من المعلوم أن مقام فاطمة الزهراء عليها السلام لا يرقى إليه أحد من النساء، فإنها بضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وروحه التي بين جنبيه .

وهكذا الحال بالنسبة إلى سائر الألقاب الأخرى.

وعلى أي حال فإن في تسميتها بفاطمة ووصفها بالمعصومة وكريمة أهل البيت عليهم السلام وأنها صادرة من المعصومين دلالة على المقام الرفيع الذي بلغته سيدة عش آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

في رحاب العلم والمعرفة:

عاشت السيدة فاطمة المعصومة مع أخيها الإمام الرضا عليه السلام أكثر من عشرين عاما على أقل التقدير، إذا ما استبعدنا أن تكون ولادتها في سنة ١٨٣ هـ، لأنها السنة التي استشهد فيها أبوها الإمام الكاظم عليه السلام في قول أكثر المؤرخين، وإلا فتكون المدة التي عاشتها السيدة فاطمة مع أخيها سبعة عشر عاما، وذلك لأن انتقال الإمام الرضا عليه السلام من المدينة إلى مرو في خراسان كان سنة ٢٠٠ هـ وكانت ولادته عليه السلام سنة ١٤٨ هـ كما هو المشهور، وقيل في سنة ١٥٣ هـ ^(١) .
فعلى القول بأن ولادتها عليها السلام

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٠٣ .

كانت سنة ١٧٩ هـ يكون عمرها الشريف يوم رحلة أخيها من المدينة واحدا وعشرين عاما، وعلى القول بأن ولادتها كانت سنة ١٧٣ هـ كما رجحه بعضهم يكون عمرها آنذاك سبعة وعشرين عاما.

وعلى أي تقدير فقد عاشت السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام في كنف أخيها الرضا عليه السلام ورعايته مدة من الزمن تمكنها من تلقي التربية والتعليم اللائقين بمقامها على يد أخ شقيق لم يكن في علمه ومقامه كسائر الناس، فهو الإمام المعصوم وهو المرئي والمعلم والكفيل.

وهذه المدة وإن لم تخل من مضايقات عانى منها الإمام الرضا عليه السلام الشدائد والمحن بعضها كان محصورا في نطاق أسرته وأهل بيته، وهو ما لاقاه الإمام عليه السلام من بعض أخوته وعمومته حيث اعترض بعضهم على تفضيله وتمييزه عليهم، ولا نريد الولوج في تفاصيل هذا الموضوع الخاص خشية التعثر في طريقه، على أنه لا أثر يترتب على الخوض في الحديث عنه.

وبعضها كان من بعض من كانوا في عداد شبيعة أبيه حيث نجم قرن فتنة الواقفية الذين حلّيت الدنيا في أعينهم، فحاولوا قطع الطريق على الإمام الرضا عليه السلام وابتدعوا القول بأن الإمام الكاظم عليه السلام لم يمت، وأنه غاب وسيعود، وفي طليعة هؤلاء علي بن أبي حمزة البطائني، وزيد بن مروان القندي، وعثمان الرواسي ^(١) وأضربهم من الذين أحدثوا

(١) معجم رجال الحديث ج ١٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

هذه الفتنة وكانوا سببا مباشرا وغير مباشر في تألم الإمام عليه السلام وإيذائه.
وبعضها كان من السلطة الحاكمة حيث كانت تتحرش - بين حين وآخر - بالإمام وتوعز إلى
جلاديتها بالهجوم على بيت الإمام كما سيأتي تفصيله.
أقول: إن هذه الفترة وإن لم تصف للإمام عليه السلام ولم تخل من المضايقات إلا أن من اليقين أن
الإمام قام بدوره مربيا ومعلما وراعيا وكفيلا، وفي طليعة من رباهم الإمام عليه السلام وعلمهم شقيقته
السيدة فاطمة المعصومة، فأخذت عنه العلم والمعرفة والفضائل والمناقب، حتى غدت ذات شأن
عند الله تعالى كما جاء في زيارتها عليها السلام، وأن شفاعتها كفيلة بإدخال الشيعة بأجمعهم إلى الجنة،
كما تحدث بذلك جدها الإمام الصادق عليه السلام.
والمصادر وإن لم تسعفنا بذكر شيء مما تلقته الأخت من أخيها، وبماذا حدثها، وكيفية حديثه
إليها، إلا أن لدينا ما يكفي للكشف عن بلوغها مرتبة عالية من العلم والمعرفة والمقام، ومنه قول
معلمها ومربيها الإمام الرضا عليه السلام إذ روي عنه أنه قال: من زار المعصومة بقم كمن زارني ^(١).
ولا يغيب عن بالنا أن القائل معصوم لا ينطق عن الهوى، وإن وراء هذه الجملة على قصرها ما
يدل على المقام الرفيع في العلم وغيره،

(١) رباحين الشريعة ج ٥ ص ٣٥.

ولولا أن السيدة فاطمة المعصومة بلغت من المنزلة مكانة عظيمة لما كان الإمام عليه السلام يقول ذلك.

على أنه هل من المعقول أن يقال في حقها بأنها معصومة ولا تكون قد بلغت من العلم مكانة يكشف لها الواقع على ما هو عليه، أليست العصمة تستلزم العلم والمعرفة؟!.

ومما يؤيد ذلك ما نقله العلامة الشيخ علي أكبر مهدي پور حكاية عن أحد الفضلاء عن المرحوم السيد أحمد المستنبط عن كتاب كشف اللثالي لابن العرندس الحلبي، وحاصلها: أن جمعا من الشيعة قصدوا بيت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام للتشرف بلقائه والسلام عليه، فأخبروا أن الإمام عليه السلام خرج في سفر وكانت لديهم عدة مسائل فكتبوها، وأعطوها للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام ثم انصرفوا.

وفي اليوم التالي - وكانوا قد عزموا على الرحيل إلى وطنهم - مروا ببيت الإمام عليه السلام، ورأوا أن الإمام عليه السلام لم يعد من سفره بعد، ونظرا إلى أنه لا بد لهم أن يسافروا طلبوا مسائلهم على أن يقدموها للإمام عليه السلام في سفر آخر لهم للمدينة، فسلمت السيدة فاطمة عليها السلام المسائل إليهم بعد أن كتبت أجوبتها، ولما رأوا ذلك فرحوا وخرجوا من المدينة قاصدين ديارهم.

وفي أثناء الطريق التقوا بالإمام الكاظم عليه السلام وهو في طريقه إلى المدينة، فحكوا له ما جرى لهم فطلب إليهم أن يروه تلك المسائل،

فلما نظر في المسائل وأجوبتها، قال ثلاثا: فداها أبوها.
فإن صحت هذه الحكاية فهي تدل - أولا: - على أن السيدة فاطمة المعصومة عاصرت أبها مدة طويلة من الزمن فيكون القول بأن ولادتها سنة ١٨٣ هـ أو ١٧٩ هـ غير صحيح قطعاً.
وثانياً: تدل على المقام العلمي الرفيع الذي بلغته السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، بل كما قال الشيخ مهدي پور إنه دليل على أنها عالمة غير معلمة، هذا مع التوجه إلى أنها كانت صغيرة السن آنذاك ^(١).

ولئن لم يحفظ لنا التاريخ خصوصيات ما تلقته من العلم على أيدي أبيها وأخيها إلا أنه أبقى بين طبائمه نورا من الروايات التي حدثت بها هذه السيدة الجليلة.
ومما لا شك فيه أن علم الحديث من أجل العلوم وأشرفها، فهو العلم الجامع للتفسير والفقه والأخلاق والكلام وغيرها من سائر المعارف الدينية.
ويعود انتشار معارف الدين وبقائها إلى هذا العلم الجليل، وقد قام علماء الشيعة بمساندة أئمتهم عليهم السلام بتعاهد هذا العلم حفظاً وتنقيحاً وتبويباً حتى وضعوا الموسوعات الروائية، واشتهرت بينهم جملة من الكتب أصبحت فيما بعد مرجعاً للشيعة يستقون منها معارفهم الدينية المختلفة، وعليها تدور رحى مباحثهم العلمية، كالكتب الأربعة

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٦٢ - ٦٤.

وغيرها من الكتب الكثيرة.

كما تعاهد علماء الشيعة بالبحث والتحقيق أسناد تلك الأحاديث، ووضعوا الضوابط العلمية الرصينة والمقاييس الدقيقة لمعرفة أحوال الرواة وطبقاتهم ومدى إمكان الاعتماد على رواياتهم وعدمه وانبثق عن ذلك علم آخر اقترن بعلم الحديث وهو علم الرجال، فوضع علماء الشيعة معاجم الرجال لدراسة أحوالهم من حيث الوثاقة وعدمها، واشتهر هذا العلم باسم الرجال لا يعني اختصاصه بهم ولا نصيب فيه للنساء، وإنما كانت التسمية مراعاة للغالب على من تفرس في هذا العلم، وإلا فهناك من النساء اللائي بلغن مرتبة عالية في هذا العلم، ولم تغفل المعاجم التي تناولت أحوال الرواة عن ذكرهن والإشادة ببعضهن وبيان طبقتهم من حيث سلسلة السند، حتى أن الأجلاء من رواة الحديث قد رووا عن بعضهن، وفي طليعة أولئك النسوة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

ولكن مما يثير الغرابة أن لا نجد ترجمة لهذه السيدة الجليلة والمحدثثة العظيمة في المعاجم التي عنيت بضبط أسماء الرواة، ولذا ذكرها الشيخ النمازي في مستدركاته مشيراً إلى المواضع التي ذكرت فيه من كتاب البحار ^(١) فقط، مع أن أصحاب هذه المعاجم قد ذكروا نساء أقل شهرة منها، وربما أقل حديثاً، ولم ندر ما هو الوجه في

(١) مستدركات علم رجال الحديث ج ٨ ص ٥٩٣ - ٥٩٤.

ذلك؟!!!

وعلى أي حال فقد كانت هذه السيدة الجليلة من المحدثات، وورد ذكرها في أسانيد رواها العامة فضلا عن الخاصة، منها ما ورد في كتاب المسلسلات لأبي محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي، قال: حدثنا محمد بن علي بن الحسين، قال: حدثني أحمد بن زياد، قال: حدثني أبو القاسم جعفر بن محمد العلوي العريضي، قال: قال أبو عبد الله أحمد بن محمد بن خليل، قال: أخبرني علي بن محمد بن جعفر الأهوازي، قال: حدثني بكير بن أحنف، قال: حدثتنا فاطمة بنت علي بن موسى الرضا عليه السلام، قالت: حدثني فاطمة، وزينب، وأم كلثوم بنات موسى بن جعفر عليه السلام، قلن: حدثتنا فاطمة بنت جعفر بن محمد عليه السلام، قالت: حدثني فاطمة بنت محمد بن علي عليه السلام، قالت: حدثني فاطمة بنت علي بن الحسين عليه السلام، قالت: حدثني فاطمة وسكينة ابنتا الحسين بن علي عليه السلام، عن أم كلثوم بنت علي عليه السلام، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة، فإذا أنا بقصر من درة بيضاء مجوفة، وعليها باب مكلل بالدر والياقوت، وعلى الباب ستر، فرفعت رأسي فإذا مكتوب على الباب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي القوم، وإذا مكتوب على الستر بخ بخ من مثل شيعة علي عليه السلام، فدخلته، فإذا أنا بقصر من عقيق أحمر مجوف، وعليه باب من فضة مكلل بالزبرجد

الأخضر، وإذا على الباب ستر فرفعت رأسي فإذا مكتوب على الباب:
مُحَمَّد رسول الله، علي وصي المصطفى، وإذا على الستر مكتوب: بشر شيعة علي بطيب المولد،
فدخلته، فإذا أنا بقصر من زمرد أخضر مجوف لم أر أحسن منه، وعليه باب من ياقوتة حمراء
مكللة باللؤلؤ، وعلى الباب ستر فرفعت رأسي فإذا مكتوب على الستر: شيعة علي هم الفائزون،
فقلت: حبيبي جبرئيل لمن هذا؟ فقال: يا مُحَمَّد لابن عمك ووصيك علي بن أبي طالب عليه السلام يحشر
الناس كلهم يوم القيامة حفاة عراة إلا شيعة علي عليه السلام، ويدعى الناس بأسماء أمهاتهم إلا شيعة
علي عليه السلام، فإنهم يدعون بأسماء آبائهم، فقلت: حبيبي جبرئيل وكيف ذاك؟ قال: لأنهم أحبوا عليا
فطاب مولدهم ^(١).

ومنها: ما رواه مُحَمَّد الجزري في أسنى المطالب بإسناده عن علي ابن مُحَمَّد بن جعفر الأهوازي،
مولى الرشيد، عن بكر بن أحمد القصري، عن الفواطم، عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت:
أنسيتم قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه؟
وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنت مني بمنزلة هارون من موسى عليه السلام؟ ^(٢).

وقد عرف هذا النحو من الإسناد بالمتسلسل، وهو فن من فنون الضبط وضرب من ضروب
المحافظة، وفيه فضل للحديث من حيث

(١) كتاب المتسلسلات ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٢) كتاب المتسلسلات ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

الاشتمال على مزيد ضبط الرواة (١).

وعرفه المحقق الداماد بأنه هو ما تتابع فيه رجال الإسناد عند روايته على قول كسمعت فلانا يقول: سمعت فلانا... أو أخبرنا فلان والله، قال: أخبرنا فلان والله، إلى آخر الإسناد (٢).
وذكر أكثر من خمسة عشر نحواً من أنحاء تتابع الرواة عند رواية الحديث.
على أن هذين السندين عن فاطمة عليها السلام مسلسلان من وجه آخر وهو أن كل واحدة من الفواطم تروي عن عمه لها، فهو رواية خمس بنات أخ، كل واحدة منهن عن عمته.
هذا وهناك روايات أخرى كانت السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام في أسنادها وبعضها سلسلة على النحو المتقدم.
وخلاصة القول أن هذه السيدة الجليلة نالت قسطاً وافراً من العلم والمعرفة، قد تلقت من معدنه الصافي، وأخذته من منبعه العذب، حتى غدت ذات شأن ومقام وإن لم يصلنا منه إلا النزر اليسير.

المكانة الاجتماعية والشأن الرفيع:

لما كان أهل البيت عليهم السلام يمثلون الفطرة السليمة في أنقى حالاتها، والفضيلة في أجلى معانيها، وقد اجتمعت فيهم الكمالات البشرية

(١) أصول علم الرجال بين النظرية والتطبيق ص ٣٥٣.

(٢) الرواشح السماوية - الراشحة السابعة والثلاثون - ص ١٥٧ - ١٦١.

المختلفة، وأحاطتهم العناية الإلهية في جميع أحوالهم وشؤونهم، وتقرر أن الإنسان بطبعه عاشق للكمال والفضيلة، فمن الطبيعي جدا أن تهفو القلوب نحوهم، وتميل النفوس إليهم، من دون سائر البشر.

وقد ورد في الروايات أن ذلك دعوة إبراهيم عليه السلام، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: **(فَجَعَلْ أَفئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)** ^(١) أن المراد هم أهل البيت عليهم السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: والأفئدة من الناس تهوي إلينا، وذلك دعوة إبراهيم عليه السلام ^(٢).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: فنحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوانا قلبه قبلت حجته، وإلا فلا ^(٣).

نعم قد تتلوث بعض النفوس ويتكدر صفاؤها نتيجة لعوامل متعددة فتضل الطريق، ولكن تبقى في أعماقها ميالة إليهم راغبة فيهم، وإن كانت في ظاهر الأمر ضدهم، وهذا ما قد كشف عنه الفرزدق الشاعر المشهور، حين لقيه الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى كربلاء، وسأله عن الناس خلفه، فقال له: قلوب الناس معك وأسيافهم عليك ^(٤).

وأما أولئك الذين انحرفت ذواتهم وخبثت أصولهم فهم في طريق آخر، ولذلك وردت عدة روايات تؤكد هذه الحقيقة، منها: ما روي عن

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٢) تفسير نور الثقلين ج ٢ ص ٥٥١.

(٣) الروضة من الكافي - الحديث ٤٨٥ ص ٣١١ - ٣١٢.

(٤) الإرشاد ج ٢ ص ٦٧.

النبى ﷺ أنه قال: من فارق عليا فقد فارقتني، ومن فارقتني فقد فارق الله عز وجل (١).

وقال ﷺ: يا علي لولاك لما عرف المؤمنون بعدي (٢).

وقال ﷺ: يخاطب عليا - ما سلكت طريقا ولا فجا إلا سلك الشيطان غير طريقك

وفجك (٣).

وجاء في التفسير عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إن أبانا إبراهيم صلوات الله عليه كان فيما اشترط على ربه أن قال: (فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) (٤) أما إنه لم يعن الناس كلهم، أنتم أولئك ونظراؤكم، وإنما مثلكم في الناس مثل الشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو مثل الشعرة السوداء في الثور الأبيض (٥).

وغيرها من الشواهد الكثيرة. وقد تقدم في الحديث المروي عن السيدة فاطمة عليها السلام أن حب

علي عليه السلام عنوان طيب الولادة.

والحقيقة الثابتة أن أهل البيت عليهم السلام حيث جمعوا الفضائل والمناقب والكمالات كانت لهم السيادة على النفوس. والمحبة في القلوب، واحتلوا موقع الصدارة بين الناس من دون فرق بين رجالهم ونسائهم، فكان رجالهم خير الرجال، ونسائهم خير النساء، وعلى هذا فلا شك أن تكون للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام منزلتها الخاصة، ومكانتها

(١) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٢٦.

(٢) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٢٦.

(٣) بحار الأنوار ج ٤٠ ص ٢٧.

(٤) سورة إبراهيم الآية ٣٧.

(٥) تفسير نور الثقلين ج ٢ ص ٥٥١.

العالية، ولذا كان لها عند الله شأن من الشأن فضلا عن شأنها عند الناس .
وقد كان لها عليها السلام بأخيها الإمام الرضا عليه السلام صلة خاصة قل نظيرها كما كشفت عنها الروايات والأحداث وسيأتي منها ما يدل على ذلك .
وإن من أهم أسباب بلوغها هذا المقام الشامخ علمها ومعرفتها بمقام الإمامة والإمام، وقد كان إمام زمانها شقيقها الإمام الرضا عليه السلام، الذي تولى تربيتها فعلى يديه نشأت، وعنه أخذت، وتحت إشرافه ونظرة ترعرعت، وبأخلاقه وآدابه سمت وتكاملت .
ولذا تميزت الصلة بينهما بحيث أصبحت تعرف نفسها بأنها أخت الرضا عليه السلام كما سيأتي .
وهما وإن كانا ينحدران من أب واحد وأم واحدة وذلك أحد أسباب شدة الصلة بينهما إلا أن السبب الأقوى والأتم هو علمها بمقام أخيها وإمامته، إذ أن الرابطة النسبية تصبح - حينئذ - عاملا ثانويا بالقياس إلى العلم والمعرفة .
هذا، وقد نوه الأئمة عليهم السلام بمكانتها ومنزلتها قبل ولادتها، وبعد أن ولدت وتوفيت .
روي عن عدة من أهل الري أنهم دخلوا على أبي عبد الله عليه السلام، وقالوا: نحن من أهل الري، فقال عليه السلام: مرحبا بإخواننا من أهل قم، فقالوا: نحن من أهل الري، فأعاد الكلام، قالوا ذلك مرارا وأجابهم بمثل ما أجاب به أولا، فقال عليه السلام: إن لله حرما وهو مكة، وإن لرسول الله حرما وهو المدينة، وإن لأمير المؤمنين حرما وهو الكوفة، وإن لنا حرما وهو

بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمى فاطمة، فمن زارها وجبت له الجنة.

قال الراوي: وكان هذا الكلام منه عليه السلام قبل أن يولد الكاظم (١).

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: ألا إن لله حرما وهو مكة، ألا إن لرسول الله حرما وهو المدينة، ألا إن لأمير المؤمنين حرما وهو الكوفة، ألا إن حرمي وحرم ولدي بعدي قم، إلا إن قم الكوفة الصغيرة، ألا إن للجنة ثمانية أبواب، ثلاثة منها إلى قم، تقبض فيها امرأة من ولدي، واسمها فاطمة بنت موسى، تدخل بشفاعتها شيعةنا الجنة بأجمعهم (٢).

وفي رواية أن الإمام الرضا عليه السلام قال لسعد الأشعري القمي: يا سعد عندكم لنا قبر، قلت له: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام، قال:

نعم، من زارها عارفا بحقها فله الجنة (٣).

وروى الصدوق في العيون بسنده عن سعد بن سعد قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن

زيارة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام، فقال:

من زارها فله الجنة (٤).

وروى ابن قولويه في كامل الزيارات بسنده عن الإمام الجواد عليه السلام

(١) تاريخ قم (فارسي) ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

(٣) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٥.

(٤) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٦٧.

أنه قال: من زار قبر عمي بقم فله الجنة (١).
وغيرها من الروايات حتى قال المحدث القمي: والروايات بهذا المضمون كثيرة (٢).
وسياًتي الحديث عن زيارتها، وإنما ذكرنا هذه الروايات في المقام لبيان ما لها من منزلة عند
الأئمة عليهم السلام حيث أشاد ثلاثة من المعصومين عليهم السلام بذلك.

لماذا لم تتزوج السيدة المعصومة؟

ثم إن هناك أمراً لا بد من البحث حوله وله صلة وثيقة بما نحن فيه، إذ له مدخلية في مكانتها
الاجتماعية، ومنزلتها بين الناس، ذلكم هو عدم زواج السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام.
والمستفاد من جملة الروايات أن بنات الإمام الكاظم عليه السلام وعددهن إحدى وعشرون بنتاً لم
تتزوج منهن واحدة.

ونقل المحدث القمي عن تاريخ قم ما حاصله: أن هذا كان سائراً في بنات الرضائية (٣).
وهذا أمر مثير للتساؤل، ولا سيما مع ملاحظة ما ورد عن أهل

(١) كامل الزيارات باب ١٠٦ فضل زيارة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليها السلام بقم الحديث ٢ ص ٥٣٦.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٨٠.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٨٠ - ٣٨١.

البيت عليه السلام من الحث على التناكح والترغيب فيه، وأن به إكمال ثلث الدين أو نصفه أو ثلثيه، فيا ترى ما هي الأسباب المانعة عن هذا الأمر في حق بنات الإمام الكاظم عليه السلام؟
وينبغي أن نؤكد قبل كل شيء على أن عدم اقتران واحدة من بنات الإمام الكاظم عليه السلام بزواج - ولا سيما السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام - لم يكن عن عيب مانع في الخلق أو الخلق، وقد مر علينا أنها كانت جليلة القدر ذات شأن عظيم، ومنزلة كبيرة، على أن هذا الأمر لم تنفرد به وحدها من دون سائر أخواتها، فلا بد أن يكون المانع أمراً آخر، وهذا ما نسعى للبحث حوله بمقدار ما يسعفنا به ما ورد حول هذه القضية من الروايات.

ومن الضروري أن نلتفت قبل ذلك إلى أن هذا الأمر يعد من الشؤون الخاصة التي هي أشبه شيء بالأسرار العائلية والأسرية كغيرها من الخصوصيات التي لا تكون معرضاً عاماً لعامة الناس لإبداء أنظارتهم وآرائهم فيها، وإنما ساع للباحث أن يتناول بعض الشؤون بالدراسة والتحليل لأن أهل البيت عليهم السلام يمثلون القدوة الصالحة التي ترشد الإنسان إلى طريق الحق والهداية، وقد صدرت الأوامر الإلهية والنبوية بالافتداء بهم، والسير على خطاهم، واقتفاء آثارهم، فإنهم لا يخرجون الناس من باب هدى ولا يدخلونهم في باب ضلالة.

ولعل السبب في قلة الروايات الواردة في هذا الشأن خصوصية هذه القضية، وأنها لا تعني سائر الناس وكونها من شؤونهم عليهم السلام الخاصة

بهم دون سواهم، كما لعله أيضا لعدم اهتمام المؤرخين بهذه الناحية، كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

ولكن لما كان في هذه القضية معصوم فلا بد أن يكون الفعل معصوما موافقا لمقتضى الحكمة، وعلى طبق الموازين الإلهية سواء حالفنا التوفيق فأدركنا السبب أو أخفقنا فلم ندركه.

ثم إنه بدراسة الواقع الاجتماعي والسياسي والظروف المحيطة بأهل البيت عليهم السلام آنذاك قد تتمكن من إعطاء صورة تقريبية عن الأسباب الكامنة وراء هذه القضية فنقول:

أولاً: إن نظرة سريعة إلى تاريخ حياة الإمام الكاظم عليه السلام تدل على أن تلك الفترة كانت تتسم بالتوتر والتوجس والرغبة والخوف، فبرغم ما عاناه الإمام الصادق عليه السلام من حكام بني العباس وقد فرضوا عليه الحصار وتشددوا في عزله عن شيعته، وحاولوا بشتى الوسائل اصطناع شخصيات علمية مناوئة، للحيلولة دون انتشار فكر أهل البيت عليهم السلام، وبرغم حملات الإبادة التي تعرض لها العلويون من قتل وسجن وتشريد. وهم - العباسيون - وإن نجحوا إلى حد ما في تفتيت البنية الظاهرية لمذهب أهل البيت عليهم السلام وألجئ الأئمة عليهم السلام إلى التقية في كثير من أحوالهم وشؤونهم على ما هو مذكور في كتب الفقه إلا أن فكر أهل البيت عليهم السلام بقي حيا زاخرا بالعطاء، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على أن العناية الإلهية تحوطه وترعاه، ويأبى الله إلا أن يتم نوره. فقد

كان الإمام الصادق عليه السلام على تمام الحيلة والحذر، يحبط كثيرا من مخططاتهم بأساليبه الحكيمة، حتى إذا استشهد الإمام الصادق عليه السلام وقع الاضطراب الشديد في صفوف الشيعة، وقد ذكرنا في مطلع هذا البحث شيئا من ذلك، ومما زاد الأوضاع وخامة ظهور الدعاوى الكاذبة التي ساعدت على زيادة ضغط السلطة على كل من ينتمي لأهل البيت عليهم السلام في الفكر والعقيدة. وكادت معالم التشيع أن تنطمس لولا ظهور الإمام الكاظم عليه السلام في الوقت المناسب مع حراجة الظروف وخطورتها.

فكانت الفترة التي عاشها الإمام الكاظم عليه السلام من أشد الفترات صعوبة، ولا سيما في عهد الرشيد العباسي الذي كان على معرفة بأن الإمام الكاظم عليه السلام هو صاحب الحق الشرعي، وأن الشيعة لا ترضى بغيره بدلا.

وإن أشد ما يقض مضجع الحاكم ويؤرق حياته أن يرى أحدا ينافسه على السلطان، فهو إذ ذاك لا يقر له قرار، ولا يهنأ له عيش، ولا يشعر بالأمان حتى يفتك بخصمه أيا كان. ولم يدر هؤلاء الحكام أن سلطان أهل البيت عليهم السلام إنما هو على القلوب والأرواح، فما عهد عن أحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه سعى للسلطة وتولي الحكم أو حمل سلاحا أو نظم جيشا ليقلب نظاما على صاحبه أيا كان، حتى أن أمير المؤمنين عليه السلام مع أنه كان الإمام والحاكم

وقد نصبه النبي خليفة على الأمة لم يطمع في الولاية يوم استأثر بها القوم، وحملوه على قبول ولايتهم قسرا، واعتزلهم وما يفعلون، ولما قتل عثمان جاؤوا يسعون إليه وبايعوه عن طواعية واختيار، وسعى أمير المؤمنين عليه السلام أن يسوسهم بالعدل والحكمة، ويسير فيهم بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويحملهم على المحجة البيضاء، فلم يرق لهم ذلك، فنقضوا بيعته، وحاربوه، وكان أول من نقض البيعة وأول من حاربه هو أول من بايعه ونادى بخلافته.

إن أولئك الحكام يحسبون أئمة أهل البيت عليهم السلام كأنفسهم، حيث يجد الحكام أنفسهم ذوي أطماع في الحكم والسلطان، وإن أشادوا حكمهم على أشلاء الضحايا وبنوا قصورهم على أجساد الأبرياء، وسقوا أساس ملكهم بدماء المظلومين.

وعلى أي حال فقد كان عصر الإمام الكاظم عليه السلام عصر خوف واضطراب، وقد أحكمت السلطة قبضتها على زمام الأمر فأخمدت الأنفاس، وكتمت الأصوات، وسفكت الدماء، وضاقَت السجون وتفرق الرجال.

ولم يكن الذي يجري إلا على أهل البيت وشيعتهم وفي طليعة أهل البيت عليهم السلام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام.

ولك أن تتصور حالات الذعر والفرع والاضطراب التي مني بها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، رجالا ونساء وعلى مختلف الأصعدة.

ونحن إذ نستفزع ما نقرأ، ونرتاع لما نتلوا من صحف صبغها المجرمون بدماء المظلومين، فما ظنك بمن قاسى أهوال المآسي وفوادح الخطوب.

والناس آنذاك إزاء ما يجري على أهل البيت عليهم السلام بين من أصبح آلة في أيدي الظالمين يحققون به أغراضهم، ويتوصلون به إلى أهدافهم، ويحقق بهم مطامعهم، وبين من أربعه الخوف والهلع، فانطوى على نفسه، وتوارى وراء التقية خوفاً على نفسه وعرضه وماله، وبين من لا يعنيه من الأمر شيء فلم يبال بما يجري من أحداث.

ثانياً: إن مما تقرر في مذهب أهل البيت عليهم السلام أن العصمة الخاصة - في هذه الأمة - منحصرة في النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصديقة الزهراء عليها السلام والأئمة الاثني عشر عليهم السلام دون سواهم، وقد قامت الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، مما هو مبثوث في الكتب الكلامية، وقد أحلنا القارئ العزيز على بعض المصادر فيما تقدم.

ولئن استفيد من بعض الأدلة أو القرائن عصمة بعض الأفراد من أهل البيت عليهم السلام كأبي الفضل العباس، وعلي الأكبر، والسيدة زينب بنت أمير المؤمنين، والسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، فليس المراد بعصمة هؤلاء هي تلك العصمة الخاصة اللازمة، وإنما المراد أنهم بلغوا مرتبة عالية من الكمال لم ينلها سائر الناس. على ما بيناه فيما سبق.

وعلى هذا فما عدا هؤلاء من سائر أفراد أهل البيت عليهم السلام ليسوا

بمعصومين بمعنى أنه لا يصدر عنهم خطأ أو اشتباه عن تعمد كان أو عن سهو، وإن نالوا شرف الأصل والنسبة، إذ ليس من البعيد أن يصدر من بعضهم ما لا يليق صدوره من مثلهم من الهفوات الأخطاء الكبيرة أو الصغيرة التي عانى منها الأئمة عليهم السلام في كثير من القضايا والأمور. وقد عانى الإمام الكاظم عليه السلام من بعض إخوانه كما عانى أبؤه من بعض بني عمومته من قبل، وهكذا بقية الأئمة عليهم السلام على ما تكفلت ببيانه الروايات وكتب التراجم. ولولا أن الأئمة عليهم السلام كانوا يعالجون هذه القضايا بالحكمة، ورحابة الصدر، وبعد النظر، والصبر والتحمل لكان للصورة وجه آخر، وقد وعدنا بعدم الخوض في تفاصيل ذلك، ونكتفي بهذه الإشارة.

وهذا هو أحد الامتيازات والفوارق بين المعصوم وغيره، وإن كان هذا الغير - ينحدر في نسبه - من أهل البيت عليهم السلام.

وثالثاً: إن حكومة بني العباس في نظر الأئمة عليهم السلام لم تكن حكومة شرعية، ولم تحظ بالتأييد والمساندة منهم عليهم السلام، بل كانوا يظهرون لبعض خواصهم ممن له علاقة بالسلطة الحاكمة عدم مشروعية العمل للحكام والتحذير من الدخول في ولاياتهم، أو السعي في قضاء حوائجهم، وإن كان العمل بحسب الظاهر في نفسه بعيداً عن جرائمهم ومخازيهم، ويرى الإمام عليه السلام أن إسداء أي خدمة لهم مهما كانت، مشاركة لهم في الجريمة، كما يكشف عن ذلك الحوار الذي جرى بين

الإمام الكاظم عليه السلام وبين صفوان بن مهران الجمال، الذي روى ما جرى فقال: دخلت على أبي الحسن الأول عليه السلام، فقال لي: يا صفوان كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً، قلت: جعلت فداك أي شيء؟!

قال: إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون - قلت: والله ما أكريته أشراً، ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو، ولكني أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه، ولكن أبعث معه غلماً، فقال لي: يا صفوان أيقع كراك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك، فقال لي: أتحب بقاءهم حتى يخرج كراك؟ قلت: نعم، قال: فمن أحب بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم ورد النار، فقال صفوان: فذهبت وبعثت جمالي عن آخرها، فبلغ ذلك إلى هارون، فدعاني، وقال: يا صفوان بلغني أنك بعثت جمالك، قلت: نعم، فقال: لم؟ قلت: أنا شيخ كبير، وإن الغلمان لا يفون بالأعمال، فقال: هيهات، إني لأعلم من أشار عليك بهذا، أشار عليك بهذا موسى بن جعفر، قلت: مالي ولموسى بن جعفر، فقال: دع هذا عنك، فوالله لولا حسن صحبتك لقتلتك ^(١).

إن هذا الموقف الصارم وأمثاله من الإمام عليه السلام لا يدع مجالاً للحاكم أن يشعر بالاستقرار، إذ يرى أن الخطر يتهدد سلطانه، ويزعزع أركان وجوده، وينذر بالزوال. وهذه السلبية التي أنتهجها الإمام عليه السلام إزاء حكومة هارون الرشيد

(١) معجم رجال الحديث ج ١٠ ص ١٣٣.

أظهرت كثيرا من الحقائق الخفية على الناس، وجعلت الحاكم يزداد في تماديه وضلاله، فيرتكب من الجرائم ما هو أبشع، ومن المنكرات ما هو أفظع، ويظهر حقيقته التي كان يسترها وراء بعض المظاهر الدينية التي قد ينخدع بها بعض من قصرت بصيرته عن إدراك الحقيقة، فقد ظن صفوان أن عمله مشروع، لأنه يكره جماله في طريق الحج، وهو أمر منفصل لا علاقة له بما يمارسه هارون الرشيد من اللهو واللعب والمحرمات، ولكن الإمام عليه السلام أوقفه على الحقيقة، وبين له أن البصير ينبغي أن لا ينخدع بمظهر زائف، وأن لا يكون مطية يحقق بها الظالم أغراضه.

وقد تنبه لذلك فاتخذ إجراء حاسما، فباع جماله وتخلّى عن مهنته، وأدرك هارون الرشيد السر وراء ذلك، ولولا شفاعته حسن صحبة صفوان لكان في عداد الضحايا.

ولا شك أن هذه الحادثة وأمثالها تركت هارون الرشيد يتميز من الغيظ، ويبحث عن أساليب أخرى يكيد بها الإمام عليه السلام.

وأما إذنه عليه السلام لعلّي بن يقطين في تولي منصب الوزارة لهارون الرشيد ورغبته عليه السلام في بقائه في الوزارة فليس ذلك نقضا لهذا الموقف، وذلك لأن الوزارة منصب عام يرتبط بعامة الناس، وله صلاحيات واسعة يستطيع علي بن يقطين من خلالها أن يؤدي خدمات كبيرة للشريعة على مختلف طبقاتهم ودفع الأخطار عنهم، ومع أن هذا

المنصب حساس جدا وقد استأذن ابن يقطين الإمام عليه السلام في الاستعفاء من هذا المنصب، إلا أن الإمام عليه السلام رغب في بقاءه لحماية الشيعة ^(١)، وتكفل له بالرعاية والتسديد في مواطن الخطر. وقد أنقذه الإمام عليه السلام في مواضع كثيرة كاد أن يتورط فيها علي بن يقطين، على أنه كان من الجلالة والاستقامة والمعرفة بالحق ما يؤمن منه الانحراف أو تلبس عليه الأمور.

وأما صفوان بن مهران فلم يكن عمله بهذه المثابة، بل كان خدمة خالصة لهارون الرشيد والجهاز الحاكم، وليس فيها إلا التأييد والمساندة لحكومة بني العباس، من دون أن يكون فيها نفع يذكر لغيرهم، ولذلك لم يمنعه الإمام عليه السلام من التخلي عن هذا العمل في حين أمر ابن يقطين بالبقاء، فلا تناهي بين الأمرين.

رابعاً: إن من أهم الركائز التي اعتمدت عليها سياسة الحكام منذ اليوم الذي استولوا فيه على مقام الزعامة واغتصبوا فيه منصب الخلافة، هو السعي لإبقاء أصحاب الحق الشرعي في عوز وفاقه، كسرا لشوكتهم وتقليصاً لشأنهم، وحداً من قدراتهم وإمكانياتهم، وإظهارهم للناس بأنهم ليسوا ممن يطمع فيهم، أو يرغب في صحبتهم أو حملهم على الاستجداء والخنوع.

ومن المعلوم أن الناس أبناء الدنيا وعبيد الدرهم والدينار، إلا ما قل

(١) معجم رجال الحديث ج ١٣ ص ٢٤٢ - ٢٥٢.

وندر، وكان ذلك أحد العوامل التي ساهمت في انحسار أغلب الناس وتخليهم عنهم بل والتنكر لهم عليه السلام.

وقد اتخذ الحكام عدة إجراءات للحيلولة دون تمكن أهل البيت عليهم السلام من الإنفاق بما يتناسب مع شأنهم فصادروا فدكا ^(١) من أصحابها ومنعوهم الحق الشرعي الذي افترضه الله على عباده بنص القرآن وهو الخمس، ومنعوهم عطاءاتهم، واستولوا على بعض ممتلكاتهم، واستمرت هذه السياسة جارية في بني أمية وبني العباس، حتى بلغ الأمر أنه إذا ما تنهى إلى أسماعهم أن أحدا أعطى خمسه للإمام عليه السلام فإنهم ينكلون به أشد التنكيل، وكانت الرصد والعيون التي جندها الحكام على الأئمة عليهم السلام ترقب عليهم كل تصرف.

وكان قسم كبير من تلك الأموال التي استولى عليها الظالمون غصبا وعدوانا يبذل لأولئك الذين يتزلفون للحكام من الشعراء الذين اتخذوا من هجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعترته ذريعة لنيل الأموال والحصول عليها، كأبان بن عبد الحميد، ومروان بن أبي حفصة، وأضراهما ممن طبع على قلوبهم وباع دينه بدنياه ^(٢).

وأما القسم الآخر - من الأموال - فكان يبذل على الفسوق والفجور، والفساد، مما حفلت بذكره كتب التاريخ ^(٣).

(١) بحار الأنوار ج ٢٩ ص ١٨٣ - ٢١٣.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٧٥ - ٨١.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٢٦ - ٥٤.

وبقيت الأمة ولا سيما أهل البيت عليهم السلام يرزحون تحت وطأة القهر والحرمان. وقد اعترف هارون الرشيد بذلك، كما جاء في حوار مع ولده المأمون لما اعترض على أبيه لقلّة ما أعطى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في حين أنه ضمن له أن يعطيه الكثير. قال المأمون: يا أمير المؤمنين تعطي أبناء المهاجرين والأنصار وسائر قريش وبني هاشم، ومن لا يعرف نسبه خمسة آلاف دينار وتعطي موسى بن جعفر وقد أعظمته وأجلته مائتي دينار أخس عطية أعطيتها أحدا من الناس، فنار هارون وصاح في وجهه قائلاً: اسكت لا أم لك، فإني لو أعطيت هذا ما ضمنته له ما كنت آمنه أن يضرب وجهي بمائة ألف سيف من شيعته ومواليه، وفقر هذا وأهل بيته أسلم لي ولكم من بسط أيديهم وأعينهم... ^(١).

وخامساً: إنه برغم ما كان يمارسه حكام بني العباس من سياسة البطش والقهر، والحرمان والإبادة والتشريد، إلا أن الأئمة عليهم السلام ما كانوا ليتنازلون عن منصب الإمامة والولاية، فإنها حق إلهي لهم من دون سائر الناس بل كانوا يقفون مواقف التحدي للحكام ويمارسون دورهم في حدود ما تسمح به الظروف المحيطة بهم وبشيعتهم، وكان الإمام السابق ينص على إمامة اللاحق في جمع من خواص الشيعة،

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٩٢.

ويؤكدون على ذلك بين حين وآخر، ويبينون لشيعتهم الأحكام والمعارف وإن كانت على خلاف ما عليه الحكام وأذناهم.

وبعبارة أخرى: كان الأئمة عليهم السلام وشيعتهم في معزل عن السلطة في الفكر والعقيدة والسلوك على نحو الاستقلال التام، مع علمهم بأن الحكام لهم ولشيعتهم بالمرصاد.

ونستفيد ذلك من المواقف الصريحة التي يواجه الإمام عليه السلام بها رأس السلطة الحاكمة. فقد ذكر الرواة أن هارون سأل الإمام عليه السلام عن فدك ليرجعها إليه، فأبى الإمام عليه السلام أن يأخذها إلا بحدودها، فقال الرشيد: ما حدودها؟

فقال عليه السلام: إن حددتها لم تردّها. فأصر هارون عليه أن يبينها له قائلاً: بحق جدك إلا فعلت. ولم يجد الإمام بداً من إجابته فقال له: أما الحد الأول فعدن، فلما سمع الرشيد ذلك تغير وجهه، واستمر الإمام عليه السلام في بيانه قائلاً: والحد الثاني سمرقند، والحد الثالث إفريقيا، والحد الرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية، فثار الرشيد وقال: لم يبق لنا شيء، فقال عليه السلام: قد علمت أنك لا تردّها ^(١).

وفي هذا الحوار موقف الإمام الصريح وبيان أحقيته بالخلافة، ومن الطبيعي أن يترك ذلك الحوار أثراً في نفس هارون حيث يرى نفسه غاصبا ليس له من الأمر شيء.

(١) بحار الأنوار ج ٤٨ ص ١٤٤.

ونظير هذا الموقف موقف آخر للإمام عليّ مع هارون لما أراد عليّ أن يبين شدة صلته وقربه من رسول الله ﷺ، وقد سأله هارون: لم قلت: إنك أقرب إلى رسول الله منا؟ فقال عليّ: لو بعث رسول الله ﷺ حيا، وخطب منك كرميتك هل كنت تجيبه إلى ذلك؟ فقال هارون: سبحان الله! وكنت أفتخر بذلك على العرب والعجم.

فقال عليّ: لكنه لا يخطب مني ولا أزوجه لأنه والدنا لا والدكم، فلذلك نحن أقرب إليه منكم، ثم قال عليّ: هل كان يجوز له أن يدخل على حرمك وهن مكشفات فقال هارون: لا، فقال الإمام: لكن له أن يدخل على حرمي، ويجوز له ذلك، فلذلك نحن أقرب إليه منكم^(١). وقد اعترف هارون بأحقية الإمام عليّ حين أخذته هيبة الإمام عليّ ولم ير بدا من إظهار احترامه وإجلاله، الأمر الذي أثار ابنه المأمون فدفعه للسؤال قائلا: يا أمير المؤمنين من هذا الرجل الذي عظمته، وقمت من مجلسك إليه، فاستقبلته، وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه، ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟ فقال هارون: هذا إمام الناس وحجة الله على خلقه، وخليفته على عباده، قال المأمون: يا أمير المؤمنين أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، والله يا بني إنه لأحق بمقام رسول الله ﷺ مني ومن الخلق جميعا، والله لو

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام ج ٢ ص ٤٥٧.

نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك، فإن الملك عقيم (١).

وهكذا كان الأئمة عليهم السلام مع الحكام في كل عصر من عصورهم، فلم يكن أحد من الأئمة عليهم السلام ليتخلى عن منصب الإمامة مهما كانت الظروف، ولئن لم يتمكن الأئمة عليهم السلام من ممارسة أدوارهم في الظاهر إلا أنهم قاموا بوظيفتهم في الواقع، وإذا كان ثمة تقصير فهو من الناس حيث ضلوا الطريق فتاهوا، لا من الأئمة عليهم السلام، وقد فاز بذلك شيعة أهل البيت عليهم السلام فساروا في ركاب أئمتهم، وركبوا في سفينتهم والعاقبة للمتقين.

ولا شك أن هذا الموقف الصارم من الأئمة عليهم السلام في مسألة الإمامة يجعل ردة الفعل من قبل الحكام عنيفة جدا، بحيث تصبح حياة الأئمة عليهم السلام وشيعتهم مهددة بالأخطار ولا ينافي ذلك أمر التقية، لأنها إنما تسوغ في بعض المواطن وليس هذا منها.

وبعد هذا كله نقول: جاء في وصية الإمام الكاظم عليه السلام لابنه الإمام الرضا عليه السلام بما يتعلق بهذا الموضوع أنه عليه السلام قال: وإني قد أوصيت إلى علي وبنى بعد معه، إن شاء وآنس منهم رشدا، وأحب أن يقرهم فذاك له، ولا أمر لهم معه... وإلى علي أمر نسائي دونهم... وإن أراد رجل منهم أن يزوج أخته فليس له أن يزوجها إلا بإذنه وأمره، فإنه أعرف بمنالك قومه،... وأمهاات أولادي من أقامت منهن في منزلها وحجابها

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٩١.

فلها ما كان يجري عليها في حياتي، إن رأى ذلك، ومن خرجت منهن إلى زوج فليس لها أن ترجع إلى محوأي، إلا أن يرى علي غير ذلك، وبناتي بمثل ذلك، ولا يزوج بناتي أحد من إخوتهن من أمهاتهن، ولا سلطان ولا عم إلا برأيه ومشورته، فإن فعلوا غير ذلك فقد خالفوا الله ورسوله وجاهدوه في ملكه، وهو أعرف بمنالك قومه، فإن أراد أن يزوج زوج، وإن أراد أن يترك ترك، وقد أوصيتهن بمثل ما ذكرت في كتابي هذا، وجعلت الله عز وجل عليهن شهيدا^(١).

ويستفاد منها أن الأمر حساس وخطير، وهو يتطلب بصيرة نافذة، ومعرفة تامة بمدخل القضايا ومخارجها، ولذلك أوكل أمر زواج بناته عليها إلى الإمام الرضا عليه، وهو المعصوم العالم بحقائق الأمور، وكان الظرف ظرف محنة وابتلاء كما يدل عليه حديث الإمام الكاظم عليه ليزيد بن سليط الزيدي حيث قال: ثم قال لي أبو إبراهيم عليه:

إني أؤخذ في هذه السنة، والأمر هو إلى ابني علي، سمي علي وعلي، فأما علي الأول فعلي بن أبي طالب، وأما الآخر فعلي بن الحسين عليه، أعطي فهم الأول وحلمه ونصره ووده ودينه ومحنته، ومحنة الآخر وصبره على ما يكره^(٢)....

(١) الأصول من الكافي ج ١ باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا عليه الحديث ١٥ ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٢) الأصول من الكافي ج ١ باب الإشارة على أبي الحسن الرضا عليه الحديث ١٤ ص ٣١٥.

وليس في هذه الوصية ما يدل على المنع من التزويج، وإنما تدل على أن الأمر إلى الإمام الرضا عليه السلام، فهو الأعراف بمنأى قومه، وهو الأعم بأحوال زمانه.

فما ذكره اليعقوبي في تاريخه ^(١) من أن الإمام عليه السلام أوصى بعدم تزويج بناته فإن كان مستنده هو وصية الإمام عليه السلام التي ذكرناها فقد أخطأ في الاستنتاج، وإن كان غيرها فلم نقف عليه، ولا نستبعد أنه قد التبس عليه الأمر وفهم من الوصية أن الإمام قد منع من تزويج بناته، وليس الأمر كذلك.

ثم إنه من خلال ما تقدم ذكره من الأمور الخمسة يمكننا استفادة السبب وراء عدم زواج بنات الإمام الكاظم عليه السلام.

والذي يترجح من جميع ذلك أن السبب أمران أحدهما يكمل الآخر، وهما:
الأول: عدم وجود الكفو.

والثاني: الخوف من الإقدام على مصاهرة الإمام عليه السلام.

أما الأول فإن الفقهاء وإن اختلفوا في تحديد معنى الكفاءة، ولهم في ذلك أقوال وآراء ذكرها صاحب الجواهر ^(٢) وغيره إلا أنهم اتفقوا على أن المؤمن كفوء المؤمنة.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: المؤمنون بعضهم أكفاء بعض ^(٣).

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٤١٥.

(٢) جواهر الكلام ج ٣٠ ص ٩٢ - ١١٦.

(٣) من لا يحضره الفقيه ج ٣ - كتاب النكاح - باب الأكفاء الحديث ٥ ص ٢٤٩.

وخلافهم إنما هو في زواج المرأة الشريفة ممن هو أدنى منها، وأما العكس فلا خلاف بينهم في جوازه، على أن الخلاف في ذلك مما لا يعتد به، كما صرح به صاحب الجواهر حيث قال: (و) كيف كان فلا إشكال ولا خلاف معتد به في أنه (يجوز) عندنا (إنكاح الحرة العبد، والعربية العجمي، والهاشمية غير الهاشمي، وبالعكس، وكذا أرباب الصنائع الدنية) كالكناس والحجام وغيرهما (بذات الدين) من العلم والصلاح (والبيوتات) وغيرهم، لعموم الأدلة، وخصوص ما جاء في تزويج جويبر الدلفاء، ومنجح بن رباح مولى علي بن الحسين عليه السلام بنت ابن أبي رافع... (١).

والحاصل إجمالاً: أن سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام كانت على ذلك، مضافاً إلى الروايات الكثيرة الواردة عنهم عليهم السلام الدالة على الجواز، نعم اختصت الصديقة الزهراء عليها السلام بهذا الشأن من دون سائر النساء، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إنما أنا بشر مثلكم أتزوج فيكم وأزوجكم إلا فاطمة، فإن تزويجها نزل من السماء (٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: لولا أن الله خلق أمير المؤمنين لم يكن لفاطمة كفو على وجه الأرض، آدم فمن دونه (٣).

وأما ما عدا فاطمة الزهراء عليها السلام من النساء فليست لها هذه

(١) جواهر الكلام ج ٣٠ ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) الفروع من الكافي ج ٥ كتاب النكاح باب نوادر الحديث ٥٤ ص ٥٦٨.

(٣) بحار الأنوار ج ٤٣ ص ١٠٧.

الخصوصية، وإنما يتبع فيها الشرائط العامة في الزواج من الدين والخلق وغيرها مما ذكره الفقهاء ورووه عن الأئمة عليهم السلام وتفصيل هذه المسألة بجميع أبعادها مبسوط في كتب الفقه الاستدلالية. وغرضنا من ذلك الإشارة إلى أنه لا شك في توفر الشرائط في بعض الأشخاص في زمان الإمام الكاظم عليه السلام.

ولكن ما جرى على العلويين من الأحداث حال دون ذلك، فإن حملات الإبادة من القتل والتشريد لبني هاشم ما أبقت منهم إلا القليل، فإن المسلسل الدامي بدأ مع بداية عهد المنصور، وقد تتبع العلويين، فمنهم من قتل في ميادين الحروب، ومنهم من قتل تحت الأنقاض حيث أمر المنصور بدم السجون عليهم أو وضعوا في أساس البناء أحياء فماتوا اختناقاً، ومنهم من اغتيل بالسم، ومنهم من قتل صبراً واحتفظ برؤوسهم في خزانة ولم يطلع عليها إلا بعض أهل بيته. يقول الطبري في تاريخه لما عزم المنصور على الحج دعا ريطة بنت أبي العباس امرأة المهدي، وكان المهدي بالري قبل شخوص أبي جعفر، فأوصاها بما أراد، وعهد إليها، ودفع إليها مفاتيح الخزان، وتقدم إليها وأحلفها، ووكد الإيمان أن لا تفتح بعض تلك الخزائن، ولا تطلع عليها أحداً إلا المهدي، ولا هي إلا أن يصح عندها موته، فإذا صح ذلك اجتمعت هي والمهدي وليس معهما ثالث حتى يفتحا الخزانة، فلما قدم المهدي من الري إلى مدينة السلام، دفعت إليه

المفاتيح، وأخبرته أنه تقدم إليها ألا يفتحه ولا يطلع عليه أحد حتى يصح عندها موته، فلما انتهى إلى المهدي موت المنصور، وولي الخلافة فتح الباب ومعه ربطة، فإذا أزعج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبين، وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وإذا فيهم أطفال، ورجال شباب، ومشايخ عدة كثيرة، فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى، وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها، وعمل فوقها دكان^(١).

ومنهم من سلم من القتل ولكنه لم يسلم من التشرد فهام في البلدان متنكرا، وقد أخفى اسمه ونسبه، ومن ذلك ما رواه أبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبين من أحوال عيسى بن زيد الذي توارى عن المنصور العباسي زمانا طويلا حتى مات متواريا، ولم يطلع زوجته وابنته على اسمه ونسبه. روى أبو الفرج بسنده عن محمد بن المنصور المرادي قال: قال يحيى بن الحسين بن زيد: قلت لأبي: يا أبة، إني أشتهي أن أرى عمي عيسى بن زيد، فإنه يقبح بمثلي أن لا يلقي مثله من أشياخه، فدفعني عن ذلك مدة، وقال: إن هذا أمر يثقل عليه، وأخشى أن ينتقل عن منزله كراهية للقائك إياه فتزعجه، فلم أزل به أداريه وألطف به حتى طابت نفسه لي بذلك، فجهزني إلى الكوفة، وقال لي: إذا صرت إليها فاسأل عن دور بني حي، فإن دلت عليها فاقصدها في السكة الفلانية،

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ١٠٤ - ١٠٥.

وسترى في وسط السكة دارا لها باب، صفته كذا وكذا، فاعرفه واجلس بعيدا منها في أول السكة فإنه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون (مستور) الوجه، قد أثر السجود في جبهته، عليه جبة صوف، يستقي الماء على جمل [وقد انصرف يسوق الجمل]، لا يضع قدما ولا يرفعها إلا ذكر الله عز وجل، ودموعه تنحدر، فقم وسلم عليه وعانقه، فإنه سيدعرك منك كما يدعرك الوحش، فعرفه نفسك، وانتسب له، فإنه يسكن إليك، ويحدثك طويلا، ويسألك عنا جميعا، ويخبرك بشأنه ولا يضجر بجلوسك معه، ولا تطل عليه، وودعه، فإنه يستغفبك من العودة إليه، فافعل ما يأمرك به من ذلك، فإنك إن عدت إليه توارى عنك واستوحش منك، وانتقل عن موضعه، وعليه في ذلك مشقة، فقلت: أفعل ما أمرتني، ثم جهزني إلى الكوفة وودعته وخرجت، فلما وردت الكوفة قصدت سكة بني حبي بعد العصر، فجلست خارجها بعد أن تعرفت الباب الذي نعته لي، فلما غربت الشمس إذا أنا به قد أقبل يسوق الجمل، وهو كما وصف لي أبي لا يرفع قدما ولا يضعها إلا حرك شفثيه بذكر الله، ودموعه تترقق في عينيه، وتذرف أحيانا، فقامت فعانقته فذعر مني كما يدعرك الوحش من الإنس، فقلت: يا عم أنا يحيى بن الحسين بن زيد ابن أخيك، فضممني إليه، وبكى حتى قلت:

قد جاءت نفسه، ثم أناخ جملة وجلس معي، فجعل يسألني عن أهله رجلا رجلا، وامرأة امرأة، وصبيا صبيا، وأنا أشرح له أخبارهم، وهو

بيكي، ثم قال: يا بني أنا أستقي على هذا الجمل الماء، فأصرف ما أكتسب يعني من أجرة الجمل إلى صاحبه وأتقوت باقيه، وربما عافني عائق عن استقاء الماء فأخرج إلى البرية، يعني بظهر الكوفة فألتقط ما يرمي الناس به من البقول فأتقوته. وقد تزوجت إلى هذا الرجل ابنته، وهو لا يعلم من أنا إلى وقتي هذا، فولدت مني بنتا، فنشأت، وبلغت وهي أيضا لا تعرفني ولا تدري من أنا، فقالت: لي أمها: زوج ابنتك ببن فلان السقاء - لرجل من جيراننا يسقي الماء - فإنه أيسر منا، وقد خطبها، وألحت علي فلم أقدر على إخبارها بأن ذلك غير جائز، ولا هو بكفو لها، فيشيع خبري، فجعلت تلح علي فلم أزل أستكفي الله أمرها حتى ماتت بعد أيام، فما أجدني آسى على شئ من الدنيا أساي على أنها ماتت ولم تعلم بموضعها من رسول الله ﷺ.

وذكر أبو الفرج أن عيسى بن زيد بقي متواريا إلى أن مات في زمان المهدي العباسي، روى بسنده عن يعقوب بن داود، قال: دخلت مع المهدي في قبة في بعض الخانات في طريق خراسان، فإذا حائطها عليه أسطر مكتوبة، فدنا ودنوت معه، فإذا هي هذه الأبيات:

والله ما أطعم طعم الرقاد	خوفا إذا نامت عيون العباد
شردني أهل اعتداء وما	أذنبت ذنبا غير ذكر المعاد
أمنت بالله ولم يؤمنوا	فكان زادي عندهم شر زاد
أقول قولا قاله خائف	مطرد قلبي كثير السهاد

منخرق الخفين يشكو الوجي تنكبه أطراف مرو حداد
شرده الخوف فأزرى به كذلك من يكره حر الجلال
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد

قال: فجعل المهدي يكتب تحت كل بيت: لك الأمان من الله ومني، فظاهر متى شئت، حتى كتب ذلك تحتها أجمع، فالتفت فإذا دموعه تجري على خده فقلت له: من ترى قائل هذا الشعر يا أمير المؤمنين؟

قال: أتجاهل علي؟ من عسى أن يقول هذا الشعر إلا عيسى بن زيد^(١).
ولكن لما بلغه موت عيسى بن زيد اعتبر ذلك بشري وحول وجهه إلى المحراب وسجد وحمد الله. وكان يجد في طلبه حتى أنه حبس بعض أصحابه ثم قتلهم لأنهم لم يخبروه بموضع اختفائه^(٢).
وعهده وإن لم يكن كعهده أبيه شدة وبطشا إلا أنه ورث منه العداة لأهل البيت عليهم السلام، الذي كان يعتقد أن لا بقاء له في الحكم والسلطان إلا بالقضاء على العلويين وشيعتهم.
حتى إذا جاء عهد ابنه موسى الهادي الذي اتصف بنزعات الشر والطيش والتمادي في سفك الدماء، فنقم عليه القريب والبعيد وبغضه الناس جميعا، وقد حقدت عليه أمه الخيزران، وبلغ بها الغيظ والكراهية له أنها هي التي قتلتها^(٣).

وفي زمانه حدثت واقعة فح التي ضارعت مأساة كربلاء في آلامها

(١) مقاتل الطالبين ص ٤٠٨ - ٤١٢.

(٢) مقاتل الطالبين ص ٤٢٢ وص ٤٢٧.

(٣) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ١ ص ٤٥٧.

وشجونها، وقد تحدث الإمام الجواد عليه السلام عن مدى أثرها البالغ على أهل البيت عليهم السلام بقوله:
لم يكن لنا بعد الطف - يعني كربلاء - مصرع أعظم من فخ ^(١).
فقد حملت فيها رؤوس العلويين وتركت جثثهم في العراء، وسيقت الأسرى من بلد إلى بلد،
وقد قيدوا بالحبال والسلاسل، ووضعوا في أيديهم وأرجلهم الحديد، وأدخلوا على الهادي العباسي
فأمر بقتل بعضهم فقتلوا صبورا وصلبوا على باب الجسر ببغداد ^(٢).
ولم يكن عهد الرشيد بأحسن حالا، يقول الشيخ القرشي: وورث هارون من جده المنصور
البغض العارم والعداء الشديد للعلويين، فقابلهم منذ بداية حكمه بكل قسوة وجفاء، وصب
عليهم جام غضبه، وقد أقسم على استئصالهم وقتلهم، فقال: والله لأقتلنهم - أي العلويين -
ولأقتلن شيعتهم.
وأرسل طائفة كبيرة منهم إلى ساحات الإعدام، ودفن قسما منهم وهم أحياء، وأودع الكثيرين
منهم في ظلمات السجون، إلى غير ذلك من المآسي الموجعة التي صبها عليهم...
لقد كان الرشيد شديد الوطأة على عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا على علم بمقتته وبغضه لهم،
فحينما علموا بخلافته هاموا على وجوههم

(١) سر السلسلة العلوية ص ١٤ - ١٥.

(٢) تاريخ الطبري ج ٨ ص ١٩٨ - ٢٠٠ والكامل في التاريخ ج ٦ ص ٩٣.

في القرى والأرياف، متنكرين لئلا يعرفهم أحد^(١).

وقد أمر الرشيد حميد بن قحطبة أن يقتل ستين علويًا في ليلة واحدة، روى الصدوق بسنده عن أبي الحسين أحمد بن سهل بن ماهان، قال: حدثني عبيد الله البزاز النيسابوري، وكان مسنًا قال: كان بيني وبين حميد بن قحطبة الطائي الطوسي معاملة، فرحلت إليه في بعض الأيام فبلغه خبر قدومي، فاستحضرني للوقت وعلي ثياب السفر لم أغيرها، وذلك في شهر رمضان وقت صلاة الظهر، فلما دخلت عليه رأيته في بيت يجري فيه الماء، فسلمت عليه وجلست فأتي بطشت وإبريق فغسل يديه، ثم أمرني فغسلت يدي، وأحضرت المائدة وذهب عني أني صائم، وأني في شهر رمضان، ثم ذكرت فأمسكت يدي، فقال لي حميد: مالك لا تأكل؟ فقلت: أيها الأمير هذا شهر رمضان، ولست بمريض ولا بي علة توجب الإفطار، ولعل الأمير له عذر في ذلك، أو علة توجب الإفطار، فقال: ما بي علة توجب الإفطار وإني لصحيح البدن، ثم دمعت عيناه وبكى، فقلت له بعد ما فرغ من طعامه: ما يبكيك أيها الأمير؟ فقال: أنفذ إلي هارون الرشيد وقت كونه بطوس في بعض الليل أن أجب، فلما دخلت عليه رأيته بين يديه شمعة تنقد وسيفا أخضر مسلولا، وبين يديه خادم واقف، فلما قمت بين يديه رفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمر المؤمنين؟ فقلت:

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٧٤ - ٧٥.

بالنفس والمال، فأطرق، ثم أذن لي في الانصراف، فلم ألبث في منزلي حتى عاد الرسول إلي وقال أحب أمير المؤمنين، فقلت في نفسي: إنا لله، أخاف أن يكون قد عزم على قتلي، وإنه لما رأيته استحي مني، قعدت بين يديه فرفع رأسه إلي فقال: كيف طاعتك لأمر المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد، فتبسم ضاحكا، ثم أذن لي في الانصراف، فلما دخلت منزلي لم ألبث أن عاد إلي الرسول فقال: أحب أمير المؤمنين فحضرت بين يديه وهو على حاله فرفع رأسه إلي وقال لي: كيف طاعتك لأمر المؤمنين؟ فقلت: بالنفس والمال والأهل والولد والدين، فضحك، ثم قال لي: خذ هذا السيف وامثل ما يأمرك به الخادم، قال: فتناول الخادم السيف وناولني، وجاء إلى بيت بابه مغلق، ففتحه، وإذا فيه بئر في وسطه وثلاثة بيوت أبوابها مغلقة، ففتح باب بيت منه فإذا فيه عشرون نفسا عليهم الشعور والذوائب شيوخ وكهول وشبان مقيدون، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، وكانوا كلهم علوية من ولد علي وفاطمة عليهما السلام، فجعل يخرج إلي واحدا بعد واحد، فأضرب عنقه، حتى أتيت على آخرهم، ثم رمى بأجسادهم ورؤوسهم في تلك البئر، ثم فتح باب بيت آخر فإذا فيه أيضا عشرون نفسا من العلوية، من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمرك بقتل هؤلاء، فجعل يخرج إلي واحدا بعد واحد، فأضرب عنقه، ويرمي به في تلك البئر، حتى

أتيت على آخرهم، ثم فتح باب البيت الثالث فإذا فيه مثلهم عشرون نفسا من ولد علي وفاطمة عليهما السلام مقيدون عليهم الشعور والدواب، فقال لي: إن أمير المؤمنين يأمر بك بقتل هؤلاء أيضا، فجعل يخرج إلي واحدا بعد واحد، فأضرب عنقه، ويرمى به في تلك البئر، حتى أتيت على تسعة عشر نفسا منهم، وبقي شيخ منهم عليه شعر، فقال لي: تبا لك يا ميشوم أي عذر لك يوم القيامة إذا قدمت على جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قتلت من أولاده ستين نفسا قد ولدهم علي وفاطمة عليهما السلام؟ فارتعشت يدي وارتعدت فرايصي، فنظر إلي الخادم مغضبا وزبرني فأتيت على ذلك الشيخ أيضا فقتلته، ورمى به في تلك البئر، فإذا كان فعلي هذا وقد قتلت ستين نفسا من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما ينفعني صومي وصلاتي، وأنا لا أشك أني مخلد في النار ^(١).

وقيل: إن هذه الواقعة حدثت في زمان المنصور، ولعلها تكررت، ولذا قال الصدوق: للمنصور مثل هذه الفعلة في ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(٢).

وعلى أي تقدير فإنها إحدى الشواهد على ما نقول.

وبعد: فإذا كان هكذا حال العلويين، فهل يبقى لأحدهم مجال للاقتران بواحدة من بنات

الإمام عليه السلام ويستقر في حياة زوجية هانئة، وهو يعلم أن حياته في خطر؟!!

(١) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١٠٨ - ١١١.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ١ ص ١١١.

إن ما ذكرته بعض المصادر ^(١) من أن عدم تزويج الإمام عليه السلام بناته إنما هو لعدم وجود الكفو لم يكن على خلاف الواقع، فإن ما حل بأهل البيت عليهم السلام من الكوارث وحملات الإبادة قد أفتتهم ولم تدع منهم إلا القليل.

وربما يقال: إذا كان هذا حال العلويين ففي رجالات الشيعة من توفرت فيه سائر الشرائط، فلم لم يزوج الإمام الكاظم عليه السلام بناته من الشيعة، إذ ليس من الضروري أن يكون الزوج علويًا ما دامت الكفاءة من الإيمان والخلق في غير العلوي متحققة؟

ونقول: إننا قد ذكرنا أن هناك أمرا آخر نعتبره مكملًا للأمر الأول وهو الخوف من الإقدام على مصاهرة الإمام عليه السلام، فلم يكن الشيعة آمنين على أرواحهم، وقد بلغهم أن هارون الرشيد قد أقسم على أن يقتل الشيعة كما أقسم على إبادة العلويين.

وقد عانى الشيعة من الشدائد ما لا يخفى، وكانوا يعيشون التقية في أمورهم كما أمرهم أئمتهم عليهم السلام بذلك، وأصبحت حياتهم آنذاك مهددة بالأخطار، وكان الحكام لهم بالمرصاد.

ومما يدل على ذلك ما ورد في أحوال عليه السلام بن أبي عمير، حيث روي عن الفضل بن شاذان أنه قال: سعي بمحمد بن أبي عمير إلى السلطان أنه يعرف أسامي عامة الشيعة بالعراق، فأمره السلطان أن

(١) تاريخ قم ص ٢٢١ ومنتهى الآمال ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

يسميهام فامتنع، فجرد وعلق بين القفازين (العقارين) وضرب مائة سوط، قال الفضل: فسمعت ابن أبي عمير يقول: لما ضربت فبلغ الضرب مائة سوط، أبلغ الضرب الألم إلي فكنت أن أسمى، فسمعت نداء مُحَمَّد بن يونس بن عبد الرحمن يقول: يا مُحَمَّد ابن أبي عمير أذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقويت بقوله فصبرت ولم أخبر، والحمد لله.

وقال: ضرب ابن أبي عمير مائة خشبة وعشرين خشبة بأمر هارون لعنه الله، تولى ضربه السندي بن شاهك على التشيع...^(١) ويدل على ذلك أيضا ما جاء في أحوال هشام بن الحكم، فإنه عاش في آخر أيامه مشردا حتى مات من الخوف في قصة طويلة ذكرها علماء الرجال^(٢).

وغيرها من القضايا التي كان الشيعة فيها كأئمتهم عليهم السلام في المعاناة والخوف. وإذا كان هذا حال الشيعة فهل ترى أن أحدا منهم يقدم على مصاهرة الإمام عليه السلام وقد تربصت العيون بهم الدوائر، والحكام في طلبهم وراء كل حجر ومدبر؟

على أنه لم يثبت أن أحدا من العلويين أو من الشيعة تقدم لخطبة إحدى بنات الإمام عليه السلام فقبول بالرفض.

(١) معجم رجال الحديث ج ١٥ ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٢) معجم رجال الحديث ج ٢٠ ص ٣٠١ - ٣٠٦.

هذا ما نرجحه من الأسباب وراء عدم تزويج بنات الإمام عليه السلام، ومنهم السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام.

وهناك احتمالان آخران يختصان بها، وقد يشاركنها بعض أخواتها فيهما. أحدهما: أنها وأبائها وأخاها يعلمون أن عمرها قصير، فإن وفاتها عليها السلام كانت سنة ٢٠١ هـ فيكون عمرها على أكثر الاحتمالات أقل من ثلاثين عاما، وهو عمر قصير بالقياس إلى الأعمار المتعارفة.

وحيث كانت تعلم بذلك فلم يكن لديها ما يرغبها في الزواج. وثانيهما: أنها لما كانت تشاهد ما يجري على أهل بيتها وبني عمومته من حكام بني العباس من القتل والسجن والتشريد، وما يلاقيه أبوها وأخوها من الإيذاء عذفت نفسها عن الزواج، ومن الطبيعي أن في عدم الاطمئنان في الحياة صارفا قويا عن الزواج. هذا ولعل هناك سببا أو أسبابا أخرى وراء ذلك لم ندركها، وكما ذكرنا أن الأمر شأن خاص قد أريد إخفاء سره عن الناس.

المآسي والآلام:

إن من أفسى ما مر على أهل البيت عليهم السلام في تاريخهم الحافل بالمآسي والآلام أن الأيدي الآثمة قد تجاوزت الحد في خصومتها وعدوانها عليهم، فامتدت لتهتك حرمتهم، وتكشف أستارهم،

وتعتدي على نسائهم بالضرب والسلب والنهب والأسر والتشهير .
وليس بعد قتل المعصوم ما هو أفضح وأفجع مما جرى على بنات الرسالة وعقائل الوحي، وإذا
كان المتآمرون في السقيفة قد وضعوا الأساس حيث استطالت أيديهم فضربوا الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ، وهي
بضعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ووكزوها بالسيف وأسقطوا حملها في وحشية عدم فيها الضمير، وإذا كان
الأمويون قد ساقوا بنات الزهراء أسارى بعد السلب والنهب، فإن بني العباس جاؤوا ليكملوا ما
تبقى من حلقات هذا المسلسل، بل زادوا على أولئك في التعدي والعدوان، فقد مر علينا أن
أسرى واقعة فخ لما جئ بهم إلى الهادي العباسي وأدخلوا عليه وهم مقيدون بالحبال والسلاسل
ووضعوا أيديهم وأرجلهم في الحديد أمر بقتل بعضهم فقتلوا صبوا وصلبوا بباب الجسر ببغداد ^(١) .
وقد اعترف المأمون بأن بني العباس فاقوا بني أمية في عدوانهم وظلمهم للعلويين، فقال:
فأخفناهم، وضيقنا عليهم، وقتلناهم أكثر من قتل بني أمية إياهم.
ويحكم إن بني أمية إنما قتلوا منهم من سل سيفاً، وإننا معشر بني العباس قتلناهم جملاً، فلتسألن
أعظم الهاشمية بأي ذنب قتلت؟
ولتسألن نفوس ألقيت في دجلة والفرات ونفوس دفنت ببغداد والكوفة أحياء ^(٢)

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ١٩٨ - ٢٠٠ والكامل في التاريخ ج ٦ ص ٩٣ .

(٢) الطرائف ج ١ ص ٢٧٨ .

وقد ذكرنا فيما تقدم شيئا مما لاقاه العلويون من بني العباس، والغرض في المقام أن نذكر شيئا مما لاقاه العلويات، ونكتفي بما يرتبط بالسيدة المعصومة عليها السلام وما نالها من عدوان بني العباس. اتفق الرواة على أن محمد بن جعفر خرج في زمان الرشيد أو المأمون، وأعلن الدعوة إلى نفسه، - وقد حذره الإمام الرضا عليه السلام من مغبة ذلك وأخبره بأنه أمر لا يتم وأن حركته فاشلة -، فأرسل العباسيون جيشا بقيادة عيسى بن يزيد الجلودي وأمروه إن ظفر به أن يضرب عنقه، وأن يغير على دور آل أبي طالب، وأن يسلب نساءهم، ولا يدع على واحدة منهن إلا ثوبا واحدا، ففعل الجلودي ذلك، وقد كان مضى أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام ، فصار الجلودي إلى باب دار أبي الحسن الرضا عليه السلام (و) هجم على داره مع خيله، فلما نظر إليه الرضا جعل النساء كلهن في بيت ووقف على باب البيت، فقال الجلودي لأبي الحسن عليه السلام : لا بد من أن أدخل البيت فاسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين، فقال الرضا عليه السلام : أنا أسلبهن لك، وأحلف أني لا أدع عليهن شيئا إلا أخذته، فلم يزل يطلب إليه ويحلف له حتى سكن، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام فلم يدع عليهن شيئا حتى أقرطهن وخلاخيلهن وأزرهن إلا أخذه منهن، وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير ^(١).

تري ما حال تلك النسوة آنذاك؟! وما حال الإمام علي بن موسى

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٦١.

الرضا عليه السلام وهو يرى بنات الرسالة وقد سلبن كل شيء؟
وهل تظن أن الجلودي اكتفى بالهجوم على بيت الإمام الرضا عليه السلام دون بقية دور آل أبي
طالب؟

والذي ذكرته الروايات أن الجلودي أمر بالغارة على دور آل أبي طالب، وأن يسلب نساءهم،
والجلودي كان خادما مخلصا لبني العباس، ولا أظن أنه اكتفى بذلك، بل هجم على بقية الدور،
وربما سلب النساء بنفسه، وإن لم تفصح الروايات عن ذلك.

والذي يؤيد ما ذكرنا ما جاء في نفس هذه الرواية، من أنه لما أدخل الجلودي على المأمون،
وكان الإمام الرضا عليه السلام حاضرا وأراد الإمام أن يشفع فيه، فقال عليه السلام: يا أمير المؤمنين هب لي
هذا الشيخ، فقال المأمون: يا سيدي هذا الذي فعل بنات محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل من سلبهن ^(١).
فإن فيه إشعاراً بذلك.

وإذا كانت الخصومة بين الرجال فما بال النسوة؟ وما هي جنائتهن ليفعل بهن ذلك؟ وهن
بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وودائع النبوة!!!
وإذا لم يكن الدين رادعا ولا الضمير وازعا فلا أقل أن النسب يكون صارفاً فإن لهن رحما قريبة
بأولئك المتسلطين ولكن...

وعلى أي حال فقد نال السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام من الخوف

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٦١.

والترويع والظلم ما جعل أيام حياتها القصيرة تمتزج بالآلام والأحزان والمآسي.

لوعة الوداع:

قد يتوهم البعض بأن الإمام الرضا عليه السلام عاش حياة مستقرة آمنة، ولا سيما أنه أمضى السنوات الأخيرة من عمره في البلاط العباسي، فكان في مأمن من ملاحقة السلطة، بل في موقع الزعامة حيث بويج بولاية العهد، فكان الرجل الثاني في دولة واسعة مترامية الأطراف، ولم يكن هناك ما يخشاه.

ولكن الحقيقة أمر آخر غير هذا الظاهر، فإن أفسى السنوات التي مرت عليه هي السنوات الأخيرة من عمره، وعاش في حصار قد فرض عليه لم يستطع الخلاص منه، حتى قيل إن الإمام الرضا عليه السلام كان أكثر الأئمة عليهم السلام عملاً بالتقية، لشدة ما عاناه من سلطة بني العباس.

وتؤكد الدلائل والشواهد التاريخية على أن السياسة العباسية جعلت من الإمام وسيلة لتحقيق أهدافها، حتى إذا بلغت ما أرادته نكبت به، كما نكبت بآبائه من قبله، وبأبنائه من بعده.

إن ما فعله هارون الرشيد وأسلافه من قبله بالعلويين من القهر والبطش والإبادة والتشريد، وما تمخض عن ذلك من الثورات العلوية في أطراف البلاد، ومن النقمة العامة على الحكم العباسي حتى قال

أحد الشعراء:

يا ليت ظلم بني مروان دام لنا وكان عدل بني العباس في النار
كما أن الصراع الدامي بين المأمون وأخيه الأمين الذي أسفر عن مقتل الأخير، وانتقال إدارة
الحكم من بغداد العاصمة العباسية إلى منطقة أخرى، واعتماد المأمون على الفرس دون العرب في
إدارة شؤون الحكم، الذي أثار نقمة العباسيين وغضبهم عليه، مضافا إلى شعوره بالنقص لكونه
ابن أمة فارسية وغير ذلك من الأمور^(١).

جعلت من المأمون ابن الرشيد - وكان ذا نباهة وفطنة وحنكة ودهاء - أن يتنبه ويتخذ سياسة
جديدة تخالف في ظاهرها سياسة سلفه، يخدم بها غضب الناقلين، ويحتوي تلك الحركات المناوئة،
ويحقق لحكومته استقرارا سياسيا، ويضمن لسلطته قوة تحميه من العباسيين، فيما لو فكروا في
مناهضته كما يحقق أغراضا أخرى، ليتمتع بسلطة لا يشعر معها باضطراب، كما كان آباؤه
يشعرون بذلك.

وكان الموقف يتطلب منه جرأة في اتخاذ القرار، وحزما في تنفيذه، ومضيا في عزمه.
وأول إجراء اتخذه بعد أن قضى على أخيه الأمين أنه أظهر ميله للعلويين، وكانت هذه البادرة
غريبة لم تعهد من حاكم عباسي، الأمر الذي أثار التوجس عند سائر بني العباس، ودفعهم إلى
الاعتراض بل

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام ص ١٤٩.

إعلانه، ولم يدركوا أن المأمون يسعى بذلك لتوطيد الحكم وتثبيتته عن طريق هذا الإجراء، كما أن فيه توجيه تحذير خفي إلى العباسيين، ومضمونه أن هناك من يعتمد عليهم ويستند إليهم، فيما إذا تخلوا عنه، أو فكروا في القيام بعمل مضاد.

ثم أعقب المأمون ذلك برغبته في استقدام الإمام عليه السلام من المدينة إلى عاصمة الدولة، وقد بعث إليه رجاء بن أبي الضحاك لحمل الإمام عليه السلام وحدد له طريق المسير بأن يكون على طريق البصرة والأهواز ولا يمر به الكوفة، وفي ذلك غرض أخفاه المأمون ولم يفصح عنه على ما كشفت عنه الأبحاث التاريخية التحليلية وأشارت إلى الأسباب والأهداف من وراء استقدام الإمام عليه السلام من المدينة إلى مرو، ومنها الخوف من الرضا عليه السلام لشياع أمره في الحرمين، وانتشار ذكره وإقبال الناس عليه، وغيرها من الأمور التي جعلت المأمون يتخذ قرارا حاسما في الحد من هذا الانتشار، وليكون الإمام عليه السلام تحت رقابة مفروضة صارمة لا يمكنه الإفلات منها، وليتسنى للمأمون أن ينفذ خطته السياسية المبيتة^(١).

حتى إذا وصل الإمام عليه السلام إلى مرو عاصمة المأمون وأظهر العناية والاحتفاء به واستقر به المقام عرض المأمون على الإمام أمر الخلافة، فأبأها الإمام عليه السلام أشد الإباء، وكان الإمام عليه السلام على بصيرة بما يخطط له

(١) للاستزادة يراجع كتاب الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام.

المأمون، وإذا كان الإمام عليه السلام قد أبى الخلافة فإنه لم يكن له بد من قبول ولاية العهد، وقد كشف الإمام عليه السلام سر قبوله لها في حديثه مع الريان بن الصلت الذي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام، فقلت له:

يا بن رسول الله يقولون: إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا، فقال عليه السلام: قد علم الله كراهتي لذلك، فلما خيرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول على القتل ^(١). ومما يدل على علم الإمام عليه السلام بالأعيب المأمون ومخططاته أنه عليه السلام واجه المأمون ببعض الحقيقة حين قال له: وإني لأعلم ما تريد، فقال المأمون: وما أريد؟ قال: الأمان على الصدق، قال: لك الأمان، قال:

تريد بذلك أن يقول الناس: إن علي بن موسى الرضا عليه السلام لم يزهّد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعا في الخلافة، فغضب المأمون ثم قال: إنك تتلقاني أبدا بما أكرهه، وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم لئن قبلت ولاية العهد وإلا أجبرتكم على ذلك، فإن فعلت وإلا ضربت عنقك، فقال الرضا عليه السلام: قد نحاني الله تعالى أن ألقى بيدي إلى التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فافعل ما بدا لك، وأنا أقبل ذلك على أي لا أولي أحدا، ولا أعزل أحدا، ولا أنقض رسما ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيرا، فرضي منه بذلك وجعله ولي عهده على كراهية منه عليه السلام بذلك ^(٢).

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٣٩.

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٤٠.

إن هذا الموقف من الإمام عليّ يدلنا على أنه عالم بأن المأمون يريد أن يحقق أغراضه السياسية، وأهمها إثباته للعباسيين أن بإمكانه أن يعتمد على خصومهم فضلا عن غيرهم. ومما يدلنا على سوء نوايا المأمون وعدم إخلاصه في هذه القضية إكراه الإمام عليّ على القبول وتهديده بالقتل، واكتفائه منه بالقبول الصوري، والتشديد على الإمام عليّ، ورصد جميع تحركاته عليّ ومحاسبتها عليها، مضافا إلى ما سبق هذه القضية وما لحقها من أحداث مما يدل دلالة قاطعة على أن المأمون إنما أراد من هذا الإجراء تحقيق طموحاته السياسية التي لا تتحقق إلا بهذا النحو من التدبير، ولسنا في مقام دراسة هذا الموضوع، ونكتفي بهذه الإشارة التي تدل على أن الإمام عليّ عاش ظروفًا قاسية وأياما صعبة عانى منها الآلام.

ولما كان الإمام عليّ يعلم بقساوة الأيام التي سيعيشها تحت رقابة المأمون في عاصمة ملكه وبما بيته له من مكائد، كان خروجه من مدينة جده صلى الله عليه وآله في حالة من اللوعة والأسى، وقد نعى فيها نفسه.

روى الصدوق بسنده عن مخول السجستاني، قال: لما ورد البريد بإشخاص الرضا عليّ إلى خراسان، كنت أنا بالمدينة، فدخل المسجد ليودع رسول الله صلى الله عليه وآله، فودعه مرارا كل ذلك يرجع إلى القبر ويعلو صوته بالبكاء والنحيب، فتقدمت إليه وسلمت عليه فرد السلام وهنأته، فقال: زرتني، فأني أخرج من جوار جدي صلى الله عليه وآله فأموت في

غربة وأُدفن في جنب هارون (١) ...

وما أفسى أن يخرج الإنسان عن موطنه ويبعد عن أهله وذويه من دون أن يكون له خيار في ذلك، وما أشبه ذلك بالإلقاء في السجن حيث يفرض عليه نمط معين من الحياة، ويرى نفسه مقيدا بالالتزام به، وهو يخالف طبعه وما نشأ عليه.

وإذا كانت السنوات الأخيرة من حياة الإمام الكاظم عليه السلام قد مضت وهو ينقل من سجن إلى سجن، ويعاني من ثقل الحديد، فإن السنوات الأخيرة من حياة ابنه الرضا عليه السلام وإن لم تكبل فيها يده ورجلاه بالأغلال إلا أنه كبل بقيود من نوع آخر، كان يعاني من ثقلها، وليس السجن الذي أودع فيه الرضا عليه السلام بأحسن حالا من السجن الذي أودع فيه الإمام الكاظم عليه السلام.

ثم إن الإمام الرضا عليه السلام لما أراد الخروج من المدينة نظر إلى ولده الإمام الجواد عليه السلام وأقبل به إلى قبر جدّهما رسول الله صلى الله عليه وآله كما يحدث بذلك عليه السلام فيقول: ثم أخذت أبا جعفر - ولم يكن له ولد غيره في أشهر الأقوال وله من العمر سبع سنوات (٢) - فأدخلته المسجد ووضعت يده على حافة القبر وألصقته به، واستحفظته رسول الله صلى الله عليه وآله، فالتفت إلي أبو جعفر عليه السلام فقال لي: بأبي أنت، والله تذهب إلى الله، وأمرت جميع وكلائي وحشمي له بالسمع والطاعة، وترك مخالفته، وعرفتهم أنه القيم مقامي (٣).

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٥١.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٥٠.

ومما يثير الاستغراب أن الإمام الرضا عليه السلام قد أقام العزاء على نفسه قبل مغادرته المدينة، فقد روى الصدوق بسنده عن الحسن بن علي الوشاء، قال: قال لي الرضا عليه السلام: إني حيث أرادوا الخروج بي من المدينة، جمعت عيالي، فأمرتهم أن يبكوا علي حتى أسمع، ثم فرقت فيهم اثني عشر ألف دينار، ثم قلت: أما إني لا أرجع إلى عيالي أبدا ^(١).

ووجه الغرابة أن العادة جرت على أن إقامة العزاء والبكاء إنما هي بعد الموت، فما معنى أن يأمر الإمام الرضا عليه السلام عياله بالبكاء عليه ليسمع بكاءهم؟! مع أنهم علموا بشهادته في يوم وقوعها، فقد روى محمد بن أحمد بن يحيى بسنده عن أمية بن علي قال: كنت بالمدينة، وكنت أختلف إلى أبي جعفر عليه السلام، وأبو الحسن عليه السلام بخراسان، وكان أهل بيته وعمومة أبيه يأتونه ويسلمون عليه، فدعا يوما الجارية فقال:

قولي لهم يتهيأون للمآتم، فلما تفرقوا قالوا: ألا سألناه مآتم من؟ فلما كان من الغد فعل مثل ذلك، فقالوا مآتم من؟ قال: مآتم خير من علي ظهرها، فأتانا خير أبي الحسن بعد ذلك بأيام، فإذا هو قد مات في ذلك اليوم ^(٢).

فهل كان أمر الإمام الرضا عليه السلام عياله بالبكاء عليه لأنه يموت في الغربة بعيدا عن الأهل والوطن؟ أو لأنه كان يريد إشعارهم بأنه لن يعود فلا يأملون في لقائه؟ أو لأنه اعتبر نفسه ميتا فأمرهم بالبكاء لشدة ما سيلاقى من المحن

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) إعلام الوری ج ٢ ص ١٠٠.

والمآسي؟

وعلى أي حال فقد كان أمرا غريبا لم يعهد من أحد من الأئمة عليهم السلام ^(١).
وبعد، فأين كانت السيدة فاطمة المعصومة من هذا كله؟ وما هي حالها وهي ترى شقيقها
يتركها في المدينة وينتقل إلى خراسان حيث الغربية والعناء وفراق الأهل وجوار الرسول
صلى الله عليه وآله وسلم؟ ولو كان الأمر بيده أو بيدها لخرجت معه ولسارت حيث يسير، وعاشت حيث يعيش،
ولكنه خرج مقهورا تاركا عياله وأخواته حتى ابنه الإمام الجواد عليه السلام، الذي كان له من العمر سبع
سنوات ^(٢)، بل أقل من ذلك كما يستفاد مما ذكره الشيخ المفيد رحمه الله حيث قال: ومضى الرضا
علي بن موسى عليه السلام ولم يترك ولدا نعلمه إلا ابنه الإمام بعده أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام
وكانت سنه يوم وفاة أبيه سبع سنين وأشهرها ^(٣).

وكان خروج الإمام الرضا عليه السلام من المدينة سنة ٢٠٠ هـ وشهادته

(١) ورد في أحوال عبد المطلب عليه السلام أنه أمر بذلك قبل أن يموت، فقد ذكروا أنه لما أدركت عبد المطلب الوفاة، بعث
إلى أبي طالب وهو في سكرات الموت ومحمد على صدره، فوصاه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورعايته وأن يحفظه بلسانه وماله
ويده، وقال له: إنه والله سيسودكم ويملك أمركم، ثم أخذ عهدا من أبي طالب، وقال:
الآن هان علي الموت، ثم جعل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على صدره وبكى، وأمر بناته بالبكاء عليه وراثته قبل أن يموت، فجاءت
ست من بناته وأنشدت كل واحدة منهن قصيدة في حقه، إلى أن توفي، وكان عمره الشريف حينذاك مائة وعشرين سنة.

لاحظ منتهى الآمال ج ١ ص ١١٠.

أقول: والفرق بين الأمرين أوضح من أن يذكر.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٥١.

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٢٧١.

سنة ٢٠٣ هـ (١).

وقد اعتصر قلب السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام من الألم ولوعة الفراق، وعلمت من خلال ما جرى أن أخاها لن يعود، وكانت في جملة الباكين عليه، وقد سمع بكاءها وحسرتها على فراقه، ولعله أسر إليها أو علمت من خلال مجرى الأحداث بما سيقدم عليه من آلام ومآسي، ولذا لم تكتف بوداعه بل كما حدثني أحد أساتذتي الأجلاء بأنه سمع أو قرأ في كتاب أنه لما سار ركب الإمام عليه السلام من المدينة صعدت السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام على السطح وبقيت تنظر إلى أخيها وهو يمشي حتى غاب عن عينيها.

وإن هذا الموقف يحمل من الدلالات شيئا كثيرا، ويبين مدى الصلة بين الأخ وشقيقته، كما يدل على مدى أثر لوعتها بفراقه وحزنها عليه.

وليست هذه الصلة الوثيقة بين الشقيقين لمجرد الرابطة النسبية وأنهما يلتقيان في أب واحد وأم واحدة، وإنما هي لما ذكرناه فيما سبق من علمها ومعرفتها عليها السلام بمقام الإمامة المتمثلة في أخيها الإمام الرضا عليه السلام.

إلى الرضا عليه السلام:

وسار الموكب الرضوي يقطع البيد والمفاوز والقفار ميمما نحو

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٤٥١ وص ٤٩٩.

خراسان حيث مركز حكم المأمون وسلطانه، ولم يكن للإمام عليّ مناص من الرحيل عن المدينة، موطن الأهل وحرم الرسول ﷺ، فرحل الإمام عليّ عنها تاركا أهله وعياله وديعة عند جده المصطفى ﷺ.

حتى إذا وصل الموكب إلى مرو ونفذت أولى خطط المأمون من ولاية العهد، وأخذ البيعة وضرب الدراهم والدنانير، ولم يكن الإمام عليّ بذلك مسرورا، فقد أسر إلى بعض أصحابه أن ذلك أمر لا يتم^(١)، وأنه حلقة من سلسلة المخطط الذي يهدف المأمون إلى تنفيذه، وكان ذلك في سنة ٢٠٠ هـ، ومرت الأيام بطيئة ثقيلة لم يلق فيها الإمام عليّ يوم راحة واطمئنان، فقد حقق المأمون من الإمام أغلى أمانيه.

وكان الإمام عليّ وهو في غربته يعاني من فراق أهله وعياله، فقد انقطعت الأخبار فما حال أولئك الثكالي؟ وما حال شقيقته الوحيدة؟

فهي بالأمس تفقد أبها، وهي في زهرة العمر، واليوم ينتزع منها شقيقها ولا ترجو له عودة. ومضى عام على رحيل أخيها عنها فهاجت بما لواعج الحنين والشوق إلى أخيها الغريب، وقد علم الإمام عليّ بحال أخته، فإنها لم تغب عن قلبه، وهو يعلم شدة تعلقها به، فكتب إليها كتابا يطلب منها القدوم عليه، وأعطاه أحد غلمانها، وأمره بالمسير إلى المدينة ولا

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٠٢.

يلوي علي شيء، ولا يقف في طريقه إلا بمقدار الضرورة ليوصل الكتاب في أسرع وقت ممكن، وقد أعلمه الإمام عليّ بالمكان والبيت لئلا يسأل أحدا من الناس.

وأغد الغلام المسير يواصل ليله ونهاره، حتى شارف المدينة، وجاء إلى بيت الإمام عليّ وسلم الكتاب إلى فاطمة المعصومة عليّ (١).

وما إن وقع بصرها على خط الإمام حتى تذكرت أخاها، وما كان له معها من شأن، وكأنه لم يمض عام واحد فحسب، وإنما عشرات الأعوام.

ثم إنها تهيأت للمسير.

وهذا الأمر هو ما نرجحه على القول بأن فاطمة المعصومة عليّ غادرت المدينة من تلقاء نفسها، فإن ذلك يناهز جلاله قدرها، وعظمة شأنها، وسمو نفسها، وإن كان الخطب جليلا، على أنها كانت في حمى ابن أخيها الجواد عليّ، فعلى فرض أن موضوع الكتاب لم يثبت من ناحية تاريخية إلا أنها وهي العاملة بأن ابن أخيها إمام معصوم مفترض الطاعة فلا بد من استئذانه.

على أن التهيؤ بموكب قوامه اثنان وعشرون شخصا من الأخوة وأبنائهم والغلمان (٢) في مسيرها عليّ لم يكن ليتم إلا عن رضا وموافقة

(١) كريمة أهل البيت عليّ ص ٤٩٣ - ٤٩٤.

(٢) سيدة عرش آل محمد ﷺ ص ٧٣. والحياة السياسية للإمام الرضا عليّ ص ٤٢٨.

وإذن .

ولذا فإننا وإن لم يثبت لنا الأمر من ناحية تاريخية - وما أكثر ما ضاع من الأحداث والوقائع وحل محلها الزيف والبهتان - إلا أننا بملاحظة حال السيدة فاطمة وشأنها ومكانتها في العلم والمعرفة لا نقبل بل لا نتوهم أنها خرجت من تلقاء نفسها مجرد أنها رغبت في لقاء أخيها، فإذا ذلك يتنافى مع ما علمناه من مقامها .

وهي وإن كانت على موعد مع مدينة قم وأهلها الذين سيسعدون بها، وسينفتح لهم باب من أبواب الجنة، وستكون فاطمة المعصومة عليها السلام سيدة هذه البلدة الطيبة، وهو السر الخفي الذي يحدو بها للمسير - وسيوفيك الحديث في ذلك - إلا أن جلاله قدرها وعظمة شأنها تقتضيان أن يكون خروجها مرعياً بنظر المعصوم عليه السلام .

هذا، وقد ذكرت المصادر أنها لما أزمعت الرحيل إلى لقاء أخيها في طوس، أعدت للسفر عدته، وتهيأ ركب قوامه اثنان وعشرون شخصاً ضم بعض إخوتها، وبعض أبنائهم وغلماهم، وساروا يقطعون البید والقفار واتخذوا من الطريق المؤدي إلى قم مساراً لهم إلى طوس .

وفي الوقت نفسه تهيأ ركب آخر من بقية إخوتها ومن انضم إليهم، وخرجوا قاصدين إلى طوس حيث الإمام الرضا عليه السلام، فقد ذكروا أن الإمام الرضا عليه السلام قد استأذن المأمون في قدومهم، وكان قوام هذا الركب ثلاثة آلاف شخص، فقد التحق بهم عدد كبير من بني أعمامهم

وأولادهم وأقاربهم ومواليهم، كما التحق بهم في مسيرهم أعداد كبيرة من الشيعة رجالا ونساء حتى بلغوا قريبا من خمسة عشر ألف شخص (١).

وقد اختاروا المسير عن طريق شيراز وكان في طليعة هذا الركب أحمد ومُجَد والحسين أبناء الإمام الكاظم عليه السلام (٢).

وقد بلغت أبناء هذا التحرك إلى المأمون فأثار في نفسه التوجس فإن عددا ضخما كهذا العدد لا بد وأن يثير في نفسه تحوفا وتحميا، ولا سيما أنه يعلم أن الإمام الكاظم عليه السلام ذهب ضحية غدر أبيه هارون الرشيد، ولم تمض مدة كافية ينسى هؤلاء المشكولون فقد أبيهم، وما خلفه موته من أحزان وآلام، ولا شك أن هؤلاء يعلمون أن ما اتخذ المأمون من تدابير سياسية - على خلاف ما هو المعهود والمألوف من بني العباس من الفتك والبطش بالعلويين - ما هي إلا مجرد تغطية واحتواء للأزمة الخانقة آنذاك.

على أن وصول الركب العلوي بهذا العدد إلى عاصمة الحكم قد يشكل خطرا على سياسة الحكم، ويفشل الخطط المرسومة، ولذا ما إن وصل الركب إلى أطراف شيراز حتى أوعز المأمون إلى ولاته بصددهم ومنعهم عن المسير وإرجاعهم إلى المدينة (٣).

(١) سيدة عرش آل مُجَد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ص ٦٩.

(٢) سيدة عرش آل مُجَد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ص ٧١.

(٣) سيدة عرش آل مُجَد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ص ٦٩ - ٧٠.

وما راعهم إلا أربعون ألف شخص من جنود بني العباس تحت إمرة والي شيراز يقطعون الطريق عليهم، وهم على مقربة من شيراز، ودخل الطرفان في معركة دامية أسفرت عن انكسار الوالي وجنوده، فلجؤا إلى الحيلة فأشاعوا فيهم أنه إذا كان الغرض الوصول إلى لقاء الرضا فإن الرضا قد مات، الأمر الذي قد أدى إلى زعزعة أفراد هذا الركب وتشتت شملهم وتفرقهم في أطراف البلاد^(١). وهذه القضية تكشف لنا سرا من أسرار التاريخ، فإن من المعروف انتشار قبور العلويين في بلدان إيران المختلفة، وقد أشرنا إلى ذلك في مطلع هذا البحث.

وإن انتشار هذه المراقد الطاهرة في مختلف القرى والمدن مما يثير الالتفات، إذ لا تكاد تخلو مدينة أو قرية من قبر أو أكثر للعلويين حتى أن بعضهم شكك في مصداقية ذلك، وادعى أن ذلك من فعل الناس وبمرور الزمن وتوارث الأجيال تقديس هذه المواضع وقصدها واللجوء إليها واقتران ذلك بأهل البيت عليهم السلام أصبح عند المتأخرين أن هذه القبور لأبناء الأئمة عليهم السلام، وإلا فقد تكون هذه القبور لأناس عاديين، ماتوا ودفنوا في هذه الأماكن من دون أن يكونوا من أهل البيت عليهم السلام فضلا عن أن يكون لهم شأن.

ولكن بالوقوف على قضايا التاريخ، وما جرى في تلك الحقبة من

(١) سيدة عش آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ص ٧٠ - ٧١.

الزمن في عهد حكام بني العباس، وتتبعهم لبني هاشم، ومحاولة استتصاهم والحوادث الدامية التي جرت عليهم، والرعب والتشريد والملاحقة تكفي للاطمئنان بأن انتشار هذه القبور في أطراف القرى والمدن أمر لا يبعد تصديقه، والأحداث ومجرياتها تؤيده.

على أننا نقول إنه ليس كل هؤلاء أولاد الأئمة عليهم السلام لأصلاهم، بل قد يكون بعضهم أحفادا وأبناء أحفاد، أو أسباطا وأبناء أسباط.

ثم إننا لا نستبعد أن تكون هناك عنايات إلهية خفية كانت وراء إظهار هذه القبور، ولو بعد عشرات السنين، فإن أهلها فروع من الشجرة الطيبة.

ومما يؤيد ذلك ما ورد في كتب الرجال في ترجمة السيد عبد العظيم الحسيني - وهو من أصحاب الهادي والعسكري عليهما السلام - وبيان بعض أحواله، فقد روى النجاشي في كتابه بسنده عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي قال: كان عبد العظيم ورد الري هاربا من السلطان، وسكن سربا في دار رجل من الشيعة في سكة الموالي، فكان يعبد الله في ذلك السرب، ويصوم نهاره، ويقوم ليله، فكان يخرج مستترا فيزور القبر المقابل قبره، وبينهما الطريق، ويقول: هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر عليه السلام، فلم يزل يأوي إلى ذلك السرب ويقع خبره إلى الواحد بعد الواحد من شيعة آل محمد عليهم السلام حتى عرفه أكثرهم، فرأى رجل من الشيعة في المنام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: إن رجلا من ولدي يحمل

من سكة الموالي ويدفن عند شجرة التفاح في باغ عبد الجبار بن عبد الوهاب، وأشار إلى المكان الذي دفن فيه، فذهب الرجل ليشتري الشجرة ومكانها من صاحبها، فقال له: لأي شيء تطلب الشجرة ومكانها؟ فأخبره بالرؤيا، فذكر صاحب الشجرة أنه كان رأى مثل هذه الرؤيا، وأنه قد جعل موضع الشجرة مع جميع (الباغ) وقفاً على الشريف، والشيعة يدفنون فيه، فمرض عبد العظيم ومات رحمة الله عليه، فلما جرد ليغسل وجد في جيبه رقعة فيها ذكر نسبه فإذا فيها: أنا أبو القاسم عبد العظيم بن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١).

وأضف إلى ذلك ما شاهده الناس من آثار البركات واستجابة الدعوات وقضاء الحوائج عند هذه المراقد الشريفة، وذلك مما يؤكد هذه الحقيقة.

وهذا الموضوع حري بدراسة مستوعبة يكشف فيها النقاب عن جانب من جوانب تاريخ سلالات الأئمة عليهم السلام، ومواطن قبورهم في مكة والمدينة وأطرافهما والعراق والشام واليمن ومصر وبلاد المغرب العربي وإيران وغيرها من الأماكن، وأسأل الله أن يقيض لهذه المهمة الكبيرة من يتصدى للقيام بها.

هذا، ولكن ذكر بعض المحققين في قضايا التاريخ أن الركب العلوي

(١) رجال النجاشي ج ٢ ص ٦٦ - ٦٧.

إنما خرج بعد ما بلغه أن المأمون العباسي قد غدر بالإمام الرضا عليه السلام، وكان خروجه من أجل الطلب بالثأر.

يقول السيد العاملي: كما أن بعض المصادر التاريخية تذكر أن أحمد بن موسى أخا الإمام الرضا لما بلغه غدر المأمون بأخيه الرضا، وكان آنذاك في بغداد خرج من بغداد للطلب بثأر أخيه، وكان معه ثلاثة آلاف من العلوية، وقيل: اثنا عشر ألفا... وبعد وقائع جرت بينه وبين (قتلغ خان) الذي أمره المأمون فيهم بأمره، والذي كان عاملا للمأمون على شيراز... استشهد أصحابه واستشهد هو وأخوه محمد العابد أيضا... ثم نقل السيد العاملي عن أحد الكتاب قوله: إن كثيرا من العلويين قد قصدوا خراسان أيام تولي الإمام العهد من المأمون، لكن أكثرهم لم يصل، وذلك بسبب استشهاد الإمام عليه السلام وأمر المأمون الحكام وأمراء البلاد بقتل أو القبض على كل علوي ^(١).

وهذا يناهني ما نقلناه من أن الركب إنما خرج من أجل لقاء الإمام عليه السلام وليس طلبا للثأر. وعلى أي حال فإن ذلك يؤكد ما ذكرناه من انتشار قبور السادة العلويين في مدن وقرى إيران المتناحية الأطراف وسيأتي ما يعزز ذلك أيضا.

وأما ركب السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام فقد اتخذ طريق قم كما أسلفنا، ولكن ما إن وصل إلى ساوة - وهي بلدة لا تبعد كثيرا عن قم -

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

حتى حوَصر الركب فقتل وشرد كل من فيه، وجرحوا هارون أخا الإمام الرضا عليه السلام، ثم هجموا عليه وهو يتناول الطعام ^(١) فقتلوه.

وكان ذلك كله بمراًى من السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام فقد شاهدت مقتل إخوتها وأبنائهم، ورأت تشرد من بقي منهم، فماذا سيكون حالها آنذاك؟ واكتفى بعض المؤرخين بالقول إنها مرضت، فسألت عن المسافة بينها وبين قم فقبل لها عشرة فراسخ، فأمرت خادماً لها أن يحملها إلى قم، ومكثت في قم في منزل موسى بن خزرج الأشعري سبعة عشر يوماً ثم ماتت ^(٢).

وذكر آخرون إنها قد دس إليها السم في ساوة، ولم تلبث إلا أياماً قليلة واستشهدت ^(٣). واختلفوا أيضاً في أن ما جرى على هذا الركب من المآسي والقتل والتشريد هل كان بإيعاز من المأمون إلى شرطته وأمره بمحاصرة الركب وقتل رجاله وتشريدهم؟ أو أن أهل ساوة الذين كانوا آنذاك من أشد الناس عداوة لأهل البيت عليهم السلام، فلما وصل الركب إلى ساوة حاصره أهلها، ثم حملوا عليه ووقعت معركة دامية قتل فيها أخوة السيدة فاطمة وأبنائهم وتشرد من بقي منهم، ولما شاهدت السيدة فاطمة إخوتها وأبناءهم صرعى وقد قطعت أجسادهم أصابها الحزن

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٤٣٥.

(٢) تاريخ قم ص ٢١٣.

(٣) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام ص ٤٢٨.

الشديد وضعفت قواها وعلى أثر ذلك اشتد بها المرض؟^(١) ولا نملك السند التاريخي لترجيح أحد القولين، وبناء على أن الجمع أولى من الطرح وصحة تطبيقه في المقام فيمكن أن يقال بأنه لا تنافي بين الأمرين، وكلا الطرفين قد اشترك في إحداث هذه الفاجعة، وساهم في القضاء على هذا الموكب بمن فيه.

ولعل ما يؤيد ذلك انحراف أهل ساوة عن أهل البيت عليهم السلام، على ما ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان حيث قال: ساوة مدينة حسنة بين الري وهمدان في وسط بينهما، وبين كل واحد من همدان والري ثلاثون فرسخا، وبقرها مدينة يقال لها آوه، فساوة سنية شافعية، وآوة أهلها شيعة إمامية وبينهما نحو فرسخين ولا يزال يقع بينهما عصبية وما زالتا معمرتين إلى سنة ٦١٧...^(٢).
ومن الطبيعي أن العصبية - ولا سيما العصبية المذهبية - تدعو إلى العداء، وهو قد يجر إلى سفك الدماء، وقد كانت الظروف آنذاك وسياسة الحكام يوم ذاك إنما تقوم على تأجيج نار العصبية وإلقاء الفتنة بين الناس تفريقا لكلمتهم وعملا بالمقولة المشهورة « فرق تسد ».
وأما ما ذكره بعض الباحثين من قضية دس السم للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام فهي وإن كنا لا نملك دليلا قاطعا على وقوعها أو عدمه إلا أننا لا ننفي ذلك، نظرا إلى أن السم كان أحد أمضى الأسلحة الفتاكة

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام ص ٤٢٨ وكرامة أهل البيت عليهم السلام ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠١.

التي كان العباسيون يستخدمونها ضد مناوئهم، وكم لهم من قتييل ذهب ضحية شربة من سم دسها بنو العباس، وكان أكثر ضحاياهم من آل أبي طالب عليه السلام، حتى أن ستة من أئمة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام قد استشهدوا عن هذا الطريق.

ولذا فإننا لا نستبعد وقوع هذه الحادثة - وإن كانت تفتقر إلى السند التاريخي كما هو مقتضى الصناعة -، إذ لم يكن ثمة ما يحول بينهم وبين الفتك بمن يتوهمون فيه أن وجوده يشكل خطرا يتهدد دوام حكمهم وسلطتهم ومصالحهم، وأي حاجز كان يمنعهم وهم الذين قتلوا الأطفال والشيوخ ووضعوا أجسادهم في أساس البنيان، ودفنوا بعضهم أحياء، وسلبوا النساء، وفعلوا ببني عمهم ما لا يخطر على بال، حتى أنه لو أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقتل ذريته وتشريد عترته لما زادوا على ما صنعوا بهم.

وقد أعترف المأمون نفسه بفضاعة ما ارتكب العباسيون من جرائم الإبادة في حق بني علي وفاطمة عليهما السلام، وأن بني أمية برغم بشاعة ما اقترفوا كانوا أخف وطأة على العلويين منهم، فقال يخاطب بني العباس: ويحكم إن بني أمية إنما قتلوا منهم من سل سيفنا، وأنا معشر بني العباس قتلناهم جملا، فلتسألن أعظم الهاشمية بأي ذنب قتلت؟

ولتسألن نفوس ألقيت في دجلة والفرات؟ ونفوس دفنت ببغداد

والكوفة أحياء؟... (١) .

وعلى أي حال فقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام مريرة مؤلمة عانت فيها آلاما في الروح وآلاما في الجسد حتى آذنت شمسها بالمغيب .

في قم:

ورحلت السيدة المعصومة عليها السلام من ساوة وهي مثقلة بالهموم والآلام والأحزان ميمنة نحو قم، وكانت على موعد مع هذه البلدة الطيبة، والتي ستزداد مكانتها رفعة وشأنا وشرفا يوم تطأ أرضها قدما السيدة فاطمة عليها السلام، ولنا حديث حول قم وتاريخها سيأتي في موضعه .
لقد علمت السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام بأنها المعنية في ما ورد عن جدها الإمام الصادق عليه السلام يوم قال... وإن لنا حرما وهو بلدة قم وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمى فاطمة فمن زارها وجبت له الجنة .

وذكر الرواة أن الإمام عليه السلام قد حدث بذلك قبل ولادة الإمام الكاظم عليه السلام (٢) .
وعلمت السيدة فاطمة عليها السلام بقرب رحيلها عن الدنيا، وأنها لن تلبث إلا أياما قليلة، كما علمت أن مواصلة المسير إلى طوس أصبح عسيرا

(١) الطرائف ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

بعد أن فقدت إخوتها وأبناءهم قتلا وتشريداً، ولم تكن أرض ساوة ولا أهلها آنذاك أهلاً لاستضافتها، ومن أجل ذلك كان لا بد أن ترحل عن ساوة إلى قم، فأمرت خادمها أن يحملها إليها.

ولما بلغ أهل قم نبأ قرب وصولها خرج الأشراف لاستقبالها، ولعلمهم كانوا يعلمون بما حدث به الإمام الصادق عليه السلام، وأن هذه المرأة الجليلة هي التي وعدوا بها، وكان في طبيعة مستقبلها موسى بن خنيزر بن سعد الأشعري، فلما وصل إليها أخذ بزمام ناقتها، وجرها إلى منزله وكانت في داره سبعة عشر يوماً ^(١).

ولا زال موضع المنزل ماثلاً إلى اليوم، حيث أصبح مدرسة علمية ومسكناً لطلاب العلوم الدينية في قم، وقد اتخذت من بيته موضعاً جعلته محراباً لها تصلي فيه. يقول الشيخ المحدث القمي: والمحراب الذي كانت فاطمة عليها السلام تصلي فيه موجود إلى الآن في دار موسى ويزوره الناس.

وما يزال هذا المحراب المبارك موجوداً إلى يومنا هذا ويقع في محله (ميدان مير) ومعروف بـ (ستية) والتي بمعنى السيدة ^(٢).

لقد كانت السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام تأمل في أن تحظى بلقاء شقيقها الرضا عليه السلام، لتطفئ لواعج الشوق والحنين، وتروي ظمأ الفؤاد، وكانت تغذ السير نحو طوس لا تلوي على شيء... ولكنها الأقدار

(١) تاريخ قم ص ٢١٣.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٧٩.

الإلهية ومشيتة الخالق الحكيم، وليس إلا التسليم والرضا بما شاء وأراد.

أقول الشمس وبزوغها:

ومرت أيام بطيئة ثقيلة وما أصعب الانتظار.

لقد كانت تشعر بدنو رحيلها عن هذه الدنيا الزائفة، وكانت تستعجل الأيام، فليس وراء لقاء الله ولقاء الآباء والأجداد مطمع، وليس بين عالم نوري علوي وآخر مظلم سفلي قياس.. هكذا كانت السيدة فاطمة في أيامها الأخيرة.

ولئن لم تحظ بلقاء أخيها مذ غاب عنها، وكان لقاءه من أعلى الأماني، ولكن لن يطول غيابها، وعمما قريب سيرحل هو الآخر إليها في عالم غير هذا العالم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فما خلق أهل البيت للدنيا ولم تخلق الدنيا لهم، وإنما جاؤوا إلى الدنيا ليكونوا منائر هداية، وعلائم حق، ومنابع فيض، وسحائب غيث، ومهابط رحمة، ومصادر علم ومعرفة.

ولئن أعرض أبناء الدنيا عنهم وما عرفوا لهم قدرا فلحظهم ضيعوا ولبنياتهم خربوا، ولآخرتهم أفسدوا، وما كان ذلك يضير بشأن أهل البيت ﷺ ومكانتهم، فإنهم آل الله وأهل بيت النبي ﷺ وعند الساعة يخسر المبطلون.

ولئن جرت الدواهي عليهم تشتت شملهم وتفرقهم في أطراف البلدان، وكان ذلك عند الله عظيماً، ولكن لعل في ذلك سرا خفياً حيث تكون مراقدهم الشريفة مواطن الرحمة، والخير والبركة، يلجأ إليها العاني، ويقصدها المحتاج، ويلوذ بها المضطر.

وهكذا كانت كريمة أهل البيت عليهم السلام السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام فقد شاءت المقادير الإلهية أن ترحل عن هذه الدنيا في بلدة نائية عن موطن الآباء والأجداد لتكون باباً من أبواب الرحمة إلى العباد، وملاذا يؤمها ذوي الحاجة والاضطرار، وسبباً من أسباب اللطف الإلهي للمؤمنين والأخيار.

وأسلمت روحها إلى بارئها راضية مرضية، ولم يتجاوز عمرها الشريف - على أقصى التقادير - الثلاثين ربيعاً، وكان ليوم موتها شأن عظيم.

وما أفلت تلك الشمس التي أطلت على مدينة قم بعد سبعة عشر يوماً من دخولها إليها إلا لتشرق من جديد، وليكون مثواها موثلاً وملاذا ومطافاً، وتصيح السيدة فاطمة علامة تحول في تاريخ هذه البلدة وأهلها، ويكون حرمها مصدر خير وبركة لهم ولمن يقصدها من سائر البلدان من شتى بقاع الأرض، منذ يوم وفاتها وإلى يوم الناس هذا.

وذكر بعض الرواة أنها لما توفيت أمر موسى بتغسيلها وتكفينها

وصلى عليها ودفنها في أرض كانت له، وهي الآن روضتها^(١).
وذكر آخرون أنه لما توفيت فاطمة عليها السلام وغسلت وكفنت حملوها إلى مقبرة (بابلان) ووضعوها
على سرداب حفر لها، فاختلف آل سعد في من ينزلها إلى السرداب، ثم اتفقوا على خادم لهم
صالح كبير السن، يقال له (قادر).

فلما بعثوا إليه رأوا راكبين مقبلين من جانب الرملة وعليهما لثام، فلما قربا من الجنازة نزلا
وصليا عليها ثم نزلا السرداب وأنزلا الجنازة ودفناها فيه ثم خرجا، ولم يكلم أحدا وركبا ولم يدر
أحد من هما...^(٢).

واعتقد بعض الباحثين أن هذين الراكبين هما الإمامان المعصومان الرضا والجواد عليهما السلام، جاء
ليتوليا أمر الصلاة عليها وإنزالها في قبرها ودفنها، وكان حضورهما عن طريق الإعجاز، وقد طويت
لهما الأرض من خراسان حيث كان الإمام الرضا عليه السلام، ومن المدينة حيث كان الإمام الجواد
عليه السلام.^(٣)

واستشهد الباحث بحضور الإمام الكاظم عليه السلام من المدينة إلى نيشابور ليصلي على جنازة امرأة
من شيعته تدعى شطيطة في قصة طويلة ذكرها الرواة، وفي آخرها قال الإمام عليه السلام: إنني ومن
جري مجراي من أهل البيت لا بد لنا من حضور جنازكم في أي بلد كنتم،

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٢) تاريخ قم ص ٢١٣ وبحار الأنوار ج ٤٨ ص ٢٩٠.

(٣) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٣٨.

فاتقوا الله في أنفسكم وأحسنوا الأعمال لتعينونا على خلاصكم وفك رقابكم من النار (١).
أقول: ومما يؤيد ما ذكره الباحث أن للأئمة عليهم السلام مقامات شامخة، قصرت عقول الناس عن
أن تحوم حولها فضلا عن أن تدرك كنهها، فهم المجالي النامة لعظمة الله وقدرته وسلطانه، ومنحهم
الولاية التكوينية المطلقة يتصرفون بها في هذا الكون بما تقتضيه الحكمة والمصلحة وهم الترجمة
العملية للقرآن الكريم.

يقول سيدنا الأستاذ آية الله الحجة السيد محمد الرجائي دام ظله في كتابه المنهج القويم: الرابع:

قال الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتَى) (٢).

قيل: جواب « لو » محذوف، أي: كان هذا القرآن. فإذا كان صدر النبي صلى الله عليه وآله والإمام
المعصوم عليه السلام قرآنا، فهم قادرون على تسيير الجبال، وتكليم الموتى، وتقطيع الأرض، ويحتمل أن
تكون القدرة على المذكورات بعض ما يكون من الآثار للقرآن، ويكون المراد القدرة على كل
تصرف في الكون، فإذا كان صدر النبي صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام قرآنا كذلك، فلهم التصرف
كذلك، ويسمى ذلك بالولاية التكوينية.

والنبي صلى الله عليه وآله يقدر على الإتيان بالمعجزات من رد الشمس وشق القمر على ما روي وغيرهما،
وفي القرآن ذكر بعض من له بعض الولاية

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) سورة الرعد الآية ٣١.

التكوينية، فقال عز من قائل: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ) الآيات فأحضر عرش المرأة التي حكى الله تعالى عنها في كتابه، وكان عنده علم بعض الكتاب على ما يقتضيه كلمة من، فكيف بمن كان عنده علم الكتاب كله... (١).

واستشهد سيدنا الأستاذ - على هامش ما ذكره - بما رواه الكليني في الكافي بإسناده عن أبي الحسن الأول عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك أخبرني عن النبي صلى الله عليه وآله ورث النبيين كلهم؟ قال: نعم، قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه؟ قال: ما بعث الله نبيا إلا ومحمد صلى الله عليه وآله أعلم منه، قال: قلت: إن عيسى بن مريم كان يحيي الموتى بإذن الله.

قال: صدقت، وسليمان بن داود كان يفهم منطق الطير، وكان رسول الله يقدر على هذه المنازل، قال: فقال: إن سليمان بن داود قال للهدد حين فقده وشك في أمره: (فَقَالَ مَا لِي لَأَأْرَى أَلْهُدَى أَمْ كَأَنَّ مِنَ الْعَائِيَيْنِ) (٢) حين فقده فغضب عليه، فقال: (لَأُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنَّيَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) (٣). وإنما غضب لأنه كان يدلله على الماء. فهذا وهو طائر قد أعطي ما لم يعط سليمان، وقد كانت الريح والنمل والإنس والجن والشياطين [و] المردة له طائعين، ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء، وكان الطير يعرفه. وإن الله يقول في كتابه

(١) المنهج القويم في إثبات الإمامة من الذكر الحكيم ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) سورة النمل الآية ٢٠.

(٣) سورة النمل الآية ٢١.

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى) (١).

وقد ورثنا نحن هذا القرآن الذي فيه ما تسير به الجبال، وتقطع به البلدان، وتحيى به الموتى، ونحن نعرف الماء تحت الهواء، وإن في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر إلا أن يأذن الله به، مع ما قد يأذن الله مما كتبه الماضون جعله الله لنا في أم الكتاب إن الله يقول: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (٢) ثم قال: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) (٣) فنحن الذين اصطفانا الله عز وجل وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء (٤).

وبعد، فليس من البعيد حضور الإمامين المعصومين عليه السلام إلى قم للصلاة على جنازة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، فإنها أهل لذلك، وقد حفظ الرواة لنا نظير ذلك، كما في حضور أمير المؤمنين عليه السلام إلى المدائن يوم وفاة سلمان، وكذا حضور الإمام الكاظم عليه السلام إلى نيشابور كما ذكرنا، وغيرهما من الحوادث المشاهدة.

وبملاحظة ما تقدم من الإشارة إلى مقام السيدة فاطمة عليها السلام الشامخ ومنزلتها العالية عند

الأئمة عليهم السلام حتى أشاد ثلاثة من المعصومين عليهم السلام

(١) سورة الرعد الآية ٣١.

(٢) سورة النمل الآية ٧٥.

(٣) سورة فاطر الآية ٣٢.

(٤) الأصول من الكافي ج ١ باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم الحديث ٧ ص

٢٢٦ والمنهج القويم في إثبات الإمامة من الذكر الحكيم ص ١٩٣ - ١٩٤.

بمكانتها، وبما ذكرناه من القول بعصمتها لا يبقى بعد ذلك مجال للتشكيك، ولا غرو في ذلك فإن لها عند الله شأننا من الشأن.

تاريخ الوفاة:

لم يرد في شيء من الروايات تاريخ اليوم أو الشهر الذي رحلت فيه السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام عن الدنيا، وإنما ورد ذكر السنة فقط، فقد جاء في تاريخ قم أنه لما أخرج المأمون الرضا عليه السلام من المدينة إلى مرو لولاية العهد في سنة مائتين من الهجرة خرجت فاطمة أخته تقصده في سنة إحدى ومائتين، فلما وصلت إلى ساوة مرضت ^(١)...

وتقدم أنها مكثت في قم سبعة عشر يوماً في منزل موسى بن خزرج بن سعد الأشعري. وأما تاريخ اليوم أو الشهر فلم يذكر.

وقد اختلفت الأقوال في تحديدهما، وذكر أحد الباحثين ^(٢) أنها ثلاثة:

القول الأول: العاشر من ربيع الثاني، وهو المنقول عن كتابي نزهة الأبرار في نسب أولاد الأئمة الأطهار للسيد موسى البرزنجي الشافعي المدني، ولواقع الأنوار في طبقات الأخيار، لعبد الوهاب الشعراي الشافعي.

القول الثاني: الثاني عشر من ربيع الثاني، وهو المذكور في كتاب

(١) تاريخ قم ص ٢١٣.

(٢) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ١٠٥ - ١٠٦.

مستدرك سفينة البحار للشيخ النمازي.

القول الثالث: الثامن من شهر شعبان، وهو المنقول عن كتاب العربية العلوية واللغة المروية، للمحدث الحر العاملي.

وقد رجح بعض الباحثين القول الأول لا اعتمادا على المصدرين المذكورين، وإنما لبعض القرائن والشواهد، وذكر واحدة منها، قد لا تكون موجبة للترجيح عند غيره^(١).

وعلى أي تقدير فقد اختلف في سنة ولادتها كما تقدم فضلا عن اليوم والشهر وما أكثر الاختلافات في التاريخ، وحسبك أن تعلم أن المسلمين اختلفوا في يوم ميلاد النبي الأعظم ﷺ، ويوم وفاته، فكيف بأهل بيته ﷺ!!

على أن أسباب الاختلاف كثيرة يوم ذاك، فليس من العجيب أن يهمل ذكر اليوم أو الشهر أو السنة التي ولدت فيه السيدة فاطمة ﷺ، وكذا اليوم أو الشهر الذي رحلت فيه، ولولا أن ذكر السيدة فاطمة المعصومة ﷺ قد اقترن بقضية إخراج الإمام الرضا ﷺ من المدينة لأهمل ذكر السنة التي توفيت فيها أيضا، كما أهمل ذكر السنة التي ولدت فيها، إذ لم يكن ثمة مؤرخ يعنى بتسجيل الأحداث وضبطها كما وقعت، وإذا كان هناك من يؤرخ فإنما هو لتسجيل أمور تافهة وحقيرة - كما يقول السيد العاملي - فيسهب في وصف مجلس شراب أو منادمة

(١) كريمة أهل البيت ﷺ ص ١٠٩ - ١١٠.

حتى لا يفوته شئ منه، أو يختلق ويفتعل أحداثا لم يكن لها وجود إلا في عالم الخيالات والأوهام، أو يتكلم عن أشخاص لم يكن لهم شأن يذكر بل قد لا يكون لهم وجود أصلا... بينما نراه في نفس الوقت يهمل بالكلية شخصيات لها مكانتها وخطرها في التاريخ، أو يحاول تجاهل الدور الذي لعبته فيه، ويهمل ويشوه أحداثا ذات أهمية كبرى صدرت من الحاكم نفسه أو من غيره، ومن بينها ما كان له دور هام في حياة الأمة ومستقبلها، وأثر كبير في تغيير مسيرة التاريخ، أو يحيطها - لسبب أو لآخر - بستار من الكتمان والإبهام^(١).

(١) الحياة السياسية للإمام الرضا عليه السلام ص ١٤.

الحرم الشريف

يقع حرم السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام في قلب المدينة المقدسة قم، على مساحة واسعة من الأرض تقدر بثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة وسبعة وعشرين متراً مربعاً كما جاء في بعض التحقيقات^(١)، وتحيط به معاهد العلم وأماكن العبادة، فيتصل به من جهة الشمال مسجدان، أحدهما يعرف بمسجد (بالأسر) أي فوق الرأس، والآخر هو المسجد الكبير المعروف بالمسجد الأعظم، الذي تميز منذ تأسيسه عام ١٣٧٣ هـ بأمر المرجع الديني الكبير زعيم الشيعة الإمامية آية الله العظمى السيد البروجردي (قدس سره)، وتحت إشرافه، إلى يومنا هذا، - إضافة إلى إقامة الجماعات فيه - بأنه معهد للدراسات الدينية العليا، وملتقى الآلاف من الطلاب في موسم الدراسة من مختلف أنحاء العالم، حيث يتلقون العلم في الأصول والفقه والتفسير والحديث والرجال. ويعد اليوم أكبر مجمع علمي يضم أكبر عدد من الطلاب يقصدونه صباحاً ومساءً، حيث تلقى فيه الدروس بانتظام على مدى تسعة أشهر

(١) مجلة الهادي - العدد الثاني من السنة الثانية ذو القعدة ١٣٩٢ هـ - ص ١٠٩.

من السنة تقريبا هي موسم الدراسة من كل عام.

وقد شيد المسجد الأعظم على مساحة من الأرض تقدر بأحد عشر ألف متر مربع، تقوم فوقه قبة عظيمة مزينة بالكاشي من الداخل والخارج، لعلها أعظم قبة في إيران، وله مئذنتان عظيمتان هما أعلى مئذنتين في قم، ومئذنتان صغيرتان وبناء لساعة كبيرة، وقد أنفق على بنائه وبناء سائر مرافقه أكثر من سبعة ملايين توماناً^(١).

وينفتح الحرم الشريف من جهته الجنوبية على فناء واسع يعرف بالصحن الكبير يحوطه سور له أربعة أبواب، ويحوي في أطرافه الثلاثة عددا كبيرا من الحجرات هي أشبه شئ بالفصول الدراسية، حيث تلقى فيها الدروس المختلفة، كما أنها تضم عددا كبيرا من قبور العلماء والمؤمنين.

وأما من جهة الغرب فيتصل به مسجدان أو ثلاثة تمتلئ بحلقات الدروس أيضا، والتي لا تنقطع صباحا ومساء إلا في أوقات الصلاة، حيث تقام فيها الجماعات.

وأما من جهة الشرق فتتصل به مدرستان كبيرتان - الفيضية ودار الشفاء - تشتملان على عدد كبير من الغرف يسكن الطلاب ببعضها، ويدرسون في بعضها الآخر.

ويتوسط بين الحرم وبينهما فناء يعرف بالصحن الصغير، له - من

(١) مجلة الهادي - العدد الثاني من السنة الثانية ذو القعدة ١٣٩٢ هـ - ص ١٠٩.

جهته الجنوبية - مدخلان ينفتحان على الصحن الكبير، ومدخلان - من جهته الشمالية -
ينفتحان على ساحة المسجد الأعظم، وفي زواياه وجهته الشرقية عدد من الغرف.
وأما جهته الغربية ففيها الإيوان الذهبي الذي يتصل بالرواق المتصل بالضريح المقدس.
وإنك لتجد هذا الحرم المقدس كل يوم من قبل طلوع الفجر وإلى ما بعد منتصف الليل في
حركة دائبة مستمرة، والناس يغدون ويروحون بين متعبد، وزائر، ومصل، وقارئ للقرآن، وطالب
علم.

لذلك كان هذا الحرم الشريف قلب هذه المدينة النابض، ومعلمها البارز، ومهوى الأفتدة.
ويضم الحرم الشريف عددا كبيرا من قبور العلماء والأولياء والصالحين، دفن أصحابها بجوار
السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، كما دفن في داخل الحرم عدد من العلويات وغيرهن، وكانت
قبورهن متميزة تحت قبتين، وأما اليوم فيضمهن ضريح واحد تحت قبة واحدة، ولا يتميز من تلك
القبور إلا مرقد السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام وقد وضع عليه صندوق خشبي.
وذكر صاحب تاريخ قم أن القبة الأولى تضم قبر السيدة المعصومة عليها السلام، وقبر أم محمد بنت
موسى أخت محمد بن موسى عليه السلام، وقبر أم إسحاق جارية محمد بن موسى، وتضم القبة الثانية قبر
أم

حبيب جارية أبي علي مُجَّد بن أحمد بن الرضا عليه السلام، وكانت هذه الجارية هي والدة أم كلثوم بنت مُجَّد، وقبر أم موسى بنت علي الكوكبي، وقبر ميمونة بنت موسى أخت مُجَّد بن موسى عليه السلام (١).

وقال المحدث القمي في منتهى الآمال: واعلم أنه دفن جمع من البنات الفاطميات والسادات الرضوية في بقعة فاطمة عليها السلام، كزينب، وأم مُجَّد، وميمونة بنات الإمام الجواد عليه السلام، ورأيت في نسخة من أنساب المجدي أن ميمونة بنت موسى بن جعفر عليه السلام دفنت مع فاطمة المعصومة عليها السلام، ومن المدفونين أيضا بريهة بنت موسى المرقع، وأم إسحاق جارية مُجَّد بن موسى، وأم حبيب جارية مُجَّد بن أحمد بن موسى رضوان الله تعالى عليهن، وكانت هذه الجارية والدة أم كلثوم بنت مُجَّد (٢).

هذا، وقد دفن أربعة من سلاطين إيران من السادة الصفوية الموسوية في حرم السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، فإن المحدث القمي - في منتهى الآمال - بعد أن ذكر الشاه عباس الأول وأن وفاته في ليلة ٢٤ من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٣٨ هـ، قال: وجاء بعده حفيده الشاه صفي الأول ابن ابنه صفي ميرزا الشهيد، وحكم أربع عشرة سنة، وتوفي في الثاني عشر من شهر صفر سنة ١٠٥٣ هـ، ودفن بقم، وقبره في جهة القبلة من الروضة المشرفة لفاطمة بنت الإمام موسى الكاظم عليه السلام

(١) تاريخ قم ص ٢١٤.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٧٩.

وأصبح اليوم داخل الروضة في المكان المخصص لدخول النساء لزيارة السيدة المعصومة عليها السلام...، وجاء بعده ابنه الشاه عباس الثاني وهو في التاسعة من عمره وحكم ٢٦ سنة، وتوفي بدامغان عند رجوعه من مازندران إلى أصفهان في سنة ١٠٧٨ هـ، ونقل جثمانه إلى قم، ودفن إلى جوار الروضة المقدسة لفاطمة بنت الإمام الكاظم عليه السلام في مساحة واسعة قرب أبيه. وجاء بعده الشاه صفي الثاني في السادس من شهر شعبان سنة ١٠٧٨ هـ، وألقى المحقق الخونساري في مسجد جامع شاهي خطبة في تأييده، ولقب بشاه سليمان، وكان عادلاً، وهو الذي عمر قبة الإمام الرضا عليه السلام في سنة ١٠٨٦ هـ، وزاد في تذهيبها، وتوفي سنة ١١٠٥، ودفن في مكان يقرب من قبر الشاه عباس، وانتقل الملك إلى ابنه الشاه سلطان حسين وهو آخر سلاطين الصفوية... - وذكر قصة مقتله في أصفهان ثم قال: - ولكن الناس حملوا جثمان السلطان حسين بعد مدة من الزمان وجاءوا به إلى قم، ودفن في جوار عمته فاطمة المعصومة عليها السلام جنب قبر أبيه ^(١).

وقد ذكر أن السلطان فتح علي شاه القاجاري الذي هباً تراب قبره من تراب أرض كربلاء، مدفون في إحدى غرف الصحن الصغير، ومن آثاره تذهيب قبة حرم السيدة المعصومة ^(٢).

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٢) حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ج ٢ ص ٤٣٩.

ودفن أيضا مُجَّد شاه قاجار، وهو أحد سلاطين إيران.

ومن دفن من الوزراء والأعيان: على أصغر أتاك، الذي كان الصدر الأعظم لإيران في زمان ناصر الدين شاه، ومظفر الدين شاه، وهو الذي بنى الصحن المعروف بالصحن الأتابكي.

ومنهم: كامران ميرزا بن ناصر الدين شاه، الذي كان نائب السلطنة وحاكم طهران.

ومنهم: عين الملك، صهر مُجَّد شاه قاجار الذي يقال إنه تقلد الوزارة.

ومنهم: فرخ أمين الدولة، وزير ناصر الدين شاه.

ومنهم: عبد الصمد عز الدولة ابن مُجَّد شاه الثاني.

ومنهم: الملك المنصور شعاع السلطنة ابن مظفر الدين شاه قاجار حاكم شيراز.

وغيرهم ممن حظي بالدفن في جوار الحرم المقدس وهم كثير ^(١).

وذلك يكشف عن أن سلاطين الدنيا وملوكها وأمراءها وإن خضعت لهم البلاد أو أخضعوها - بحق أو بغيره - إلا أن سلطان الآخرة وملوكها بيد غيرهم، ومثلهم في ذلك مثل سائر الناس، ولذا فإن بعضهم يتوسل إلى لطف الله ورحمته بجعل مدفنه في جوار الأبرار والصالحين.

ولا زال الدفن في هذه البقعة الطاهرة أمنية تراود كثيرا من العلماء

(١) مجلة الهادي - العدد الثاني من السنة الثانية ذو القعدة ١٣٩٢ هـ، - ص ١٠٧ - ١٠٨.

والمؤمنين للحظوة بهذا الجوار المقدس، ولا شك أن لذلك آثارا عظيمة كما أشارت إليه النصوص الواردة في شأن القبور والدفن في جوار الأولياء.

هذا، وقد مر حرم السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام في عمارته بمراحل عديدة حتى بلغ ما هو عليه اليوم من الجلالة والقدسية والعظمة.

وقد رد في بعض الروايات أنه لما توفيت السيدة فاطمة عليها السلام ودفنت في روضتها، قام موسى بن خزرج ببناء سقيفة من البواري على قبرها، إلى أن بنت زينب بنت محمد بن علي الجواد عليه السلام قبة عليها ^(١).

وذكر الباحث الشيخ علي أكبر مهدي بور مختصرا عن مراحل تطور عمران هذا الحرم الشريف فقال ما ترجمته:

بعد دفن كريمة أهل البيت بنى موسى بن الخزرج مظلة - سقيفة - من القصب فوق القبر الشريف.

بعد ذلك بنت زينب بنت الإمام الجواد عليه السلام قبة من الآجر فوق القبر.

في سنة ٤١٣ هـ زين الحرم المطهر بالآجر الملون النفيس.

في سنة ٥٢٩ هـ أسست قبة جديدة.

في سنة ٥٩٢ هـ جدد بناء القبة المطهرة.

في سنة ١٢١٨ هـ تم تذهيب القبة المطهرة.

في ذلك التاريخ زين سطح القبة بـ ١٢٠٠٠ قطعة من الآجر

(١) تاريخ قم ص ٢١٣.

المذهب.

في سنة ١٢٧٥ هـ صنع الضريح الفضي.

في سنة ١٢٨٥ هـ أسست مآذن الإيوان (الشفرة) الذهبي.

في سنة ١٣٠١ هـ ذهبت هذه المآذن.

في سنة ١٢٩٢ هـ صنع الباب المنقوش للروضة المطهرة.

في سنة ١٣٠٣ هـ أسس الصحن الجديد.

في سنة ١٣٠٦ هـ صنع الباب الفضي للحرم المطهر^(١).

وجاء في بعض التحقيقات: وأقام أبناء سعد الأشعري على قبرها خيمة من الحصر المصنوعة من القصب، إلى أن جاءت زينب بنت الإمام الجواد عليه السلام وبنت علي القبر قبة هي أول قبة تقام على ذلك القبر، وكان للبناء باب صغير إلى جهة النهر الذي يفصل بين شطري قم الآن. واستمر الحال على هذا إلى سنة (٣٥٠) هـ حيث جاء زيد بن أحمد بن بحر الأصفهاني وبدل ذلك الباب الصغير بباب أكبر منه.

وفي عهد طغرل السلجوقي (٤٢٩ - ٤٦٥) هـ هدمت القبة الصغيرة، وبني بدلا عنها قبة أخرى أكبر منها وأعلى وأفخم، وكان الذي قام بهذا العمل الأمير أبو الفضل العراقي من أمراء طغرل، واستمر الحال على هذا فكان يتجدد بناء المرافق والملاحق للمزار من دون أن يتجدد بناء القبة إلى زمان الصفوية حيث بدأت التغييرات والتجديدات في

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ١٨١.

عهدهم بصورة أوسع، فهدمت القبة السلجوقية في سنة (٩٢٥) هـ وبني مكانها قبة أعلى وأفخم وأحسن منها، تقوم على ثمانية أضلاع، وكانت مزينة من الخارج بالكاشي، وأما من الداخل فقد كانت منقوشة بالذهب واللازورد، وكان الذي قام بهذا العمل امرأة اسمها (شاه بيگم بنت عماد بيك) وكانت هي امرأة الشاه إسماعيل الصفوي أول الملوك الصفوية، وهذه القبة باقية حتى الآن على المرقد الشريف بتغييرات في داخل القبة وخارجها، ولم يكن هناك إيوان ولا صحن ولا وضع ضريح من الداخل.

واستمر الحال على هذا إلى زمان الصفوية حيث بدأت التغييرات والتجديدات من عهدهم وبالتحديد من سنة (٩٠٦) هـ.

وفي سنة (٩٢٥) هـ بنى شاه إسماعيل أو امرأته الإيوان الشمالي المتصل بالصحن القديم، وزينه بالكاشي (المعرق) وجعله المدخل الوحيد للحرم، كما أنه أي شاه إسماعيل قد وضع الأساس للصحن القديم، وفي سنة (٩٥٠) هـ بنى الشاه طهماسب ضريحا على المرقد المطهر وكان من الكاشي، وفي سنة (١٠٧٧) هـ بنى شاه سليمان الصفوي صحن النساء في الجهة الجنوبية من الحرم، وأصبح هذا الصحن طريقا خاصا لمقبرة الشاه سليمان، والشاه عباس، والشاه سلطان حسين، إذ من المعلوم أن مدخل هذه المقبرة كان من هذا الصحن فقط.

هذا، وقد وضع الشاه عباس على ذلك المرقد المطهر الذي كان قد زين بالكاشي قفصا من الفولاذ الأبيض، وكان لإتقان صنعه بحيث أوجب أن يظن الرحالة المشهور (تاورينه) أنه من الفضة.

كما أن مرتضى قليخان أحد رجال الدولة الصفوية قد جدد بناء إيوان الحرم، وبعد عهد الصفوية وبالتحديد في سنة (١٢١٨) هـ رفع الكاشي عن القبة ووضع بدلا عنه لبنات من الذهب، وفي سنة (١٢٣٦) هـ بني مسجد فوق الرأس، وفي سنة (١٢٦٦) هـ جدد بناء إيوان الشاه إسماعيل، وفي ذلك الوقت أيضا وسع الصحن العتيق، وبني من الجهة الشمالية منه مئذنة. وفي سنة (١٢٢١) هـ فرشت أرض الحرم وجدرانه بالرخام كما زين الضريح بالذهب، ووضع أول باب ذهبي في الضلع الشمالي للرواق المتصل بإيوان الذهب الشمالي.

وفي سنة (١٢١٥) هـ زين داخل القبة بالنقوش البارزة والمرايا والكتابات الجميلة، وفي سنة (١٢٧٦) هـ زين إيوان الشاه إسماعيل بلبنات الذهب، وفي سنة (١٢٧٥) هـ ألبس الضريح الفولاذي بالفضة وزين بالنقوش والكتابة.

وبنى شهاب الملك مآذن الإيوان الشمالي وزينها بالكاشي، ووضع (كامران ميرزا) قضبان الذهب في أعلاهما، وشرع أمين السلطان ببناء الصحن الجديد المعروف بالصحن الأتابكي ووضع أسسه، لكن الأجل

عاجله فأكمل العمل بعده ولده أمين السلطان والوزير الأعظم أتاك، وجعل في الجهة الغربية من الصحن إيوانا زينه بالمرايا من الداخل والكاشي من الخارج، وبني حول الصحن غرفا متعددة أصبحت فيما بعد مقابر للأعيان والأشراف، كل ذلك مزين بالكتابة والنقوش الجميلة وقد انتهى من ذلك كله سنة (١٣٠٣) هـ.

وفي سنة (١٣٤٦) هـ جرت بعض التعميرات في صحن النساء وبني إيوان فيه، وفي سنة (١٢١٠ - ١٢١٤) هـ وضع (نظام السلطنة) بابين من الفضة في الضلع الغربي من الحرم^(١)... هذا، وقد تعاقبت الأيدي - ولا زالت - على عمارة الحرم الشريف وصيانته ونظافته وتجديد بنائه.

وتشرف على الحرم منذ عهد قديم هيئة خاصة تعنى به وبمراقبه وتدير شؤون الأوقاف التابعة له، وترعى أمور الزائرين والوافدين.

وكانت الخدمة في الحرم الشريف - ولا زالت - تعتبر شرفا لا يحظى به إلا القليل، حتى أن بعض المؤمنين يتبرع بالخدمة تقربا إلى الله تعالى، وتشرفا بخدمة حرم ولية من أوليائه، وإظهارا لمودة أهل بيت نبيه ﷺ.

وأصبح هذا الحرم الشريف مصدر خير وبركة، وموطن عبادة ودعاء وأمانا للمؤمنين عامة، ولأهل قم خاصة، فقد كان هذا الحرم

(١) مجلة الهادي - العدد الثاني من السنة الثانية ذو القعدة ١٣٩٢ هـ، - ص ١٠٥ - ١٠٦.

ملجأ وملاذا للناس عند الشدائد والأزمات، حيث يلوذون بقبرها ويتوسلون بها إلى الله، وهي
كريمة أهل البيت، ولها عند الله شأن من الشأن، فلا يصدرون إلا بالفرج والخير والإجابة.

الزيارة

(في يُبَيِّنُ أَذْنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ) (١)

إن أهم ما يميز الشيعة الإمامية عن سواهم ولاؤهم لأهل البيت عليهم السلام وصدقهم في الولاء، وحفظهم المودة ورعايتهم للود، ذلك لأنهم علموا وتيقنوا أن طريق النجاة والخلاص منحصر في اتباعهم واقتفاء خطاهم، والسير على هديهم وهداهم، وربطوا مصيرهم بأئمتهم عليهم السلام، لا يجيدون عن ذلك ولا يبيغون عنه بدلا.

وقد قامت الأدلة عندهم من العقل والنقل على انحصار الهداية فيهم وبهم دون سواهم، في العقيدة والفقه والأخلاق، وقد تكفلت كتبهم الكلامية (٢) ببيان ذلك والدلالة عليه، فأهل البيت عليهم السلام وهم الأئمة المعصومون عليهم السلام هم ذوو القرى الذين أمر الله بمودتهم وطاعتهم، وهم الأئمة على دين الله وشريعة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وهم حملة القرآن، ووراث علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة النور الآية ٣٦.

(٢) لاحظ - على سبيل المثال - تلخيص الشافي للشيخ الطوسي، والطرائف للسيد ابن طاووس، وكشف المراد للعلامة الحلبي.

أضف إلى ذلك ما تجلّى من سيرتهم عليهم السلام التي كانت مثالا لسيرة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكانوا بذلك مهوى الأفئدة وملتقى القلوب، فإنهم القادة إلى الصراط المستقيم.

غير أن الأمة - ويا للأسف - تنكرت لهم وتنكبت طريقهم، فما عرفت لهم فضلا، ولا رعت لهم حقا، وعاشوا غرباء، ورحلوا غرباء، وهكذا شأن الأولياء والصدّيقين يعيشون في غربة ويرحلون في غربة لا يعرف لهم قدرا ولا مقاما.

ولم يكن هناك إلا ثلثة قليلة حظيت بشرف الاعتقاد بإمامتهم، والاقتراد بهم والسير على خطاهم، وهم شيعة الذين استنارت بصائرهم بولايتهم ومحبتهم، فكانوا هم الفائزين.

ثم إن من أجلى مظاهر الود ومراعاة المودة لدى الشيعة الإمامية تجاه أئمتهم عليهم السلام تعاهد مواطنهم ومواضع مراقدهم بالزيارة، وتحديد العهد بالولاء والمحبة يستسهلون في الوصول إليهم كل عسير، ويستمرؤن كل خطير، فقد جعل الله تعالى تلك المواطن المطهرة بيوتا أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

ومع أن الزيارة تتحقق من البعد، فقد ورد أنهم يبلغهم السلام^(١)، إلا أن الأئمة عليهم السلام قد أكدوا على شيعةهم في السعي إلى مقاماتهم المشرفة لما يترتب على ذلك من الفوائد العظيمة.

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ باب ٤ من أبواب المزار وما يناسبه الحديث ١ - ٧.

فقد حرص الأئمة عليهم السلام - شفقة ورأفة منهم بشيعتهم - أن لا تفوتهم تلك المغامم الجليلة حيث جعل الله تعالى مواضع قبورهم مواطن الرحمة، ومهابط الملائكة، ومضان إجابة الدعاء وغفران الذنوب، والقربة لله والوفاء لرسوله، وإظهار المودة لذوي القربى.

روى الكليني بسنده عن زيد الشحام قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما لمن زار واحدا منكم؟ قال: كمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(١).

وقال الشيخ المفيد وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: من زارنا بعد مماتنا فكأنما زارنا في حياتنا ^(٢)...

وروى الشيخ في التهذيب بسنده عن أبي عامر الساجي واعظ أهل الحجاز، قال: أتيت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام ، وقلت له: يا ابن رسول الله ما لمن زار قبره - يعني أمير المؤمنين عليه السلام - وعمر تربته؟ قال:

يا أبا عامر حدثني أبي، عن أبيه، عن جده الحسين بن علي عليه السلام ، عن علي عليه السلام ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: والله لتقتلن بأرض العراق، وتدفن بها، قلت: يا رسول الله ما لمن زار قبورنا وعمرها وتعاهدها؟ فقال لي: يا أبا الحسن إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعا من بقاع الجنة، وعرصه من عرصاتها، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده تحن إليكم، وتحتمل المذلة والأذى، فيعمرون قبوركم ويكثرون زيارتها، تقربا منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي

(١) وسائل الشيعة ج ١٠ باب ٢ من أبواب المزار وما يناسبه الحديث ١٥.

(٢) المقنعة ص ٤٨٥ - ٤٨٦.

المخصوصون بشفاعتي الواردون حوضي، وهم زواري غدا في الجنة.
يا علي من عمر قبوركم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن
زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجة بعد حجة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من
زيارتكم كيوم ولدته أمه، فأبشر وبشر أوليائك ومحبيك من النعيم، وقررة العين بما لا عين رأت، ولا
أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم كما تعير الزانية بزنائها، أولئك شرار أمتي، لا أنالهم
الله شفاعتي، ولا يردون حوضي^(١).
إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة.

وإضافة إلى كون الزيارة إحدى القربات والعبادات، فيها من المنافع الدينية والدينيوية ما لا
يخفى، بحيث لو لم يرد أي نص في الترغيب فيها والحث عليها لكانت في نفسها جديدة بالاعتناء.
ولما كانت السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام غصنا من تلك الشجرة الطيبة، وفرعا من ذلك
الأصل الزاكي، ولها من الشأن والمقام ما قد عرفت، ورد الترغيب في زيارتها، والحث على قصد
بقعتها، قرينة لله تعالى ووفاء لرسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولم يتوان الشيعة الإمامية عن ذلك، بل صاروا يسعون أفواجا ووحدا، من شتى بقاع الأرض،
متحملين مشاق السفر وأخطاره في

(١) تهذيب الأحكام ج ٦ - كتاب المزار - باب ٧ في فضل زيارة أمير المؤمنين عليه السلام الحديث ٧ ص ٢٢.

محبة صادقة وولاء عميق، معظمين بذلك إحدى شعائر الله تعالى .
وقد ورد في العديد من الروايات التأكيد على زيارتها، وأن الله تعالى قد جعل الجنة ثوابا لمن زارها، ومن تلك الروايات ما تقدم ذكره عن عدة من أهل الري أنهم دخلوا على أبي عبد الله عليه السلام وقالوا: نحن من أهل الري، فقال عليه السلام: مرحبا بإخواننا من أهل قم، فقالوا: نحن من أهل الري، فأعاد الكلام، قالوا ذلك مرارا وأجابهم بمثل ما أجاب به أولا، فقال عليه السلام: إن الله حرما وهو مكة، وإن للرسول حرما وهو المدينة، وإن لأمير المؤمنين حرما وهو الكوفة، وإن لنا حرما وهو بلدة قم، وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمى فاطمة، فمن زارها وجبت له الجنة، قال الراوي: وكان هذا الكلام منه عليه السلام قبل أن يولد الكاظم (١).

ومنها: ما روي عنه عليه السلام أيضا أنه قال: إن زيارتها تعدل الجنة (٢).
ومنها: ما رواه الصدوق بسنده عن سعد بن سعد، قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام، فقال عليه السلام: من زارها فله الجنة (٣).
ومنها: ما روي عن سعد عن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: قال: يا سعد عندكم لنا قبر، قلت: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام، قال: نعم، من زارها عارفا بحقها فله الجنة (٤).

(١) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٧.

(٣) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٦٧.

(٤) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٦.

ومنها: ما روي عنه عليه السلام أيضا أنه قال: من زار المعصومة بقم كمن زارني ^(١).
ومنها: ما روي عن أبي جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام أنه قال:
من زار قبر عمي بقم فله الجنة ^(٢).

وغيرها من الروايات الدالة على فضل زيارتها، وما أعده الله تعالى ثوابا لزارها وهو الجنة، وقد ورد أن للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها لأهل قم.

نص الزيارة:

ومع كفاية حضور الزائر عند المزور والسلام عليه في تحقق الزيارة، إلا أنه قد ورد نص خاص عن الإمام الرضا عليه السلام في كيفية زيارة السيدة المعصومة، كما ذكر ذلك العلامة المجلسي (قدس سره) في البحار، قال: رأيت في بعض كتب الزيارات: حدث علي بن إبراهيم عن أبيه، عن سعد، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام، قال: قال: يا سعد عندكم لنا قبر، قلت: جعلت فداك قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام، قال: نعم، من زارها عارفا بحقها فله الجنة، فإذا أتيت القبر فقم عند رأسها مستقبل القبلة، وكبر أربعاً وثلاثين تكبيرة، وسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، واحمد الله ثلاثاً

(١) رباحين الشريعة ج ٥ ص ٣٥.

(٢) كامل الزيارات باب ١٠٦ فضل زيارة فاطمة بنت موسى بن جعفر عليه السلام الحديث ٢ ص ٥٣٦.

وثلاثين تحميدة، ثم قل:

السلام على آدم صفوة الله، السلام على نوح نبي الله، السلام على إبراهيم خليل الله، السلام على موسى كليم الله، السلام على عيسى روح الله، السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا خير خلق الله، السلام عليك يا صفى الله، السلام عليك يا مُحَمَّد بن عبد الله خاتم النبيين، السلام عليك يا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وصي رسول الله، السلام عليك يا فاطمة سيدة نساء العالمين، السلام عليكما يا سبطي نبي الرحمة وسيدي شباب أهل الجنة، السلام عليك يا علي بن الحسين سيد العابدين وقرّة عين الناظرين، السلام عليك يا مُحَمَّد بن علي باقر العلم بعد النبي، السلام عليك يا جعفر ابن مُحَمَّد الصادق البار الأمين، السلام عليك يا موسى بن جعفر الطاهر الطهر، السلام عليك يا علي بن موسى الرضا المرتضى، السلام عليك يا مُحَمَّد بن علي التقي، السلام عليك يا علي بن مُحَمَّد النقي الناصح الأمين، السلام عليك يا حسن بن علي، السلام على الوصي من بعده، اللهم صل على نورك وسراجك، وولي وليك، ووصي وصيك، وحجتك على خلقك.

السلام عليك يا بنت رسول الله، السلام عليك يا بنت فاطمة وخديجة، السلام عليك يا بنت أمير المؤمنين، السلام عليك يا بنت الحسن والحسين، السلام عليك يا بنت ولي الله، السلام عليك يا

أخت ولي الله، السلام عليك يا عممة ولي الله، السلام عليك يا بنت موسى بن جعفر، ورحمة الله وبركاته.

السلام عليك، عرف الله بيننا وبينكم في الجنة، وحشرنا في زمركم، وأوردنا حوض نبيكم، وسقانا بكأس جدكم، من يد علي ابن أبي طالب، صلوات الله عليكم، أسأل الله أن يرينا فيكم السرور والفرح، وأن يجمعنا وإياكم في زمرة جدكم مُحَمَّد ﷺ، وأن لا يسلبنا معرفتكم إنه ولي قدير.

أتقرب إلى الله بحبكم، والبراءة من أعدائكم، والتسليم إلى الله راضيا به، غير منكر ولا مستكبر، وعلى يقين ما أتى به مُحَمَّد وبه راض، نطلب بذلك وجهك يا سيدي، اللهم ورضاك والدار الآخرة، يا فاطمة اشفعي لي في الجنة فإن لك عند الله شأنًا من الشأن.

اللهم إني أسألك أن تحتم لي بالسعادة، فلا تسلب مني ما أنا فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم استجب لنا وتقبله بكرمك وعزتك، وبرحمتك وعافيتك، وصلى الله على مُحَمَّد وآله أجمعين، وسلم تسليمًا يا أرحم الراحمين ^(١).

(١) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

خصائص الزيارة وبعض مميزاتهما:

وتعد هذه الزيارة من الزيارات الجامعة حيث اشتملت على السلام على أبي البشر آدم عليه السلام، وأولي العزم من الرسل عليهم السلام، ثم السلام على المعصومين من أهل البيت عليهم السلام وهم الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام، وذكرهم واحدا واحدا، ثم السلام على فاطمة المعصومة، ثم الإشارة إلى بعض مقامات أهل البيت عليهم السلام، ومنزلتهم عند الله تعالى، وما أعده لهم من المنزلة في الدار الآخرة، والشأن العظيم، ثم الإقرار لهم بالمحبة والولاية والبراءة من أعدائهم، والتسليم إلى الله تعالى، وإعلان الرضا بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم والاعتقاد اليقيني به، ثم الابتغال إلى الله تعالى وطلب الثبات على ذلك.

وجميع هذه المضامين العالية واردة في روايات أهل البيت عليهم السلام، فهي في حد ذاتها - بغض النظر عن سندها - موافقة لما ورد من أصول المعارف الحقة عن أئمة الهدى عليهم السلام.

ثم إن في هذه الزيارة أموراً تلفت النظر وتسترعي الانتباه، نشير إجمالاً إلى ثلاثة منها:

الأول: الالتفات في السلام من الغيبة إلى الخطاب، فإن الزيارة تبدأ بالسلام على آدم في صورة الغيبة، حتى إذا بلغ السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحول إلى صورة المخاطبة.

الثاني: ذكر في الزيارة أن السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام بنت

الحسن عليه السلام، حيث ورد فيها: السلام عليك يا بنت الحسن والحسين.
ومن المعلوم أن فاطمة المعصومة عليها السلام تنحدر من سلالة الحسين عليه السلام، فهي فاطمة بنت
موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.
الثالث: اشتمال الزيارة على أن للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام شأنًا من الشأن، وبه تشفع في
الجنة.

أما الأمر الأول فلأن من الثابت بالكتاب والسنة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام شهداء على
الخلق، وأنهم في جميع الحالات يسمعون الكلام ويردون السلام، من دون اختصاص بمكان دون
مكان أو زمان دون آخر، ولذا فإن جميع ما ورد من الزيارات - إلا القليل - كان في صورة
الخطاب والحضور، حتى أن التسليم المستحب في آخر كل صلاة كذلك، وهو قول المصلي
(السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

وأما في خصوص المقام فقد ذكر بعض العلماء أن في ذلك إلماحا بل إشارة إلى منزلة قم
ومكانتها عند أهل البيت عليهم السلام، وقد أثنى الأئمة عليهم السلام على أرض قم وأهلها، ووردت عنهم
عليهم السلام أحاديث كثيرة في ذلك، وسيأتي ذكر بعضها في محله.

ويؤيد ذلك ما ورد في الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: إن لله حرما وهو
مكة، وإن للرسول حرما وهو المدينة، وإن لأمير

المؤمنين حرما وهو الكوفة، وإن لنا حرما وهو بلدة قم^(١)....
وفي رواية أخرى: ألا إن قم الكوفة الصغيرة، ألا إن للجنة ثمانية أبواب ثلاثة منها إلى قم^(٢)...
ففي العدول من الغيبة إلى الخطاب إشعار بحضورهم عليهم السلام في هذا المكان المقدس فإنه حرمتهم،
وموطن شيعتهم، وورد في الروايات أنهم عليهم السلام لا يغيبون عن شيعتهم.
وقد أصبح لبلدة قم ميزة أخرى تضاف إلى مميزاتا وهي أنها مثوى السيدة فاطمة المعصومة
عليها السلام، الأمر الذي زاد في ارتباط الأئمة عليهم السلام، بقم، وقد أخبر عنه الإمام الصادق عليه السلام قبل
ولادتها، بل قبل ولادة أبيها عليه السلام حيث قال: وستدفن فيها امرأة من أولادي تسمى فاطمة فمن
زارها وجبت له الجنة^(٣).

وفي رواية أخرى: تقبض فيها امرأة هي من ولدي، واسمها فاطمة بنت موسى، تدخل
بشفاعتها شيعتنا الجنة بأجمعهم^(٤) وبه ينسجم العدول في السلام من الغيبة للخطاب فإن الزائر
يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وهم حاضرون.
وأما الأمر الثاني فيظهر معناه بالرجوع إلى نسب الإمام الباقر عليه السلام من جهة أمه عليها السلام، وهي
فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، فتكون

(١) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

(٣) تاريخ قم ص ٢١٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

جدة للإمامين الصادق والكاظم عليهما السلام ، وبذلك تكون السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام بنتا للإمام الحسن عليه السلام من طرف الأم.

وقد ذكر الرواة أن أم الإمام الباقر عليه السلام كانت على مرتبة عالية من الجلال والكمال. يقول المحدث القمي في منتهى الآمال: أمه - أي الإمام الباقر عليه السلام - الماجدة فاطمة بنت الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ، وقيل لها: أم عبد الله، فأصبح عليه السلام ابن الخيرتين، وعلويا بين العلويين. روي في دعوات الراوندي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أنه قال:

كانت أمي قاعدة عند جدار، فتصدع الجدار وسمعنا هدة شديدة، فقالت بيدها: لا وحق المصطفى، ما أذن الله لك في السقوط، فبقي معلقا حتى جازته، فتصدق عنها أبي عليه السلام بمائة دينار.

وذكرها الصادق عليه السلام يوما فقال: كانت صديقة لم يدرك في آل الحسن امرأة مثلها ^(١). وعلى هذا فيكون الإمام الحسن أبا للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام لأنه جد الإمام الباقر عليه السلام لأمه، بل هو أب لسائر الأئمة عليهم السلام.

وأما الأمر الثالث فيعلم مما تقدم من الأبحاث السابقة، فإن شأن السيدة فاطمة المعصومة هو الشأن الشامخ، والمنزلة العالية، عند الله تعالى على ما نطق به الروايات، ومن ذلك أن لها شأنية الشفاعة لجميع الشيعة، كما قال عنها جدها الإمام الصادق عليه السلام: « تدخل

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ١٣١.

بشفاعتها شيعتنا الجنة بأجمعهم».

والشفاعة من المسائل التي أكدت عليها النصوص القرآنية وروايات أهل البيت عليهم السلام،
وتكفلت الكتب الكلامية ببيان تفاصيلها حكما وموضوعا.

والذي نود الإشارة إليه أن المستفاد من جملة « يا فاطمة اشفعي لي في الجنة فإن لك عند الله
شأنًا من الشأن » أن هذا الشأن ليس هو شأن الشفاعة فقط، وإنما الشفاعة هي أحد مصاديق
ذلك الشأن.

ويؤيد هذا المعنى ما ورد من الروايات الدالة على أن الشفاعة ثابتة لجملة من الأفراد على
اختلاف مراتبهم منهم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله فإن له المقام المحمود، وهو أعلى مراتب الشفاعة على
ما ورد في كثير من الروايات ^(١)، ومنهم الأئمة المعصومون عليهم السلام والصديقة الزهراء عليها السلام، ومنهم
الشهداء، ومنهم القرآن الكريم، فإنه يشفع لقرائه، ومنهم السقط فإنه يشفع لأبويه، ومنهم المؤمن
الشيعة، فإن الله تعالى قد جعل له الشفاعة يوم القيامة كما ورد في صحيحة ابن أبي نجران، قال:
سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: من عادى شيعتنا فقد عادانا، ومن والاهم فقد والانا، لأنهم منا
خلقوا من طينتنا، من أحبهم فهو منا، ومن أبغضهم فليس منا...، والله إن أحدهم ليشفع في مثل
ربيعة ومضر، فيشفعه الله تعالى فيهم، لكرامته على الله عز وجل ^(٢).

وغيرها من الروايات.

(١) تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٢٠٦ - ٢١١.

(٢) صفات الشيعة الحديث ٥ ص ٨٢.

أقول: إن مقام الشفاعة وإن كان شامخاً إلا أن للسيدة فاطمة المعصومة مقاما آخر عبر عنه بالشأن.

ومما يدل على ذلك ما نقله لي صديقي العزيز المحقق الشهير الفاضل السيد مهدي الرجائي - ورأيته في أكثر من كتاب (١) - عن السيد محمود المرعشي، عن أبيه السيد شهاب الدين، عن جده السيد محمود المرعشي، أنه كان يريد معرفة قبر الصديقة الزهراء عليها السلام، وقد توسل إلى الله تعالى من أجل ذلك كثيرا، حتى أنه دأب على ذلك أربعين ليلة من ليالي الأربعاء من كل أسبوع في مسجد السهلة بالكوفة، وفي الليلة الأخيرة حظي بشرف لقاء الإمام المعصوم عليه السلام، فقال له الإمام عليه السلام: « عليك بكرامة أهل البيت »، فظن السيد محمود المرعشي أن المراد بكرامة أهل البيت عليهم السلام هي الصديقة الزهراء عليها السلام فقال للإمام عليه السلام: جعلت فداك إنما توسلت لهذا الغرض، لأعلم بموضع قبرها، وأتشرف بزيارتها، فقال عليه السلام: مرادي من كرامة أهل البيت قبر السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام في قم.

ثم قال: إن الله تعالى قد جعل قبر الصديقة الزهراء من الأسرار، وقد اقتضت الإرادة الإلهية تبعا لبعض المصالح أن يكون قبرها مخفيا لا يطلع على موضعه أحد من الناس، فلا يمكن الإخبار عنه، ولكن جعل الله قبر السيدة فاطمة المعصومة موضعا يتجلى فيه قبر الصديقة الزهراء عليها السلام، وإن ما قدر لقبر الصديقة الزهراء عليها السلام من الجلال والعظمة

(١) كرامة أهل البيت عليهم السلام ص ٤٣ - ٤٥ وسيدة عرش آل محمد صلوات الله عليهم ص ٣٧ - ٣٨.

والشأن - لو كان معلوما ظاهرا - قد جعله الله تعالى لقبر السيدة المعصومة.
وعلى أثر ذلك عزم السيد محمود المرعشي على السفر من النجف الأشرف إلى قم لزيارة كريمة
أهل البيت عليهم السلام.

ونقل عن المحدث الشيخ عباس القمي أنه رأى الميرزا القمي - صاحب القوانين - في عالم
الرؤيا - وسأله: هل أن شفاعة أهل قم بيد السيدة فاطمة المعصومة؟ فنظر إلي متعجبا وقال:
شفاعة أهل قم بيدي، وأما فاطمة المعصومة فشفاعتها لأهل العالم ^(١).

فما يردده بعض الحمقى والمغفلين من أن فاطمة المعصومة لا تعدو أن تكون امرأة، مثلها مثل
سائر النساء، ولا شأن لها، إن هو إلا دليل على الجهل واللامبالاة والتطاول على المقدسات،
ويكشف عن الحرمان وسلب التوفيق والتقصير في معرفة مقامات الأولياء والصالحين والصلوات
من أهل البيت عليهم السلام، فإن كونها امرأة لا يقعد بها عن تسنم أرفع الدرجات، وأنها من فضليات
البشر، ولا يدانيتها في الفضل والمنزلة أكثر الرجال وهي من التاليات للمعصومين من أهل البيت
عليهم السلام في الفضل والشأن والمنزلة عند الله تعالى وعند الأئمة عليهم السلام، وحسبك ما تقدم في الرواية
الصحيحة السند عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: من زارها فله الجنة.

هذا، وقد ذكر أن للزيارة آدابا وسننا تكفلت كتب الفقه والزيارات

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٦٠.

بيان تفاصيلها.

إيقاظ:

وقبل أن أتجاوز هذا الموضوع أود أن أشير إلى ضرورة الالتفات إلى أمر له مساس بما ذكرناه، وهو أنه ظهرت في الآونة الأخيرة فئة من الناس قد اكتفت من العلم بالقشور دون اللباب، وبالاسم دون المسمى، وبالشكل دون المحتوى، - وهنا تكمن الخطورة - وسوغت لنفسها القفر على ثوابت العقيدة، أو التشكيك في مسلماتها، والجدال في بديهاها، - تحت شعارات التجديد والانفتاح ومقتضيات العصر - بل تعدت الحدود لتقدح في أصول المذهب وركائزه بإلقاء الشبه، أو إنكار الحقائق، فأحدثت بذلك الفوضى والاضطراب في نفوس البسطاء من الناس، الذين بهرتهم تلك الشعارات الجوفاء، وانساقوا وراءها يرددونها في سذاجة وغفلة أو تغافل عما تنطوي عليه وسيصحون يوما ليجدوا أنفسهم مفلسين، إلا أن يتداركوا أمرهم قبل فوات الأوان.

وبلغ الأمر إلى أنه بدلا عن تصدي المعنيين بشؤون العقيدة والدفاع عنها، لخصومها الخارجين عنها، اضطروا للتصدي لخصومها الداخليين فيها الذين هم أشد خطرا وأسوأ أثرا، لأنهم يشكلون حجر العثرة في المسار، « ويجسبون أنهم يحسنون صنعا ». .

وليعلم هؤلاء أن للبيت ربا يحميه، وأن للسفينة ربانا يجنبها الأخطار.

ومهما حاولوا في زعزعة العقيدة فلن تزداد عقيدة الناس إلا رسوخا وصلابة، وأن محاولاتهم
يائسة فاشلة « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ». .
وستبقى العقيدة المقدسة - التي غرس بذرتها النبي محمد ﷺ، وتعاهد شجرتها أئمة الهدى
عليهم السلام، وصان ثمرتها علماء الشيعة - سليمة نقية، وهي أعلى وأجل من أن يחדش فيها جاهل أو
متجاهل أو مشكك أو مشبوه.

كرامات السيدة المعصومة عليها السلام

تتفاوت مراتب البشر في قربهم المعنوي وبعدهم عن الله سبحانه وتعالى، لتفاوت قابلياتهم واستعداداتهم، كما هو الحال في شؤونهم الأخرى، وذلك أمر طبيعي تقتضيه حياة البشر في هذا العالم الذي جعله الخالق الحكيم ظرفاً للتنافس وزود الإنسان بالعقل والاختيار والطاقت المختلفة، وأودع فيه غريزة حب الكمال والسعي إليه، وهياً له الأسباب المؤدية إلى ذلك، بمقتضى لطفه بالعباد.

وإذا كان ثمة ما يعيق أو يمنع فمرده إلى الإنسان نفسه، وقد تكفلت المباحث الاعتقادية بالبرهنة على ذلك.

وقد اختص الله بعض عباده بعنايات وألطف خاصة بلغوا بها أعلى درجات الكمال البشري الممكن، وأدنى مراتب القرب المعنوي من الله تعالى، فجعلهم مظاهر لطفه ومجالي رحمته ومجاري فيضه، وذلك لطهارة ذواتهم، وصفاء نفوسهم، وخلوصهم التام لله تعالى، فكانوا مظاهر أسمائه وصفاته، حتى أنه تعالى مكنهم من التصرف في هذا الكون وسخر لهم الأشياء فاستجابت لهم طائعة، فصدر عنهم ما خرقوا به نواميس الطبيعة، وخالف السنن المألوفة، وهو ما يعرف بالمعجزة والكرامة، لأنهم يتمتعون بقوى خاصة هي فوق هذا العالم المادي،

مما لم تبلغ له قوى الناس وقدراتهم، فعجزوا عنه وعن مثله، ومن أجله سميت المعجزة بالمعجزة ومما كان فيه إظهارا للمنزلة والمكانة، ومن أجله سميت الكرامة بالكرامة.

وليست المعجزة أو الكرامة أمرا مستحيلا، وقد اعترف الفلاسفة بذلك، بل ذكروا أن لها أصولا ثلاثة^(١)، قرروا فيها إمكان ذلك بل وقوعه، على ما شرحوه في كتبهم وأقاموا عليه أدلتهم.

ولسنا بحاجة - بعد القرآن الكريم والروايات المتواترة عن المعصومين عليهم السلام - إلى ما ذكره إلا بعنوان المؤيد لهذه الحقيقة الثابتة، فإن كتاب الله تعالى وروايات أهل البيت عليهم السلام قد تكفلت ببيانها بما لا تدع مجالاً للريب أو التشكيك.

ويأتي الحبيب المصطفى محمد ﷺ في المرتبة الأولى الذي كان في قربه من الله تعالى كـ « قاب قوسين أو أدنى » والذي هو المجلى الأتم لاسم الله الأعظم، والذي ما عرفت ولن تعرف البشرية في تاريخها شخصا في عظمته وكماله ومقامه كالنبي محمد ﷺ، إلا أن يكون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فإنهما من نور واحد ويتلوه في المرتبة.

وإنه لمن قصور البيان بل من سوء الأدب أن يقرن النبي ﷺ أو يقاس بسائر الناس، وأنى للناس أن يدركوا مقامه وهو القائل ﷺ:

« كنت نبيا وآدم بين الماء والطين »^(٢) « علي مني وأنا منه »^(٣).

(١) غرر الفرائد (شرح المنظومة) ص ٣٣٠ - ٣٣٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٢٦٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٦٤.

وأنى للبشر أن تحوم أفهامهم حول تلك العظمة وذلك الكمال وهو القائل صلى الله عليه وآله وسلم يخاطب علياً عليه السلام: « يا علي النور اسمي والمشكاة أنت »^(١) « أنت مني كروحي من جسدي »^(٢) « أنت مني كالضوء من الضوء »^(٣).

ويتلو مرتبتي المصطفى والمرتضى مرتبة الأئمة المعصومين عليهم السلام والصديقة الزهراء عليها السلام، فإنهم الأنوار الذين خلقهم الله وجعلهم بعرشه محققين، حتى من بهم علينا فجعلهم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وجعل صلواتنا عليهم وما خصنا به من ولايتهم طيباً لخلقنا، وطهارة لأنفسنا وتزكية لنا وكفارة لذنوبنا.

ويتلوهم مقامات الرسل والأنبياء والأولياء على اختلاف منازلهم ومراتبهم. وغرضنا من ذلك كله الإشارة إلى أن الله تعالى قد أختص بعض عباده بمميزات وقدرات خاصة، ومعاجز وكرامات، هي مظاهر لقدرة الله تعالى، وعلائم على القرب منه، والمنزلة عنده، والوجاهة لديه، وأردنا به الاستطراق إلى ما نحن فيه.

فإن السيدة فاطمة المعصومة وهي بنت ولي من أولياء الله، وأخت ولي من أوليائه، وعمة ولي من أوليائه، وحظيت برعاية المعصوم واهتمامه، وهي أهل لذلك فبلغت من المنزلة والشأن ما قد عرفت، فكان لها من الكرامات نصيب وافر، ولا زال حرمتها الشريف ملاذاً

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص ٣٤١.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٢٤٦.

(٣) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٢٤٦.

لذوي الحاجات فتقضي حاجاتهم، ولذوي الدعوات فتستجاب دعواتهم، ولذوي الكربات فتكشف كرباتهم، ولذوي الآمال فتتحقق آمالهم، وذلك من آثار التوسل بها، ووجاهتها عند الله، ولا سيما عند انسداد أبواب الأسباب الطبيعية وتعسر أو تعذر الطرق المألوفة.

وقد تواتر نقل الحوادث المختلفة، حتى أصبح من المألوف أن يسمع الإنسان عن كرامة للسيدة فاطمة المعصومة عليها السلام في شفاء مرض مستعص قد عجز الأطباء عن علاجه، أو نجاة من هلكة تبدو محققة الوقوع، أو استجابة دعاء صالح يرى أنه بعيد الاستجابة، أو قضاء حاجة تبدو مستحيلة أو حل مسألة علمية معضلة لا يظهر وجهها، وغير ذلك من القضايا والحوادث، وكم سمعنا من مشايخنا وأساتدتنا عن كثير من العلماء أنهم لجأوا إلى حرمها الشريف ولاذوا بقبرها وتوسلوا بها عليها السلام لكشف ما بهم واستعصى عليهم من المسائل العلمية الدقيقة فوجدوا آثار ذلك ونالوا ما أرادوا، وكذا نقل الثقة عن كثير من المؤمنين أنهم قصدوها في كثير من الشؤون المختلفة فظفروا بما كانوا يبتغون، ولا زال اللائذون بحرمها يرون آثار الخير والبركة والألطف الخفية والجلية عند التوسل بها إلى الله، فإنه تعالى قد جعلها بابا من أبواب الرحمة، وملاذا يلوذ به ذوو الحاجات. وأما ما أثبتته الأقلام فهو أيضا كثير، ومن ذلك:

ما ذكره المحدث النوري في دار السلام حيث قال: ومن آيات الله العجيبة التي تطهر القلوب عن رجز الشياطين، أنه في أيام مجاورتنا في بلد الكاظمين عليهم السلام كان رجل نصراني ببغداد يسمى يعقوب، عرض

له مرض الاستسقاء، فرجع إلى الأطباء فلم ينفعه علاجهم، واشتد به المرض، وصار نحيفا ضعيفا، إلى أن عجز عن المشي، قال: وكنت أسأل الله تعالى مكررا الشفاء أو الموت إلى أن رأيت ليلة في المنام - وكان ذلك في حدود الثمانين بعد المائة والألف، وكنت نائما على السرير - سيدا جليلا نورانيا طويلا حضر عندي فهز السرير، وقال: إن أردت الشفاء فالشرط بيني وبينك أن تدخل بلد الكاظمين عليه السلام وتزور فإنك تبرأ من هذا المرض، فانتبهت من النوم، وقصصت رؤياي على أمي، فقالت: هذه من الشياطين، وأنت بالصليب والزناز وعلقتهما علي، ونمت ثانيا، فرأيت امرأة منقبة عليها إزارها، فهزت السرير، وقالت: قم فقد طلع الفجر ألم يشترط عليك أبي أن تزوره فيشفيك؟

فقلت: ومن أبوك؟ قالت: الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فقلت: ومن أنت؟ قالت: أنا المعصومة أخت الرضا عليه السلام، فانتبهت متحيرا في أمري ما أصنع وأين أذهب؟ فوقع في قلبي أن أذهب إلى بيت السيد الأيد السيد الراضي البغدادي، الساكن في محلة الرواق منه، فمشيت إليه فلما دقت الباب نادى من أنت؟ فقلت: افتح الباب، فلما سمع صوتي نادى بنته افتحي الباب، فإنه نصراني يريد أن يدخل في الإسلام، فقلت له بعد الدخول: من أين عرفت ذلك؟ فقال: أخبرني بذلك جدي عليه السلام في النوم، فذهب بي إلى الكاظمين عليه السلام، ودخل بي على الشيخ الأجل الشيخ عبد الحسين الطهراني أعلى الله مقامه فحكيت له القصة، فأمر بي أن يذهب إلى الحرم المطهر، فذهبوا بي إليه وأطافوا بي حول الشباك ولم يظهر لي أثر.

فلما خرجت منه تأملت هنيئة وعرض لي عطش فشربت الماء، فعرض لي اختلاط، ف وقعت على الأرض، فكأنه كان على ظهري جبل فحط عني، وخرج نفخ بدني، وبدل اصفرار وجهي إلى الحمرة، ولم يبق في أثر من المرض، فرجعت إلى بغداد لأخذ مؤنتي من مالي، فاطلع أهلي وأقاربي، فأخذوني وذهبوا بي إلى بيت فيه جماعة فيها أمي، فقالت لي: سود الله وجهك، ذهبت وكفرت، فقلت: ترين ما بقي من مرضي أثر، فقالت: هذا من السحر، ونظر سفير الدولة الانكليزية إلى عمي، وقال: إذن لي أن أؤدبه، فإنه قد كفر اليوم، وغدا يكفر جميع طائفتنا، فأمر بي فجردوني واضجعوني وضربوني بالآلة المعروفة بقرباچ، وهو مشتمل على شعب من السيم الموضوعة على رأسه شبه الأبر، فجرى الدم من أطراف بدني، ولكن لم يؤثر فيه من جهة الوجع والألم، إلى أن وقعت أختي نفسها علي فكفوا عني، وقالوا لي: اقبل على شأنك، فرجعت إلى الكاظمين عليه السلام، ودخلت على الشيخ المعظم فلقنني الشهادتين، وأسلمت على يديه، فلما كان وقت العصر بعث المتعصب العنيد (نامق باشا) رسولا إلى الشيخ ومعه كتاب فيه:

إن رجلا أتى إليك ليسلم، وهو من رعايانا وتبعة الإفرنج، فلا بد أن يسلم عند القاضي، فأجابه: إن الذي ذكرته أتى عندي ثم ذهب لشأنه، وأخفاني وبعثني إلى كربلاء، واختنتت هناك، وزرت المشهد الغروي، ورجعت، ثم بعثني مع رجل صالح من أهل اصطهبانات من توابع شيراز إلى العجم، وكنت في القرية المذكورة سنة، فلما دخلت بلد الكاظم عليه السلام تحرك في عرق الرحم، واشتقت إلى لقاءهم، وذكرت

ذلك للشيخ الأجل الأفقه الشيخ مُجَّد حسن الكاظمي المدعو بياسين جعله الله في درعه الحصين، فمنعني وقال: أخاف أن يلزموك، فإما أن تعذب أو ترجع إلى النصرانية، فرجعت عن قصدي، ورأيت في تلك الليلة في النوم كأني في برية واسعة مخضرة من النبات، وفيها جماعة من السادة وكان رجل واقف فيها، فقال لي: لم لا تسلم على نبيك؟ فسلمت عليهم، فقال لي أحد السيدين اللذين كانا مقدمين على جميعهم أتحب أن ترى أباك؟ فقلت: نعم، فقال لذلك الرجل: إذهب به إلى أبيه ليراه، فذهب بي فرأيت جبلا مظلمًا يستقبلني، فلما قرب مني استحر الهواء فصار مثل الصيف وارتفع صوت وفتح منه باب صغير يشتعل نارا يصيبي شررها، وسمع من داخله صياح إنسان، وكان أبي، فاستوحشت فردي إلى السادة، وكانوا يضحكون علي، وقالوا: أتريد أباك بعد هذا؟ فقلت: لا، ثم أمروا بي أن اغتسل في حياض كانت هناك، وهي سبعة فاغتسلت بأمرهم في كل واحد منها ثلاث مرات، ثم أتى لي بثياب بيض فلبستها، وانتبهت من النوم، فرأيت بدني يحك وخرجت من محل جميعه دماميل كبار، وذكرت ذلك للشيخ الأجل فقال: ذلك مما في بدنك من لحم الخنزير، وأثر الخمر، يريد الله أن يطهرك منه لما أسلمت، وكان يخرج منها القروح إلى أسبوع، وانصرف عن عزمه زيارة أهله، ورجع إلى محل هجرته وتزوج فيه، واشتغل بذكر قراءة مصائب أبي عبد الله عليه السلام، وهو الآن به، وله أهل وأولاد وتشرف في خلال تأليف الكتاب مع أهله بزيارة

أئمة العراق عليهم السلام ثانياً، ثم رجع كثر الله تعالى أمثاله وأصلح باله وأحسن مآله ^(١).
وإنما ذكرنا هذه القصة بطولها لأنها اشتملت على ذكر السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام وأنها
كانت أحد أسباب اللطف الإلهي لصاحب القضية.
هذا، وقد أحصى بعض الباحثين بعض كرامات السيدة المعصومة فعد منها مائة كرامة، ونختار
نماذج منها.

فمنها: ما كتبه العالم والخطيب القدير الشيخ جوا نمر، عما جرى من كرامة السيدة فاطمة
المعصومة عليها السلام لإحدى بناته فقال: في عام ١٣٦٣ هـ ش (أي قبل حوالي خمسة عشر عاماً)
رزقنا الله بنتاً أسميناها (أسماء) وما إن مضى شهران على ولادتها حتى أصيبت بمرض الاختناق
وضيق التنفس.

تصورنا في البداية أن المرض هو (ذات الرئة) الربو، فأخذناها إلى طبيب مختص بأمراض
الأطفال، وكان تشخيصه الأولي أنها مصابة بالربو، فأدخلناها مستشفى آية الله الكليبيگاني،
وبقيت فيه اثني عشر يوماً تقريباً، تعالج عن هذا المرض، وقد وضعت في الحاضنة، ولكن لم يظهر
أي أثر للعلاج.

وبعد اثني عشر يوماً أخذناها إلى طبيب آخر مختص بأمراض الحنجرة والأنف ووصف دواء
ولكن بلا فائدة.

(١) دار السلام ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧١.

ثم انتقلنا إلى طهران ففعل تشخيص المرض يتم هناك، وبعد مراجعة عدة مستشفيات تقرر أخيرا إدخالها مستشفى (إخوان طهران) المتخصص لعلاج الأطفال.

وبقيت راقدة في المستشفى لمدة شهر كامل، كانت تعيش خلالها على التنفس الصناعي والمغذي المائي - المنعش - عن طريق الوريد.

وبعد الفحوصات الطبية أخبرونا عن احتمال وجود جسم غريب في رئتها، وهو السبب في أصابتها بحالة الاختناق وضيق التنفس، وقالوا: لا بد من إجراء عملية بالمنظار لاكتشاف ذلك الجسم الغريب، إلا أن هذا الجهاز غير موجود في المستشفى، وذكروا أيضا أن إجراء هذه العملية ربما يؤدي بحياة الطفلة نظرا لصغر سنها، خرجنا من المستشفى ولم يكن لنا بد من الرجوع إلى قم، وقد اشتدت حالة الاختناق عندها، فلم تعد قادرة على الأكل والنوم.

وعلى أثر إصرار أمها عدنا بها إلى طهران مرة أخرى، وأدخلناها مستشفى المفيد في طهران، وبقيت على الفراش اثني عشر يوما، وأجريت لها عملية المنظار وتبين أن الرئتين سليمتان، وقالوا لنا: من المحتمل أن تكون عضلات الحنجرة مصابة بارتخاء، وهو السبب في حالة الاختناق وضيق التنفس.

خرجنا من المستشفى بلا فائدة ورجعنا إلى قم ونحن في حالة شديدة من اليأس.

بعد يومين أو ثلاثة قررت أم الطفلة أن تصوم وتلتجئ بها إلى حرم السيدة الجليلة فاطمة

المعصومة عليها السلام.

صامت الأم في ذلك اليوم، وفي الليل أخذت طفلتها وذهبت بها إلى الحرم الشريف، وكانت قد قالت لأحد أولادها أن يأتي إلى الحرم في الساعة الثانية عشرة ليلاً ليرجع بها إلى المنزل. وفي الموعد ذهب الولد إلى الحرم ليأخذ أمه إلى المنزل فقالت له أمه: إلى الآن لم تظهر أي نتيجة، ارجع وسأبقى إلى الصباح.

تقول الأم: بقيت إلى الصباح في الحرم مشتغلة طيلة الوقت بالدعاء والبكاء، وقد ربطت الطفلة بمنديل في ضريح السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام، وهي في تلك الحالة من الاختناق وضيق التنفس، وكان كل من يراها فكأنه يرى أن الموت على بعد خطوات منها. كنت بين حين وآخر أضع في فم الطفلة ملعقة من الماء الممزوج بالسكر، فقالت لي نسوة هناك: لا تؤذي الطفلة ودعيها وشأنها.

حتى إذا أذن لصلاة الصبح تركت الطفلة وابتعدت قليلاً عن الضريح، وبعد أن صليت الفريضة اعتزتي حالة تغيرت فيها أحوالي وصرت أسائل نفسي: كيف أرجع بهذه الطفلة بلا فائدة؟ هناك قلت:

إلهي لم يبق لي أمل سوى قبر السيدة المعصومة، وإلى هذه اللحظة لم تظهر أي نتيجة. بكيت قليلاً وجئت إلى الطفلة لأفتح المنديل ويا للعجب رأيت الطفلة قد نامت في وقت ما كانت تستطيع فيه أن تنام، لم أخبر أحداً بشيء وفتحت المنديل، ولم تكن الدنيا تسعني من الفرحة والسرور، وأخذت الطفلة وتوجهت بها إلى المنزل.

بقيت الطفلة نائمة إلى الظهر وبعده استيقظت من نومها، فشربت

الحليب وهي في صحة تامة.
وقد من الله سبحانه وتعالى على ابنتي بالشفاء الكامل ببركات قبر السيدة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام.
وقد مضى على هذه الحادثة عشر سنوات وهذه الطفلة في الصف الرابع الابتدائي، وهي تلميذة متفوقة في دراستها كما أنها ملتزمة بالصلاة وسائر المسائل الشرعية، وذلك من أطراف كريمة أهل البيت عليهم السلام ^(١).
ومنها: ما نقله الميرزا موسى فراهاني عن مسؤول حراسة حرم السيدة المعصومة عليها السلام أنه في ليلة من ليالي سنة ١٣٠٠ هـ، كنت أتولى فيها الحراسة فجئ بامرأة من كاشان مصابة بالشلل للاستشفاء وربطت بالضريح.
وفي الساعة المقررة لإغلاق أبواب الحرم بقيت هذه المرأة في الحرم وأغلقت الأبواب، وكنت خارج الحرم أتولى الحراسة.
بعد منتصف الليل سمعت صوت المرأة وهي تقول: لقد شافتي.
فتحت باب الحرم ورأيت تلك المرأة السعيدة وقد شفيت، فسألتها عن كيفية شفائها، فقالت: أصابني العطش الشديد وخجلت أن أدق الباب وأطلب منك الماء، ولذا نمت بعطشي، فرأيت في منامي أنها أعطتني قدحا من الماء، وقالت: اشربي هذا الماء وستجدين الشفاء.
فشربت الماء وانتبهت من النوم ولا أثر للعطش ولا للمرض ^(٢).
ومنها: ما نقل متواترا عن المرحوم السيد محمد الرضوي أحد

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٢١٦ - ٢١٩.

(٢) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٢٥٦.

خدام الحرم المطهر، قال: في ليلة رأيت السيدة المعصومة في عالم الرؤيا وهي تقول: قم وأضئ مصابيح المنائر، فانتبهت من نومي، ونظرت إلى الساعة فرأيت أنه بقي أربع ساعات إلى أذان الصبح، فعدت إلى النوم ثانية، فرأيت نفس الرؤيا بعينها، ولكنني عدت إلى النوم، وفي المرة الثالثة رأيت نفس الرؤيا وقالت لي بغضب: ألم أقل لك أن تقوم وتضئ مصابيح المنائر؟ قمت وأضأت المصابيح، وكان الجو شديد البرودة والثلج يتساقط بغزارة وقد غطى الأماكن.

وفي اليوم التالي كان الجو صحوا، وكنت واقفا في الصحن المطهر فرأيت جمعا من الزوار يتحدثون وأحدهم يقول للآخر: كم يجب علينا أن نشكر هذه السيدة، ولو تأخرت إضاءة المصابيح دقائق معدودة لهلكنا من شدة البرد.

فتبين أن هؤلاء الزوار على أثر تساقط الثلج بغزارة واختفاء معالم البلد قد ضلوا الطريق، وبقوا في وسط الصحراء، ولكن لما أمرتني السيدة بإضاءة المصابيح بانتهت معالم المدينة لهم وأوصلوا أنفسهم إليها، ونجوا من أذى البرد وشدته^(١).

ومنها: ما نقله من كتاب قصص العلماء للميرزا الحاج محمد التنكابني المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ، قال: في إحدى زياراتي لحرم السيدة المعصومة عليها السلام مرض ولدي وزوجتي مرضا شديدا، وأشرفا على الموت، فجئت إلى حرم ابنة باب الحوائج، وقلت: نحن جننا من مكان

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٢٧٣.

بعيد ولدنا بباب بيتك، ولا نتوقع أبدا أن نرجع من عندك بالحزن ورغم الأنف والخيبة، وفي نفس تلك اللحظة شفي كلا المريضين وأنقذا من حافة الموت ^(١).

ومنها: ما نقل عن المرحوم الحاج الشيخ محمود علمي الذي كان متوليا على المدرسة الفيضية من قبل آية الله البروجردي، أنه قال: في زمان المرحوم آية الله الحائري مؤسس الحوزة العلمية في قم المتوفى في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٥ هـ، كنت أرى شخصا عاجزا لا يستطيع أن يجمع رجليه، وكان يتكئ على يديه ويسحب بدنه زاحفا على الأرض، وكان يأتي على هذه الحالة إلى الحرم للزيارة من دار الشفاء عن طريق المدرسة الفيضية. فسألته يوما عن حاله، فقال: أنا من أهل القفقاز (آذربيجان) وعروق رجلي يابسة، ولا قدرة لي على المشي، وقد زرت مشهد الإمام الرضا عليه السلام للاستشفاء ولكن بلا فائدة، فجئت ولعلي أجد الشفاء هنا.

وكان من المتعارف في ذلك الوقت أنه إذا حدثت كرامة من كرامات السيدة المعصومة عليها السلام تضرب النقارة ويسمع صداها إعلاما لعامة الناس بما وقع.

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان رأيت النقارة تضرب، وسمعتهم يقولون إن السيدة المعصومة قد شافت شخصا مصابا بالفالج.

كنت مع بعض الأصدقاء في سفر إلى أراك وركبنا عربة تجرها

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٢٥٠.

الخيول، وخرجنا من قم إلى أراك فلما وصلنا إلى مسافة تبعد عن أراك ستة فراسخ وإذا بنا نرى ذلك الشخص الكسيح العاجز عن المشي ورجلاه سليمتان وقد عوفي من مرضه تماما، وكان عازما على زيارة كربلاء مشيا على قدميه، فأركبناه في العربة معنا حتى أوصلناه إلى أراك^(١). ومنها: ما نقله عن صاحب كتاب أنوار المشعشين أنه قال: أذكر أن جملا قد آذاه صاحبه، فالتجأ إلى حرم السيدة المعصومة، وبرك مستريحا في أسفل الإيوان حتى جاء صاحبه وأخذه. وقد جرى نظير ذلك في حرم الإمام الرضا عليه السلام حيث التجأ إلى حرمه عليه السلام جمل، وذكرت قصته ونشرتها الصحف والجرائد^(٢).

وذكر المرحوم الشيخ فرج العمران - أحد أبرز علماء القطيف - المتوفى سنة ١٣٩٨ هـ في كتابه الأزهار أنه شاهد في حرم الإمام الرضا عليه السلام حادثة مشابهة فقال: وفي صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من الشهر المؤرخ - أي ربيع الثاني عام ١٣٩٤ هـ - التجأ ستة أباعر إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام، وكان مكانها يبعد عن المشهد المقدس أربع ساعات، والموجب إلى التجائها أن أهلها أرادوا ذبحها، ولما وصلت إلى الصحن الشريف عتقت من الذبح، وأمر أن تجعل في بستان من بستان الإمام الرضا، وقد خير مالکها بين أخذ ثمنها وبين تخلية أمرها، واختار أن يخلوا أمرها فضمن لمالکها مدفن في الصحن الشريف مجانا،

(١) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٢) كريمة أهل البيت عليهم السلام ص ٢٩٢.

وذلك كله من بركات الإمام الرضا ضامن الجنة وممن رآها جمع كثير...
وقد سبق نظير هذه الحادثة أكثر من مرة، ولا عجب من كرامات أهل البيت، فإنهم ملجأ
الخائفين وأمان المروعين.

و بمناسبة هذه الكرامة أنشأ الفاضل الشيخ محسن بن الحاج علي بن صالح المعلم من أهل
الجارودية هذه الأبيات الآتية:

يا ملاذ الأنام يا حجة الله على الخلق أنت حاوي المعاجز
عصمة الملتجئين والله أنتم مأمّن الخائفين عند الهزاهز
والمطايا ببابكم لاجئات عائدات منكم بأسنى الجوائز^(١)

ونكتفي بهذه النماذج القليلة من كرامات السيدة المعصومة عليها السلام ، وأما ما ذكر من كراماتها
فهو فوق حد الإحصاء، وهي شواهد على أن هذه السيدة الجليلة بابا من أبواب الرحمة واللفظ،
وقد جعلها الله تعالى ملاذا للعباد تقضى عندها حوائجهم، وتستجاب عندها دعواتهم، ويحظون
بالخير والبركات، فإن لها عند الله شأننا من الشأن.

(١) الأزهار الأرجية ج ١٥ ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

السيدة المعصومة عليها السلام في ضمائر الشعراء

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
وأغراض الشعر كثيرة، منها ما هو حق وصدق، ومنها ما هو باطل وعبث.
وللشعر دور مميز في هز المشاعر، وتحريك العواطف، وتوجيهها نحو الاستقامة، أو نحو المجون.
وما كان منه في خدمة الحق والحقيقة وتوجيه النفوس نحو الفضيلة فهو في نظر أهل البيت
عليهم السلام موضع عناية وتكريم.
وفي الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام ما يدل على اهتمامهم بالشعراء الذين وظفوا القوافي في
خدمة الحق والأخلاق الفاضلة، ولا سيما يوم كان الشعر في قوته ونفاذه أمضى من السيف
والسنان، وفي تأثيره أقوى من السحر، وفي طليعة أولئك الشعراء: الكميث، والسيد الحميري،
ودعبل الخزاعي، وآخرون.
وقد حث الأئمة عليهم السلام شعراء الشيعة على تجنيد شعرهم وشعورهم في نصره الحق وأهله،
ومقارعة الباطل وأهله، والدعوة إلى الخير والفضيلة والصلاح.
ولسنا في مقام الحديث عن الشعر والشعراء، وإنما أردنا بما ذكرنا أن نصل إلى القول: إن لكريمة
أهل البيت عليهم السلام من شعر الشعراء نصيبا وافرا.
وإذا كان من أهم أغراض شعراء الشيعة نشر الفضيلة والحث عليها امتثالاً لنداءات أئمتهم
عليهم السلام فإن السيدة المعصومة عليها السلام قد جسدت

الفضيلة والطهر والعفاف، ولا غرو بعد ذلك أن نجد الشعراء - من العرب وغيرهم - يقررون هذه الحقيقة ويمجدون الطهارة والشرف من خلال قصائدهم التي مدحوا فيها كريمة أهل البيت عليهم السلام.

وقد اخترت - مما اجتمع لدي من قصائد في شأن السيدة المعصومة عليها السلام - قصيدتين تعربان عن صدق الولاء وعمق المودة.

الأولى للأستاذ معروف عبد المجيد محمد، والثانية للسيد محمد بن حمود العمدي. وإنما اخترت هاتين القصيدتين وآثرت إدراجهما في هذا الكتاب لأن كلا الشعارين قد امتازا بأتهما ممن بحث عن الحقيقة حتى ظفرا بها في حمى أهل البيت عليهم السلام، واستقر بهما النوى ^(١) في حريم التشيع، وأصبحا من شيعة آل محمد عليه السلام.

وتلك النعمة الكبرى التي من الله تعالى بها عليهما فهدهما لدينه ووفقهما لما دعا إليه من سييله، فليحمدا الله عليها كثيرا. وأما القصيدتان فهما:

فاطمة المعصومة سمية الزهراء ^(٢)

(١) (واستقر بي النوى) كتاب ألفه شاعرنا السيد محمد بن حمود العمدي وذكر فيه أسباب تشييعه وركوبه سفينة النجاة، صدر الكتاب عن مركز الأبحاث العقائدية في قم، وطبعته الأولى سنة ١٤٢٠ هـ.

(٢) للأستاذ معروف عبد المجيد محمد، وهو من مواليد عام ١٩٥٢ في مدينة القليوبية بمصر، درس الآداب واللغات السامية في جامعة الأزهر في مصر، والنقوش السامية في جامعة روما في إيطاليا، والآثار الكلاسيكية اليونانية والرومانية في جامعي زيورخ في سويسرا وغوتنغن في ألمانيا. يجيد عددا من اللغات الحية والقديمة عمل في الترجمة والتدريس الجامعي. اعتنق مذهب أهل البيت عليهم السلام سنة ١٩٨٤. صدر له: «أنا الحسين بن علي» رواية «معلقة على جدار الأهرام» شعر «أحجار لمن تحفو لها نفسي» شعر «وينصبون عندها سقيفة» شعر «بلون الغار... بلون الغدير» شعر.

جرح الأحبة فاغر ما التاما
نار الصبابة لا تحرق عاشقا
أنا طائر فوق الجبال مقسم
لم يمض عصر المعجزات، فعاودي
بعثي ونشري من يدك، وجنتي
يفري، ولا ندري له إيلا ما
وتكون بردا فوقه وسلاما
إربا، فمن ذا يجمع الأقسام
عهد الوصال وجددي الأيام
عيناك، طابا للمحب مقاما

* * *

ركب الفواطم ما يزال مسافرا
يمضي، فلا الأيام تقطع سيره
وعليه من ألق النبوة مسحة
مروا يريد، وروضة، وإماما
ويزيده طول النوى إقداما
أضفت عليه المجد والإعظاما

ومن الحسين بقيّة لدمائمه
يا أيها الحادي حداؤك هديني
عرج على قم، فإن لنا بما
شهد الحوادث منذ أول عهده
ظهرت به للعالمين خوارق
حطوا الرحال، فإن للشاوي به
يا قبر فاطمة بقم تحية
طاب الضريح وضاع من شباكه
واصطفت الأملاك في ظلل الحمى
وأتى الحجيج من الفجاج قوافلا
حرم أتاها الخائفون فأبدلوا

صبغت بجمرة لونها الأعلاما
لما ذكرت الأهل والأرحاما
قبرا على كل القبور تسامى
ومن الحوادث ما يكون جساما
تسبي العقول وتدهش الأفهاما
عهدا يصران وحرمة وذماما
من مدنف - يا قبرها - وسلاما
أرج النبوة يغمر الآكاما
زمرنا تسبح سجدا وقياما
تسعى إليه وقد نوت إحراما
أمننا، ونال الطالبون مراما

عش لآل مُجَّد يهفـو له
يا بنت موسى، والمناقب جمـة
أخت الرضا، إني أتيتك ناشرا
يا عمـة الجواد، كفك والندى
أنا زائر يرجو الشفاعة، فاشفـعي
أهل الوداد محبة وغراما
لا يستطيع بها الورى إماما
صحفا تفيض خطيئة وأثاما
وأنا ببابك أسأل الأنعاما
لي في الجنان، فقد قصدت كراما

* * *

أنا قادم من مصر أنزف حرقة
ودعت زينب غير ناس فضلها
وهي التي في الطف كم أبدت حجي
ومعي من السبط الشهيد شواهد
لي بالحسين وبالعقيلة لحمـة
شقت لي الدرب العسير، وبددت
أخفي الشقاء وأكتم الآلاما
وهي العقيلة كم رعت أيتاما
تحت السيوف وسفـهت أحلاما
علقتها فوق الصدور وساما
كانت لنفسـي في الخطوب عصاما
في النازلات حلوكـة وظلاما

فمضيت أبداع للولاء قصيدة
وأقيم للدين القويم دعائما
ومع الحسين أقود أعنى ثورة
وأرى الرعيية - رغم ذل - ذروة
وأرى العقييدة عزة وكرامة
وأرى التثاقل يوم نفر ردة
وأرى الإمامة بيعة مفروضة
وأرى كهوف البائسين عمائرا
سأقيم في مصر العتييدة قلعة
النيل لن يدع الحسين مجدلا
كلا، ولن يدع الدعي لغيه

وأوقع الألمان والأنغاما
وأحطم الأوثان والأصناما
كانت لسلطان الطغاة ضراما
وأرى الملوك أمامها أقزاما
وأرى الكفور معرة ورغاما
وأرى الجهاد تزكيا وصياما
وأرى الخلاقة فلتة وحراما
وأرى قصور المالكين حطاما
وأزيل - رغم رسوخها - الأهراما
عطشان يشكو الصد والإحجاما
يسيبي ويحرق حرمة وخياما

يا بنت موسى إن في قم التي
من قم يبتدئ الكلام وبعدها
ويسجل التاريخ بالدم صفحة
خسأت فراعنة الزمان، وكم هوى
ضمتك عزا شامخا وسناما
تغدوا الحروف أسنة وسهاما
حمراء تقطر نفضة وقياما
عرش لنرفع فوقه الإسلام! (١)

* * *

(١) بلون الغار... بلون الغدير ص ١٧٩ - ١٨٣.

من عشق المستجدين (١)

سعدت لياليه بخير هيام في مدح من ولدت لخير إمام
في مدح من برقت بهاجرة الجوى أنعامها فهدت إلى إنعامي
ما بال من ندعو يلّم بغيرنا وكأننا من ليس للإبرام
يرجى ويعطي الساع خير عطية من خير ما عزبت عن الأوهام
المم بنا يا صاح إن عطاءنا ما ليس يعلوه ذوو الإنعام
نحن الأولى عقداً كل عصابة حلت بنا هيهات لست بعامي
أنا بنت من؟ أدعوك إيت جوارنا فتروح ثم تحال للأقزام

(١) للسيد محمد بن حمود بن أحمد العمدي، وهو من مواليد عام ١٩٧٥ في مدينة ذمار باليمن، اتجه لطلب العلم منذ صغره في مدينتي ذمار وصعدة، اعتنق مذهب أهل البيت عليهم السلام الإمامي الاثني عشري سنة ١٤١٣ هـ، له من الكتب والأبحاث « رحلة عقل » دراسة موضوعية مقارنة لمباني نظرية الإمامة عند الزيدية والإمامية، « الزيدية والإمامية جنباً لجنب » « إلى الله » ديوان شعر « واستقر بي النوى ».

كم معدم قد جاء كاد لحرقة
حدرت على خديه دمعة فاقد
لم يرتفع طرفاه حتى حملت
كم سائل قد جاء يطلب منزلا
كم ذي هموم جاء يطلب كشفها
كم ذي حشي يلتاع جاء وناره
لم يبق - طرف العين - إلا وانبرى
أن يسلم الأعناق للإعدام
لمناه حتى الحلم في الأحلام
أرزاقنا بيديه من إكرام
فمننت بالإسكان خير مقام
فمضى قريير العين صاحب هام
شبت بجسم طاح في الإضرام
في برده يحتال بعد سلام

* * *

أنا بنت موسى الكاظم الغيظ الذي
باب الحوائج ذاك والدي الذي
أرن بطرفك نحو كاظمة ترى
أنا فاطم هاتيك قالت إيتنا
ما انفك في عنت من الظلام
يعطي الفقير نوال كل مرام
نورا يشع إليك يا متعامي
إن شئت في حرم ومنزل سامي

حرم لعزتنا، لأهل البيت من
يا بنت خير الناس إني ضارع
سبعا عكفت بباب مرة وانقضت
وأتيت وا ويلاه بعد عصبية

يقدمه يلحق الطهر صدق كلام
وأنا غريب الدار في الأطم
كالطيف، لا يرجوه ذو الأفهام
أرجو الورى، أواه أي منام

* * *

أنا عبد، الشيطان ألقى منية
وتقاذفت أيديه فكرتي التي
ويحي ألسنت إليك أدعى منتسبا
ولم قصدت اليد ضلة غافل
فأتى على واديه ألفي قفره
وأتى سرايا ثم عل رماله
ترك الذرى العلياء مثل مشكك

في قلبه التيهان شر لجام
شطحت بمدح السلات والأزلام
فلم انحدرت لتيهة من طام
متدهده ألهاه طيف جهام
قد ضج من إقفاره المترامي
آه له ما كان من قحام
في أمرها في العقيد والإبرام

* * *

وهم الأولى مالأوا بذكرهم الدنا
من مثل فاطمة كريمة بيتها
روحي فداها اليوم يوم ولادة
يا يوم مولدها ويوم تنزل
يا خير يوم فيك سيدتي لها
يوم تكشف فيه غمي كله
مولاة أمري أنت سيدة الدنا
حياك رب الكون ما طلعت بها
ويعزهم والفخر والإعظام
بيت الإله الخالق العلام
سعدت بها الدنيا مدى الأيام
الأملاك للتطواف والإحرام
هبة، وكم وهبت مدى الأعوام
وهمومي انفرجت وفك زمامي
ومليكة الدنيا وكل ذمام
شمس وما قمر عفى بظلام

* * *

حياك ما نفرت لقم فرقة
حياك ما علم تاللاً في سما
دعيت لدين الله والإسلام
حكم لأهل البيت بالإعلام

حياك ما رجعت لقم أمة
حياك ما عرفت بأرضك فرقة
كم منحة تهدين، ليس لمنحها
وأتيت اليوم بعد التيه أسأل منحتي
لكن أتيت اليوم بعد تيقظي
وهباتك، الإحصاء يقصر عندها
لهداية الأفذاذ والأعلام
هوت الحقيقة ليس أي ركام
أحد يرجى اليوم يومي الدامي
وأقر أني الأمس في أوهامي
لعطاك للأيتام والأرحام
وهباتك، الرحمات لا كلام

* * *

يا خير من أدعوه ينجز طلبتي
يا بنت من ولدوا لخير مسود
يا أخت مولى الكون مولانا الرضا
يا عممة المولى الجواد المقتدى
آل السما أنتم أئمة قلبي
وتقر عيني، عند بيت كرام
علم الهدى الأواه والمقدام
سلطان طوس، آه يا إمام
سمح العطايا القرم ياهمام
المضنى من الأعيان والأقوام

يا داخل الحجرات سلم هاهنا جريل حتى هو أتى بسلام
واخفض فثم النور يهـر طرفك الحـيران وادع الله باسـتعـظام
وقل السلام عليك مولاتي أنا تيهان، لا يأويه بيت حامي

* * *

صلى عليك الله مولاتي أنا التيهان والعمدي اسمي الظامي^(١)

(١) ديوان « إله الله » مخطوط.

عش آل محمد ﷺ

تتميز مدينة قم المقدسة اليوم عن سائر المدن الإيرانية بأنها الحاضرة العلمية الكبرى للشيعة، وقد ازدهرت الحركة العلمية فيها بعد هجرة أكثر العلماء إليها من النجف الأشرف خلال الثلاثين عاما الماضية.

وعلى الرغم من أن لمدينة مشهد قدسية خاصة في نفوس الشيعة تتجاوز ما لمدينة قم من القداسة والمكانة لأنها تتضمن المرقد الشريف للإمام الثامن من أئمة أهل البيت عليه السلام إلا أن الحركة العلمية في مدينة قم أكثر نشاطا وازدهارا. فإنها تضم عشرات الآلاف من طلاب العلوم الدينية في مختلف المراحل العلمية، ومن مختلف أنحاء العالم، كما استوطنها كثير من الإيرانيين وانتقلوا إليها من مدنها وقراها المختلفة.

ويعود تأسيس الحوزة العلمية إلى أكثر من سبعين عاما على يد المرحوم آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري المتوفى عام ١٣٥٥ هـ، وكانت الحوزات العلمية آنذاك تتوزع بين طهران وأصفهان وشيراز

ومشهد وبعض مدن المنطقة الجنوبية وبعض المدن الأخرى.
ومنذ تأسيس الحوزة في قم أخذت الحركة العلمية تضعف في غيرها حتى أصبحت هي الكبرى،
واتجهت إليها الأنظار وصارت تالية للحوزة الأم النجف الأشرف.
أما اليوم فهي المهجر العلمي الكبير للدراسات الدينية العليا لمذهب أهل البيت عليه السلام ولا
سيما بعد أن انحسر أكثر العلماء عن النجف الأشرف واضطرتهم الظروف للرحيل عنها، وغادرها
أكثرهم إلى قم.
ولكن تبقى للنجف الأشرف خصوصياتها وآثارها فهي الحوزة الأم حتى أن الكوفة الكبيرة
أصبحت إحدى نواحيها، وأما قم فهي الكوفة الصغيرة.
وتعود شهرة النجف الأشرف العلمية إلى اليوم الذي استوطنها شيخ الطائفة الطوسي (قدس
سره)، وأسس فيها حوزته العلمية الكبرى فأصبحت منطلق الفكر الشيعي، ومركز المرجعية الشيعية
عبر القرون، وقد تخرج منها مئات الآلاف من العلماء، وإلى يوم الناس هذا، فإن القائمين على
الدروس العليا في حوزة قم إنما هم خريجو مدرسة النجف الأشرف، حتى أن مؤسس الحوزة في قم
هو أحد خريجي مدينة النجف الأشرف.
ولو أن النجف الأشرف تعود إلى سالف عهدها لما بقي في قم

وغيرها من المدن الأخرى من أهل العلم وطلابه إلا القليل ممن يقعده العجز، أو ينقصه العزم، أو لا يجد في نفسه الطموح.

وكم سمعنا آهات الحسرة والاشتياق إلى النجف ومرابعها ممن قهرته الظروف وأرغمته على مغادرتها.

وحسبك أن في النجف باب مدينة العلم، ومنبع الفيض والعطاء، وإمام المتقين أمير المؤمنين عليه السلام، وإن في جوار المرتضى معنى لا يحوم حوله البيان.

وأما اختصاص مدينة قم عما عداها من سائر المدن باحتضان العلم والعلماء فلعله يعود إلى خصوصية في أرض قم كما كشفت عنها الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام - كما سيأتي - إضافة إلى ما تتمتع به هذه المدينة المقدسة من الأصالة والعراقة في ولاء أهل البيت عليهم السلام، فإنها كانت إحدى قلاع التشيع عبر القرون.

ويرجع الوجود الشيعي في هذه المدينة إلى الربع الأخير من القرن الهجري الأول يوم استوطنها الأشعريون فرارا من ظلم بني أمية في الكوفة ونواحيها.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: وقصة ذلك أنه بعد أن قتل الحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، مُجَّد بن سائب الأشعري، وكان عميدا لقبيلة الأشاعرة، أخذت النكبات (تنزل) تترى على هذه القبيلة من قبل الحجاج وسائر عمال الدولة الأموية، فاعتزم رؤساؤها

ورجال الفكر فيها على ترك أرض العراق بأفراد قبيلتهم قاصدين ناحية أصفهان من إيران .
ولما كان من أكبر رؤساء هذه القبيلة الشقيقان عبد الله والأحوص ابنا سعد بن مالك
الأشعري، وكانا في سجن الحجاج الذي أضطر إلى إطلاق سراحهما تحت ظروف سياسية قاهرة،
ملزما إياهما البقاء في الكوفة .

ولما كان هذان الشقيقان يشعران بأن مصيرهما سيكون مصير بقية رجال الشيعة، فقد تركا
الكوفة تحت جناح الظلام متنكرين، واتجها نحو أصفهان يرافقهما شطر كبير من رجال قبيلتهما
الأشاعرة، ونزلوا على ضفاف نهر قم .

وفي اليوم الثاني من نزولهما هذه الأرض شاهد بعض رجال قبيلة الأشاعرة أن سكان هذه
المنطقة الأصليين يدخلون مواشيهم في قلاع عالية الجدران ويغلقون عليها أبواب القلاع ومنافذها .
ولما سألوهم عن سبب ذلك أجابوهم خوفا من غزو عشائر الديلم التي تغزوهم كل سنة في مثل
هذا الموسم فتنهب وتقتل، وقد وصلت هذه العشائر في غزوها الآن إلى بضعة فراسخ من هذه
القرية .

وحينما سمع الأحوص ذلك نادى في رجال قبيلته برد غزو عشائر الديلم، وأن على رجال
القبيلة الدفاع عن مواشيهم ونسائهم وأطفالهم الذين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، ولا قلعة
لهم يصونون بها

أعراضهم وأموالهم، وحينما اقتربت عشائر الديلم من الأحوص وقبيلته بادرها الأشعريون بهجوم عنيف قضى على تلك العشائر وردها على أعقابها بعد أن تركت عددا كبيرا من القتلى والجرحى، واستطاع الأحوص بذلك إنقاذ قبيلته ورد العادية عن المتحصنين في القلعة من السكان الأصليين. أما عشائر الديلم فنكصوا على أعقابهم ولم يعودوا بعد ذلك إلى غزو هذه الناحية وقراها. وقد اتصل رؤساء السكان الأصليين بكل من الشقيقين عبد الله والأحوص شاكرين لهما ولأفراد قبيلتهما صنيعهم، ومقدمين لهم الهدايا، وملتجئين منهم عدم النزوح عن هذه الأرض والاستيطان فيها كمزارعين مستغلين لها، مستفيدين من مراتعها، فتقبل الشقيقان هذا الاقتراح واستوطنت قبيلتهما هذه الناحية التي عرفت فيما بعد بقم. وتمرور الزمان التحق بقية رجال قبيلة الأشاعرة بهؤلاء مهاجرين من العراق، ومستوطنين هذه الناحية.

وهكذا تم سكن قبيلة الأشاعرة ضفاف نهر قم، وأخذوا ينشرون فيها التشيع. وقد تم ذلك كله خلال عشر سنوات بدأت سنة ٧٣ هـ وانتهت سنة ٨٣ هـ. ثم تفرق بعض أفخاذ هذه القبيلة في المناطق المتاخمة لقم

ككاشان، وآوه، وساهو، والقرى الممتدة بين قم وأصفهان .
وقد دلت الروايات على أنه كان لطلحة بن الأحوص دور هام في تمصير مدينة قم بعد أن
استوطنها رجال قبيلته، وإنه أول من شرع ببناء العمارة فيها بالآجر بعد الإسلام.
إن مدينة قم التي يعود الفضل لتأسيسها على شكل مدينة شيعية عامرة بمكان قصبة صغيرة
لبني سعد الأشعري وخاصة لابن عبد الله بن سعد الأشعري ابن عم طلحة المذكور، الذي كان من
أجلة فضلاء الشيعة في الكوفة ثم انتقل إليها مع أبيه .
إن هذه المدينة أخذت بعد سنة ٨٣ هـ تتسع، وينتشر فيها العمران، وتشاد على أرضها
المساجد، والمدارس الدينية، والمعاهد العلمية، وقبور الأولياء والملوك والعظماء والأمراء والعلماء،
وأصبحت تدريجاً من المدن الإسلامية الشيعية المقدسة، وخاصة بعد دفن فاطمة بنت الإمام
موسى بن جعفر عليه السلام المعروفة (معصومة قم) فيها ^(١) .
وقد نص الحموي في معجمه على أن مدينة قم شيعية إمامية خالصة فقال... وكان متقدم
هؤلاء الأخوة عبد الله بن سعد، وكان له ولد قد ربي بالكوفة فانتقل منها إلى قم، وكان إمامياً فهو
الذي نقل التشيع إلى أهلها فلا يوجد بها سني قط .
ثم نقل حكاية لطيفة تدل على صدق تشيع أهل هذه المدينة

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية ج ٣ ص ٢٣٠ .

فراجع (١).

النماذج الخيرة في العلم والعمل:

هذا، وقد نبغ من أحفاد الأحوص أفذاذ من الرجال حملوا العلم والمعرفة والأدب والتقوى والفضيلة، وكان لهم دور عظيم في حفظ التشيع ونشره والدفاع عنه، وكانت لهم صلاة وثيقة بأئمة أهل البيت عليهم السلام ول بعضهم منزلة خاصة عندهم عليهم السلام وقد حملوا كنوزا ثمينة من العلوم والمعارف أخذوها عن الأئمة عليهم السلام، وسعوا في طلبها حتى أصبح لهم في قم شأننا عظيما، وقصدهم طلاب الحديث، وصنفوا الكتب الكثيرة وسارت بعلومهم الركبان، ولا يبعد أن يكونوا هم ونظائرهم المعنيين بما روي عن الأئمة عليهم السلام: لولا القميون لضاع الدين (٢).

وكان من أشهرهم:

عمران بن عبد الله بن سعد الأشعري القمي وأخوه عيسى بن عبد الله، وهما من أجلاء أهل قم، ومن أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وأحباؤه، فقد كان يجيها كثيرا، وكلما قدما المدينة سأل عنهما وعن حالهما وتفقدتهما، وسأل عن حال أقربائهما (٣).

روى الكشي بسنده عن حماد الناب، قال: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ونحن جماعة، إذ دخل عليه عمران بن عبد الله القمي، فسأله وبره

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٤٥١.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٧.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٢٧٣.

وبشه، فلما أن قام قلت لأبي عبد الله عليه السلام: من هذا الذي بررت به هذا البر؟ فقال: من أهل البيت النجباء - يعني أهل قم - ما أرادهم جبار من الجبابرة إلا قصمه الله ^(١).
وروى بسنده عن أبان بن عثمان، قال: دخل عمران بن عبد الله القمي على أبي عبد الله عليه السلام فقربه أبو عبد الله، فقال له: كيف أنت؟ وكيف ولدك؟ وكيف أهلك؟ وكيف بنو عمك؟ وكيف أهل بيتك؟ ثم حدثه مليا، فلما خرج قيل لأبي عبد الله عليه السلام: من هذا؟ قال: هذا نجيب قوم النجباء، ما نصب لهم جبار إلا قصمه الله ^(٢).

وفي رواية أن الإمام عليه السلام دعا له وقال وهو قابض على يده: أسأل الله أن يصلي علي محمد وآل محمد وأن يظلك وعترتك يوم لا ظل إلا ظله ^(٣).
ولعمران ابن يسمي المرزبان من أصحاب الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام وروي عنه أنه قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أسألك عن أهم الأمور إلي أمن شيعتك أنا؟ فقال: نعم، قال: قلت: اسمي مكتوب عندك؟ قال: نعم ^(٤).

وروى الكشي بسنده عن أبي محمد أخي يونس بن يعقوب، قال:
كنت بالمدينة فاستقبلني جعفر بن محمد عليه السلام في بعض أزقتها، قال:
قال: اذهب يا يونس فإن بالباب رجلا منا أهل البيت، قال: فجئت إلى

(١) رجال الكشي ج ٢ ص ٦٢٤.

(٢) رجال الكشي ج ٢ ص ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٣) رجال الكشي ج ٢ ص ٦٢٣ - ٦٢٤.

(٤) رجال الكشي ج ٢ ص ٧٩٤.

الباب فإذا عيسى بن عبد الله القمي جالس، قال: فقلت له: من أنت؟ فقال له: أنا رجل من أهل قم، قال: فلم يكن بأسرع من أن أقبل أبو عبد الله عليه السلام، قال: فدخل على الحمار الدار، ثم التفت إلينا فقال: ادخلا، ثم قال: يا يونس بن يعقوب أحسبك أنكرت قولي لك إن عيسى بن عبد الله منا أهل البيت، قال: قلت: أي والله جعلت فداك، لأن عيسى بن عبد الله رجل من أهل قم، فقال: يا يونس، عيسى بن عبد الله هو منا حي وهو منا ميت ^(١).

وروى أيضا بسنده عن يونس بن يعقوب، قال: دخل عيسى بن عبد الله القمي على أبي عبد الله عليه السلام فأوصاه بأشياء، ثم ودعه وخرج عنه، فقال لخدمته: ادعه، فانصرف إليه فأوصاه بأشياء، ثم ودعه وخرج عنه، فقال لخدمته: ادعه فانصرف إليه فأوصاه بأشياء، ثم قال له: يا عيسى بن عبد الله إن الله عز وجل يقول: **(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ)** وإنك منا أهل البيت، فإذا كانت الشمس من ها هنا من العصر فصل ست ركعات، قال ثم ودعه، وقبل ما بين عيني عيسى فانصرف، قال يونس بن يعقوب: فما تركت الست ركعات منذ سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ذلك لعيسى بن عبد الله ^(٢).

ومنهم: زكريا بن آدم بن عبد الله بن سعد الأشعري القمي الذي كان جليلا عظيم الشأن والمنزلة، وقد أرجع الإمام الرضا عليه السلام بعض أصحابه

(١) رجال الكشي ج ٢ ص ٦٢٤.

(٢) رجال الكشي ج ٢ ص ٦٢٥.

إليه لأخذ معالم الدين منه .

روى الكشي بسنده عن مُحَمَّد بن حمزة بن اليسع عن زكريا بن آدم، قال: قلت للرضا عليه السلام: إني أريد الخروج عن أهل بيتي فقد كثر السفهاء فيهم، فقال: لا تفعل، فإن أهل بيتك يدفع عنهم بك، كما يدفع عن أهل بغداد بأبي الحسن الكاظم عليه السلام ^(١).

وروى بسنده عن علي بن المسيب، قال: قلت للرضا عليه السلام: شقتي بعيدة، ولست أصل إليك في كل وقت، فعمن أخذ معالم ديني؟ فقال:

من زكريا بن آدم القمي المأمون على الدين والدنيا، قال علي بن المسيب: فلما انصرفت قدمت على زكريا بن آدم فسألته عما احتجت إليه ^(٢).

وروى الكشي بسنده عن زكريا بن آدم أنه قال: دخلت على الرضا عليه السلام من أول الليل في حدثان موت أبي جرير، فسألني عنه وترحم عليه، ولم يزل يحدثني وأحدثه حتى طلع الفجر، فقام فصلى الفجر ^(٣).

وقال العلامة: وحج الرضا عليه السلام سنة من المدينة وكان زكريا بن آدم زميله إلى مكة ^(٤).
ولما توفي زكريا بن آدم بعث الإمام عليه السلام بكتاب ضمنه دعاءه له

(١) رجال الكشي ج ٢ ص ٨٥٧ - ٨٥٨.

(٢) رجال الكشي ج ٢ ص ٨٥٨.

(٣) رجال الكشي ج ٢ ص ٨٧٣.

(٤) الخلاصة (رجال العلامة) ص ٧٥.

والثناء عليه.

روى الكشي بسنده عن محمد بن إسحاق والحسن بن محمد، قالاً:

خرجنا بعد وفاة زكريا بن آدم بثلاثة أشهر نحو الحج، فتلقنا كتابه عليه السلام في بعض الطريق، فإذا فيه: ذكرت ما جرى من قضاء الله في الرجل المتوفى رحمه الله يوم ولد ويوم قبض ويوم يبعث حياً، فقد عاش أيام حياته عارفاً بالحق، قائلاً به، صابراً محتسباً للحق، قائماً بما يجه الله ورسوله، ومضى رحمه الله غير ناكث ولا مبدل، فجزاه الله أجر نيته وأعطاه خير أمنيته... (١).

ومنهم: أحمد بن محمد بن عيسى بن عبد الله بن سعد بن مالك بن الأحوص بن السائب بن مالك بن عامر الأشعري... شيخ قم ووجهها وفقهها غير مدافع، وكان أيضاً الرئيس الذي يلقى السلطان بها، ولقي أبا الحسن الرضا عليه السلام وله كتب (٢).

ومنهم: أحمد بن إسحاق بن عبد الله بن سعد بن مالك بن الأحوص الأشعري وكان من خواص الإمام العسكري عليه السلام ورأى صاحب الزمان، وهو شيخ القميين ووافدهم (٣).
روى الشيخ الصدوق في كمال الدين حديثاً مبسوطاً وجاء في آخره: إنه قال للإمام العسكري عليه السلام: ... سألتك بالله وبحرمة جدك إلا شرفتنني بخرقه أجعلها كفناً.

(١) رجال الكشي ج ٢ ص ٨٥٨.

(٢) رجال النجاشي ج ص ٢١٧.

(٣) الخلاصة ص ١٥.

قال الراوي: فأدخل مولانا يده تحت البساط فأخرج ثلاثة عشر درهما، فقال: خذها ولا تنفق على نفسك غيرها، فإنك لن تعدم ما سألت، وإن الله تبارك وتعالى لن يضيع أجر من أحسن عملا، قال سعد:

(راوي الحديث): فلما انصرفنا من حضرة مولانا من حلوان [المعروف اليوم بـ (يل ذهاب)] على ثلاثة فراسخ حم أحمد بن إسحاق وثارت به علة صعبة أيس من حياته فيها، فلما وردنا حلوان ونزلنا في بعض الخانات دعا أحمد بن إسحاق برجل من أهل بلده كان قاطنا بها، ثم قال: تفرقوا عني هذه الليلة واتركوني وحدي، فانصرفنا عنه، ورجع كل واحد منا إلى مرقده.

قال سعد: فلما حان أن ينكشف الليل عن الصبح أصابني فكرة ففتحت عيني فإذا أنا بكافور الخادم (خادم مولانا أبي مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ) وهو يقول: أحسن الله بالخير عزاكم، وجبر بالمحجوب رزيتكم، قد فرغنا من غسل صاحبكم ومن تكفينه، فقوموا لدفنه، فإنه من أكرمكم محلا عند سيدكم، ثم غاب عن أعيننا، فاجتمعنا على رأسه بالبكاء والعيويل حتى قضينا حقه وفرغنا من أمره رحمه الله ^(١).

ومنهم: سعد بن عبد الله بن أبي خلف القمي الأشعري أبو القاسم، شيخ هذه الطائفة، وفقهها ووجهها ^(٢).
ومنهم غيرهم وهم كثير.

(١) كمال الدين وتمام النعمة ج ٢ ص ٤٦٤ ومنتهى الآمال ج ٢ ص ٦٨٥ - ٦٨٦.

(٢) رجال النجاشي ج ١ ص ٤٠١.

وأما من برز من غير الأشعريين في العلم والتقوى والفضيلة فمن العسير جدا إحصائهم، فإن هذه المدينة أشبه شيء بمدرسة كبرى تخرج منها رجال العلم والإيمان، وأصبحوا منائر هدى وارشاد، وفي طليعتهم الشيخ الصدوق مُحَمَّد بن علي بن بابويه القمي، ووالده علي بن الحسين، ومُحَمَّد بن الحسن بن الوليد، ومُحَمَّد بن الحسن القمي، ومُحَمَّد بن الحسن الصفار، وعلي بن إبراهيم ووالده إبراهيم بن هاشم، وغيرهم كثير ممن كانوا من أجلاء هذه الطائفة وعظمائها وقد تكفلت كتب الرجال ببيان أحوالهم ومختلف شؤونهم ومن أراد المزيد فليراجع.

قم وأهلها في روايات أهل البيت عليهم السلام

ومن خلال ما تقدم يتبين ما لهذه المدينة المقدسة من المنزلة عند أهل البيت عليهم السلام وما لأهلها من الشأن والمكانة.

وقد مر أن قم حرم آل محمد، وهي كوفتهم الصغيرة ومأوى شيعتهم، وتضافرت الروايات الواردة عنهم عليهم السلام، في بيان فضلها وأفضليتها على كثير من البقاع.

فمنها: ما روي عن الصادق عليه السلام أنه ذكر كوفة، قال: ستخلو كوفة من المؤمنين، ويأزر عنها العلم كما تأزر الحية في حجرها، ثم يظهر العلم ببلدة يقال لها قم، وتصير معدنا للعلم والفضل حتى لا يبقى في الأرض مستضعف في الدين حتى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهله قائمين مقام الحجة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها، ولم يبق في الأرض حجة فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في الشرق والغرب، فيتم حجة الله على الخلق، حتى لا يبقى أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم، ثم يظهر القائم عليه السلام

ويسير سببا لنقمة الله وسخطه على العباد، لأن الله لا ينتقم من العباد إلا بعد إنكارهم حجة (١).

ومنها: ما رواه أنس بن مالك، قال: كنت ذات يوم جالسا عند النبي ﷺ إذ دخل عليه علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال صلى الله عليه وسلم: إني يا أبا الحسن، ثم اعتنقه وقبل [ما] بين عينيه، وقال: يا علي إن الله عز اسمه عرض ولايتك على السماوات فسبقت إليها السماء السابعة فزينها بالعرش، ثم سبقت إليها السماء الرابعة فزينها بالبيت المعمور، ثم سبقت إليها السماء الدنيا فزينها بالكواكب، ثم عرضها على الأرضين فسبقت إليها مكة فزينها بالكعبة، ثم سبقت إليها المدينة فزينها بي، ثم سبقت إليها الكوفة فزينها بك، ثم سبق إليها قم فزينها بالعرب، وفتح إليه بابا من أبواب الجنة (٢).

ومنها: ما روي عن أبي الحسن الأول عليه السلام، قال: قم عش آل محمد، ومأوى شيعتهم، ولكن سيهلك جماعة من شبابهم بمعصية آبائهم، والاستخفاف والسخرية بكبرائهم ومشايخهم، ومع ذلك يدفع الله عنهم شر الأعداء وكل سوء (٣).

ومنها: ما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا عمت البلدان الفتن فعليكم بقم وحواليها، فإن البلاء مدفوع عنها (٤).

(١) تاريخ قم ص ٩٥ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٣.

(٢) تاريخ قم ص ٩٤ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٢.

(٣) تاريخ قم ص ٩٨ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٤.

(٤) تاريخ قم ص ٩٧ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٤.

ومنها: ما روي عن الصادق عليه السلام، قال: إذا أصابتكم بلية وعناء فعليكم بقم، فإنه مأوى الفاطميين، ومستراح المؤمنين، وسيأتي زمان ينفر أولياؤنا ومحبونا عنا ويعدون منا، وذلك مصلحة لهم لكيلا يعرفوا بولايتنا، ويحقدوا بذلك دماءهم وأموالهم، وما أراد أحد بقم وأهله سوءا إلا أذله الله وأبعده من رحمته ^(١).

ومنها: ما روي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: إن للجنة ثمانية أبواب، ولأهل قم واحد منها، فطوبى لهم، ثم فطوبى لهم، ثم طوبى لهم ^(٢).

ومنها: ما رواه عفان البصري عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال لي: أتدري لم سمي قم؟ قلت: الله ورسوله وأنت أعلم، قال: إنما سمي قم لأن أهله يجتمعون مع قائم آل محمد - صلوات الله عليه - ويقومون معه، ويستقيمون عليه وينصرونه ^(٣).

ومنها: ما رواه صفوان بن يحيى ببيع السابري قال: كنت يوما عند أبي الحسن عليه السلام فجرى ذكر قم وأهله وميلهم، إلى المهدي عليه السلام، فترحم عليهم، وقال: عليه السلام، ثم قال: إن للجنة ثمانية أبواب وواحد منها لأهل قم، وهم خيار شيعتنا من بين سائر البلاد، خمر الله تعالى ولايتنا في طينتهم ^(٤).

(١) تاريخ قم ص ٩٨ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٢) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٥.

(٣) تاريخ قم ص ١٠٠ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦.

(٤) تاريخ قم ص ١٠٠ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٦.

ومنها: ما روي عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: إن لعلى قم ملكا رفرف عليها بجناحيه، لا يريد لها جبار بسوء إلا أذابه الله كذوب الملح في الماء، ثم أشار إلى عيسى بن عبد الله فقال: سلام الله على أهل قم، يسقي الله بلادهم الغيث، وينزل الله عليهم البركات، ويبدل الله سيئاتهم حسنات، هم أهل ركوع وسجود وقيام وقعود، هم الفقهاء العلماء الفهماء، هم أهل الدراية والرواية وحسن العبادة ^(١).

ومنها: ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: تربة قم مقدسة، وأهلها منا ونحن منهم، لا يريدهم جبار بسوء إلا عجلت عقوبته ما لم يخونوا إخوانهم، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم جبابرة سوء، أما إنهم أنصار قائمنا، ودعاة حقنا، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم اعصمهم من كل فتنة، ونجهم من كل هلكة ^(٢).

ومنها: ما روي عن الرضا عليه السلام، قال: للجنة ثمانية أبواب، فثلاثة منها لأهل قم، فطوي لهم، ثم طوي لهم ^(٣).

ومنها: ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: صلوات الله على أهل قم، ورحمة الله على أهل قم، سقى الله بلادهم الغيث ^(٤)....

ومنها: ما رواه أبو الصلت الهروي قال: كنت عند الرضا عليه السلام فدخل عليه قوم من أهل قم فسلموا عليه، فرد عليهم وقربهم، ثم قال لهم:

(١) تاريخ قم ص ٩٩ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٧.

(٢) تاريخ قم ص ٩٣ وبحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٣) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

(٤) بحار الأنوار ج ٦٠ ص ٢٢٨.

مرحبا بكم وأهلا، فأنتم شيعتنا حقا، فسيأتي عليكم يوم تزورون فيه تربتي بطوس، ألا فمن زارني وهو على غسل خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه (١).

ومنها: ما ورد في كتاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام إلى أهل قم وآبه (آوه) وجاء فيه: إن الله تعالى بجوده ورافته قد من الله على عباده بنبيه محمد صلى الله عليه وآله بشيرا ونذيرا، ووفقكم لقبول دينه، وأكرمكم بهدايته، وغرس في قلوب أسلافكم الماضين رحمة الله عليهم وأصلا بكم الباقين تولى كفايتهم وعمرهم طويلا في طاعته، حب العترة الهادية، فمضى من مضى على وتيرة الصواب، ومنهاج الصدق، وسبيل الرشاد، فوردوا موارد الفائزين، واجتنبوا ثمرات ما قدموا، ووجدوا غب ما أسلفوا... (٢).

وغيرها من الروايات الكثيرة، وهي تدل على جلاله هذه المدينة وأهلها، ورعاية الأئمة عليهم السلام لهم، وعنايتهم بهم، مما جعل من هذه المدينة حصنا منيعة للتشيع، وقلعة محكمة تدافع عن حریم مذهب آل محمد صلى الله عليه وآله عبر القرون في صلابة من الولاء لأهل البيت عليهم السلام، ورسوخ في الاعتقاد.

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٦٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب ج ٤ ص ٤٥٨.

مفاخر القميين:

وذكر أن لأهل قم مناقب وفضائل أخرى امتازوا بها على سائر الناس، وعدت من مفاخرهم وأولياتهم.

قال الشيخ النمازي: مفاخر أهل قم كثيرة، منها: أنهم وقفوا المزارع والعقارات الكثيرة على الأئمة عليهم السلام.

ومنها: أنهم أول من بعث الخمس إليهم.

ومنها: أنهم عليهم السلام أكرموا جماعة كثيرة منهم بالهدايا والتحف والأكفان، كأبي جرير زكريا بن إدريس، وزكريا بن آدم، وعيسى بن عبد الله بن سعد، وغيرهم، ممن يطول بذكرهم الكلام، وشرفوا بعضهم بالخواتيم والخلع، وأنهم اشتروا من دعبل ثوب الرضا عليه السلام بألف دينار من الذهب، إلى غير ذلك.

ومنها: قبر فاطمة بنت موسى عليه السلام وثواب زيارتها ^(١).

ومن طريف ما يروى ما جرى لدعبل بن علي الخزاعي الشاعر المشهور، وكان من قصته أنه دخل على أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو، فقال له: يا ابن رسول الله إني قد قلت فيك قصيدة، وآليت على نفسي أن لا أنشدها أحدا قبلك، فقال عليه السلام: هاها، فأنشده:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
فلما بلغ إلى قوله:

أرى فيأهم في غيرهم متقسما وأيديهم من فيئهم صفرات

(١) مستدرک سفینه البحار ج ٨ ص ٦٠٠.

بكى أبو الحسن الرضا عليه السلام ، وقال له: صدقت يا خزاعي، فلما بلغ إلى قوله:
إذا وتروا مدوا إلى واتريهم أكفا عن الأوتار منقبضات
جعل أبو الحسن عليه السلام يقلب كفيه ويقول: أجل، والله منقبضات، فلما بلغ إلى قوله:
لقد خفت في الدنيا وأيام سعيها وإني لأرجو الأمن بعد وفاتي
قال الرضا عليه السلام: أمنك الله يوم الفزع الأكبر، فلما انتهى إلى قوله:
وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات
قال له الرضا عليه السلام: أفلا ألحق لك بهذا الموضع بيتين بما تمام قصيدتك؟
فقال بلى: يا ابن رسول الله فقال عليه السلام:
وقبر بطوس يا لها من مصيبة توقد في الأحشاء بالحرقات
إلى الحشر حتى يبعث الله قائما يفرج عنا الهم والكربات
فقال دعبل: يا ابن رسول الله هذا القبر بطوس قبر من هو؟ فقال الرضا عليه السلام: قبري ولا
تنقضي الأيام والليالي حتى تصير طوس مختلف شيعتي وزواري، ألا فمن زارني في غربتي بطوس كان
معي في درجتي يوم القيامة مغفورا له.
ثم نهض الرضا عليه السلام بعد فراغ دعبل من إنشاد القصيدة، وأمره أن لا يبرح من موضعه، فدخل
الدار، فلما كان بعد ساعة خرج الخادم إليه

بمائة دينار رضوية، فقال له: يقول لك مولاي: اجعلها في نفقتك، فقال دعبل: والله ما لهذا جئت، ولا قلت هذه القصيدة طمعا في شيء يصل إلي، ورد الصرة، وسأل ثوبا من ثياب الرضا عليه السلام ليتبرك به ويتشرف به، وأنفذ الرضا عليه السلام جبة خز مع الصرة وقال للخادم: قل له:

خذ هذه الصرة، فإنك ستحتاج إليها ولا تراجعني فيها ^(١).

وفي رواية أخرى: أن دعبل الخزاعي قال: لما قلت (مدارس آيات) قصدت بها أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، وهو بخراسان ولي عهد المأمون في الخلافة، فوصلت المدينة وحضرت عنده وأنشدته إياها فاستحسنها، وقال لي: لا تنشدها أحدا حتى آمرك.

واتصل خبري بالخليفة المأمون فأحضرني، وسألني عن خبري، ثم قال: يا دعبل أنشدني (مدارس آيات خلت من تلاوة) فقلت: ما أعرفها يا أمير المؤمنين، فقال: يا غلام أحضر أبا الحسن علي بن موسى الرضا.

فلم تكن إلا ساعة حتى حضر، فقال له: يا أبا الحسن سألت دعبلًا عن (مدارس آيات) فذكر أنه لا يعرفها، فقال لي أبو الحسن: يا دعبل أنشد أمير المؤمنين، فأخذت فيها، فأنشدتها فاستحسنها، وأمر لي بخمسين ألف درهم، وأمر لي أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام بقريب من ذلك.

فقلت: يا سيدي إن رأيت أن تهبني شيئا من ثيابك ليكون كفني،

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

فقال: نعم، ثم دفع إلي قميصا قد ابتذله ومنشفة لطيفة، وقال لي:
احفظ هذا تحرس به.

ثم دفع إلي ذو الرئاستين أبو العباس الفضل بن سهل وزير المأمون صلة وحملني على بردون
أصفر خراساني.

قال: ثم كررت راجعا إلى العراق، فلما صرت في بعض الطريق خرج علينا الأكراد فأخذونا،
وكان ذلك اليوم مطيرا فبقيت في قميص خلق وضر جديد، وأنا متأسف من جميع ما كان معي
على القميص والمنشفة، ومتفكر في قول سيدي الرضا عليه السلام، إذ مر بي واحد من الأكراد الحرامية
تحت الفرس الأصفر الذي حملني عليه ذو الرئاستين ووقف بالقرب مني ليجتمع عليه أصحابه وهو
ينشد: (مدارس آيات خلت من تلاوة) ويكي، فلما رأيت ذلك منه عجبت من لص من الأكراد
يتشيع، ثم طمعت في القميص والمنشفة فقلت: يا سيدي لمن هذه القصيدة؟ فقال: وما أنت
وذلك ويلك؟ فقلت: لي فيه سبب أخبرك به، فقال: هي أشهر بصاحبها أن تجهل فقلت: من
هو؟ قال:

دعبل بن علي الخزاعي شاعر آل محمد جزاه الله خيرا، فقلت له: والله يا سيدي أنا دعبل وهذه
قصيدتي، فقال: ويلك ما تقول؟ قلت: الأمر أشهر من ذلك، فأرسل إلى أهل القافلة فاستحضر
منهم جماعة وسألهم عني، فقالوا بأسرهم: هذا دعبل بن علي الخزاعي.
فقال: قد أطلقت كلما أخذ من القافلة خلافا فما فوقها، كرامة لك،

ثم نادى في أصحابه من أخذ شيئاً فليرده، فرجع على الناس جميع ما أخذ منهم ورجع إلي جميع ما كان معي، ثم بذرقنا - أي كنا في حمايته - إلى المأمن فحرسنا أنا والقافلة ببركة القميص والمنشفة^(١).

وفي رواية: أن دعبل أخذ الصرة والجبة وانصرف وصار من مرو في قافلة، فلما بلغ (ميان قوهان)، وقع عليهم اللصوص، فأخذوا القافلة بأسرها وكتفوا أهلها، وكان دعبل فيمن كتف، وملك اللصوص القافلة، وجعلوا يقسمونها بينهم، فقال رجل من القوم متمثلاً بقول دعبل في قصيدته:

أرى فيأهم في غيرهم متقسماً وأيديهم من فيئهم صفرات
فسمعه دعبل فقال له: لمن هذا البيت؟ فقال: لرجل من خزاعة، يقال له دعبل بن علي، قال
دعبل: فأنا دعبل قائل هذه القصيدة التي منها هذا البيت، فوثب الرجل إلى رئيسهم، وكان يصلي
على رأس تل، وكان من الشيعة، وأخبره فجاء بنفسه حتى وقف على دعبل، وقال له:
أنت دعبل؟ فقال: نعم، فقال له: أنشد القصيدة، فأنشدها فحل كتافه وكتاف جميع أهل
القافلة، ورد عليهم جميع ما أخذ منهم لكرامة دعبل.

وسار دعبل حتى وصل إلى قم فسأله أهل قم أن ينشدهم القصيدة، فأمرهم أن يجتمعوا في
المسجد الجامع، فلما اجتمعوا صعد المنبر فأنشدهم القصيدة فوصله الناس من المال والخلع بشيء

(١) كشف الغمة ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٣.

كثير، واتصل بهم خیر الجبة فسألوه أن يبيعها منهم بألف دينار، فامتنع من ذلك، فقالوا له: فبعنا شيئاً منها بألف دينار، فأبى عليهم وسار عن قم.

فلما خرج من رستاق البلد لحق به قوم من أحداث العرب وأخذوا الجبة منه، فرجع دعبيل إلى قم وسألهم رد الجبة عليه، فامتنع الأحداث من ذلك، وعصوا المشايخ في أمرها، فقالوا لدعبيل: لا سبيل لك إلى الجبة فخذ ثمنها ألف دينار، فأبى عليهم، فلما يعس من ردهم الجبة عليه سألهم أن يدفعوا إليه شيئاً منها، فأجابوه إلى ذلك، وأعطوه بعضها ودفعوا إليه ثمن باقيها ألف دينار.

وانصرف دعبيل إلى وطنه فوجد اللصوص قد أخذوا جميع ما كان في منزله، فباع المائة دينار التي كان الرضا عليه السلام وصله بها من الشيعة كل دينار بمائة درهم، فحصل في يده عشرة آلاف درهم، فذكر قول الرضا عليه السلام: إنك ستحتاج إلى الدنانير.

وكانت له جارية لها من قلبه محل، فرمدت رمداً عظيماً، فأدخل أهل الطب عليها، فنظروا إليها فقالوا: أما العين اليمنى فليس لنا فيها حيلة، وقد ذهبت، وأما اليسرى فنحن نعالجها، ونجتهد ونرجوا أن تسلم.

فاغتم لذلك دعبيل غماً شديداً، وجزع عليها جزعاً عظيماً، ثم ذكر ما كان معه من فضلة الجبة فمسحها على عيني الجارية، وعصبها من أول الليل فأصبحت وعيناها أصح مما كانتا قبل، ببركة أبي الحسن الرضا عليه السلام ^(١).

(١) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٢٦٣ - ٢٦٥.

وإنما ذكرنا هذه الرواية بطولها لما فيها الطرافة واللطافة والدلائل، كما أن فيها دلالة على ولاء أهل قم وحبهم لآل محمد ﷺ .

العلويون في قم:

أشرنا فيما تقدم إلى أن سياسة حكام بني أمية وبني العباس كانت تعتمد على البطش بالعلويين وقهرهم وتشريدهم، وكان بنو العباس هم الأشد في ذلك كما اعترف المأمون العباسي، وقد أدى ذلك إلى نزوح العلويين عن مواطنهم وتفرقهم في أطراف الأرض إلى حيث يجدون الأمن والأمان، وقد مرت علينا نماذج من أولئك الذين اضطرتهم الظروف العصبية التي عصفت بهم إلى التنكر والتواري عن الأنظار خوفا على أنفسهم وأعراضهم وذويهم.

ولما كانت مدينة قم من المدن السبابة إلى التشيع والولاء لأهل البيت ﷺ أصبحت ملاذا لبعض هؤلاء حيث التجأ إليها كثير من العلويين ولا سيما بعد أن دفنت فيها السيدة فاطمة المعصومة ﷺ، وأصبح حرمها الشريف مزارا وملاذا.

ومنذ أن اتخذ بعض العلويين من قم موطنًا ومستقرا له بدأ الوجود العلوي بالانتشار، ولا زالت بعض السلالات العلوية التي ينتهي نسبها إلى أولئك الذين سكنوا قم واستوطنوها باقية إلى اليوم كالسادة البرقيين فقد ذكرت بعض المصادر أن أول من دخل مدينة قم من السادة الرضوية هو موسى بن الإمام الجواد ﷺ في سنة ٢٥٦ هـ، وهو المعروف بالمبرقع، وكان يضع على وجهه برقعا دائما فلذا لقب بالمبرقع، وتوفي في قم سنة ٢٩٦ هـ، وقد التحق به أخواته زينب، وأم

مُحَمَّد، وميمونة بنات الإمام الجواد عليه السلام، ثم جاءت بعدهن بريهة بنت موسى، وتوفين بقم، ودفن عند فاطمة المعصومة عليها السلام ^(١) كما ذكرناه فيما تقدم.

وتنتشر في قم قبور السادة العلويين وهي مزارات يقصدها أهل قم والوافدون إليها، وهي كثيرة. منها: مزار فيه قبران أحدهما لموسى المبرقع، والثاني قبر أحمد بن مُحَمَّد بن أحمد بن موسى. ومنها: مزار كبير يعرف بـ (جهل اختران) ويجوي عدة من قبور السادة العلويين منهم: مُحَمَّد بن موسى المبرقع، وزوجته بريهة بنت جعفر بن الإمام علي الهادي عليه السلام، وزينب بنت الإمام موسى، وأم مُحَمَّد بنت موسى، وأبو علي مُحَمَّد بن أحمد بن موسى، وبناته: فاطمة، وبريهة، وأم سلمة، وأم كلثوم، وغيرهن من العلويات والفاطميات وكلهن من أعقاب وذري موسى المبرقع ^(٢).

هذا وقد انتشر أعقاب موسى المبرقع عدا قم في الري وقزوين وهمدان وخراسان وكشمير والهند وسائر البلدان ^(٣).

وقد تولى بعضهم النقابة والأمانة، وكان فيهم العلماء وأهل التدبير والسيادة، فإن مُحَمَّد بن أحمد بن موسى المعروف بأبي علي كان رجلا فاضلا تقيا ورعا للغاية، حسن المنظر والمناظرة، فصيحاً عاقلاً، وكان رئيساً ونقيباً في قم، وأميراً للحاج، وقد شبهه أمير قم بالأئمة في

(١) تاريخ قم ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٥٧٠.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٥٧١.

الفضل والكمال، واعتقد بأنه يصلح للإمامة.

وكان ابنه أحمد بن مُحَمَّد المعروف بالأعرج سيدا جليل القدر عظيم الشأن، رفيع المنزلة رئيسا نقيبا في قم، وكان رجلا متنسكا متعبدا محببا إلى قلوب الناس، سخيا جوادا واسع الجاه، ولد بقم سنة ٣١١ هـ وتوفي في شهر صفر سنة ٣٥٨ هـ، وكانت وفاته لأهل قم مصيبة عظيمة.

وكان ابنه أبو الحسن موسى بن أحمد سيد أهل قم ورئيسهم، حسن المعاملة معهم، مراعيًا حقوقهم، وفوضت إليه نقابة السادة في قم ونواحيها، وكان سادة آية وقم وكاشان وغيرها تحت نظره في جميع أمورهم^(١).

وخلاصة القول أنهم كانوا أشرف هذه المدينة وأجلاءها في العلم والعمل.

ومنها: مزار أحمد بن قاسم بن أحمد بن علي بن جعفر العريضي، المعروف بـ (شاه أحمد قاسم)، وهو معروف بالشرف والجلالة، وقبره مزار كافة الناس، وكان عليه سقيفة، فلما جاء أصحاب خاقان المفلحي في سنة ٢٩٥ هـ إلى قم رفعوا السقيفة فتركت زيارته مدة إلى أن رأى بعض صلحاء قم في المنام في سنة ٣٧١ هـ أن ساكن هذه البقعة رجل فاضل، وفي زيارته ثواب عظيم، فبني قبره بالخشب وجدد، وأصبح يزار، وقال بعض الثقات: كان يأتي إليه أصحاب الأمراض المزمنة

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٥٧١ - ٥٧٢.

والمعلولون ويتوسلون به فيجدون الشفاء ببركة روحه الطاهرة (١).
أقول: أشار إلى ذلك أحد الأساتذة من السادة العلماء الأجلاء، وأرشدني إلى زيارته والتوسل
به، وأن حرمة موضع إجابة، وقد توسل به في بعض المهمات فقضيت حاجته.
وحرمة اليوم أحد المعالم البارزة في قم، وقد دفنت في حرمة أخته فاطمة.
وفي جواره دفن كثير من العلماء والمؤمنين، ويزدحم الزوار عند قبره ولا سيما في ليالي الأربعاء
والجمعة من كل أسبوع.
ومنها: مزار قيل: إن حمزة بن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد دفن فيه (٢).
وقد اختلفت الأقوال في ذلك، فنقل العلامة القمي عن بعض كتب العلامة المجلسي أن قبر
حمزة بن موسى عليه السلام يقرب من قبر (السيد) عبد العظيم (٣) (الحسيني).
وقد تقدم ما نقلناه من رجال النجاشي أن السيد عبد العظيم الحسيني كان يخرج مستترا فيزور
القبر المقابل قبره ويقول هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر عليه السلام.
وذكر غيره أن قبره في إصطخر من شيراز (٤).
وذكر المحدث القمي أن في مدينة قم الطيبة مزار يعرف بـ (شاهزاده حمزة)، ولأهل هذه البلدة
اعتقاد تام فيه ويحترمونه

(١) تاريخ قم ص ٢٢٥.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٦٧.

(٤) المجدي في أنساب الطالبين ص ١١٧.

ويعظمونه، وله قبة وصحن، ويظهر من كلام صاحب تاريخ قم أن هذه الشخص هو حمزة بن موسى عليه السلام، كما ورد في تاريخ السادات الرضائية الذين أقاموا بقم ودفنوا فيها، أنه قال: جاء يحيى الصوفي إلى قم وأقام بها وسكن في دار قرب دورة زكريا بن آدم ومشهد حمزة بن موسى بن جعفر عليه السلام ^(١).

وإليه ينتهي نسب السلالة الصفوية الذين حكموا إيران أكثر من قرنين من الزمان ^(٢)، وذكرنا فيما تقدم أن أربعة من سلاطينهم دفنوا بجوار السيدة المعصومة عليها السلام.

ومنها: مزار كبير يعرف اليوم بـ (كلزار) قيل: إن علي بن جعفر الصادق عليه السلام مدفون فيه ^(٣). وقد اختلف في ذلك أيضا، وقيل: إنه مدفون في العريض من نواحي المدينة، وسكن فيها، وله أولاد كثيرون، وهم العريضيون ^(٤).

وقال العلامة المجلسي: وأما كونه مدفونا في قم فغير مذكور في الكتب المعتبرة، لكن أثر قبره الشريف موجود قديم وعليه اسمه مكتوب ^(٥).

وهناك مزارات أخرى في قم تنسب لأولاد الأئمة عليهم السلام وأحفادهم من السادة الحسينيين والحسينيين والموسويين والرضويين وغيرهم

(١) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٦٨.

(٢) منتهى الآمال ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) منتهى الآمال ج ٢ ص ٢٥٩.

(٤) منتهى الآمال ج ٢ ص ٢٥٩.

(٥) بحار الأنوار ج ١٠٢ ص ٢٧٣.

وقد ذكرهم القمي في تاريخه، والعلوي العمري في مجديه^(١) ويقصدهم الزائرون ويتوسلون بهم لقضاء حوائجهم.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستوعبة، فعسى أن يتهيأ لها من يسد هذا الفراغ.

والخلاصة أن أرواح الطيبين والصلحاء تحيط بقم وأهلها، وتدفع عنها وعنهم عاديات الزمان.

(١) تاريخ قم ص ٢٠٥ - ٢٣٩ والمجدي في أنساب الطالبين ص ١٢٨ و ٢٢٠ و ٣١٣.

مسجد جمكران

يقع في الجهة الجنوبية من قم وعلى بعد بضعة آلاف من الأمتار مسجد كبير يقال له مسجد جمكران إضافة إلى اسم المكان، يقصده المئات بل الآلاف من المؤمنين من شتى بقاع إيران وغيرها، ولا سيما في ليالي الأربعاء من كل أسبوع، يقضون فيه أوقاتا في العبادة والتهجد والتوسل بالحجة ابن الحسن العسكري عليه السلام وهو عامر بالعبادة في جميع الأوقات.

ويعود تاريخ هذا المسجد إلى القرن الرابع الهجري، وقد ذكرت في كيفية تأسيسه قصة عجيبة ترتبط بالإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وهو الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، ولذا نسب المسجد إليه.

ويعد هذا المسجد من العلام البارزة لهذه المدينة المقدسة.

ومن النادر جدا أن يزور شخص مدينة قم ويغفل عن زيارة هذا المسجد والصلاة فيه.

وقد ذكر أن له صلاة مخصوصة بكيفية خاصة كما سيأتي بيانها.

ومنذ أن أسس هذا المسجد وإلى يوم الناس هذا ولا زال المؤمنون يتوافدون على هذا المسجد وحدانا وأفواجا، ويبتهلون إلى الله تعالى ويتوسلون بوليّه الحجة ابن الحسن عليه السلام في مختلف شؤونهم وقضاياهم، ولا سيما بالدعاء لتعجيل الفرج.

وقد اتسعت رقعة هذا المسجد بعد أن كانت مساحته صغيرة، وأصبح يتسع لآلاف من المصلين وخصص قسم منه إلى النساء، وتشرف عليه هيئة خاصة تدير شؤونه ولوازمه وسائر مرافقه.

وإنك لتجد في كل ليلة أربعاء من كل أسبوع ازدحام الزائرين من أهل قم وغيرها من سائر المدن لزيارة حرم السيدة المعصومة ومسجد جهمكران وبعض المزارات الأخرى.

ونظير ذلك ما كان يجري في الكوفة حيث مسجد السهلة فقد دأب الصالحون وأهل العبادة على قضاء هذه الليلة من كل أسبوع في مسجد السهلة للصلاة والتهجد والابتهاال، وكانت ألطاف الله تعالى وعناياته تغمر بعض هؤلاء فيحظون بالكرامة الخاصة أو بقضاء الحوائج أو باستجابة الدعوات.

أما اختصاص ليلة الأربعاء من بين الليالي فلم نعرف له وجهها، اللهم إلا أن يكون من المجربات لبعض الصالحين وأصبحت عادة عند المؤمنون.

نعم ذكر السيد ابن طاووس في أعمال مسجد السهلة ذلك، فقال:
إذا أردت أن تمضي إلى السهلة فاجعل ذلك بين المغرب والعشاء

الآخرة من ليلة الأربعاء، وهو أفضل من غيره من الأوقات (١).
فلعل اختيار زيارة مسجد جمكران في ليلة الأربعاء والصلاة فيه بمقتضى المناسبة بين المسجدين
حيث التوسل بالإمام الحجة ابن الحسن صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.
وأما قصة بناء هذا المسجد وما رافقها من أحداث فهي كما في الحكاية الثامنة من كتاب جنة
المأوى، قال: في تاريخ قم تأليف الشيخ الفاضل الحسن بن مُحَمَّد بن الحسن القمي من كتاب مؤنس
الحزين في معرفة الحق واليقين من مصنفات أبي جعفر مُحَمَّد بن بابويه القمي ما لفظه بالعربية...
سبب بناء المسجد المقدس في جمكران بأمر الإمام عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام ما أخبر به الشيخ العفيف
الصالح حسن بن مثلة الجمكراني قال: كنت ليلة الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان المبارك
سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة نائما في بيتي، فلما مضى نصف من الليل فإذا بجماعة من الناس
على باب بيتي فأيقظوني وقالوا: قم واجب الإمام المهدي صاحب الزمان، فإنه يدعوك.
قال: فقممت وتعبأت وتهيأت، فقلت: دعوني حتى ألبس قميصي، فإذا بنداء من جانب
الباب: هو ما كان قميصك، فتركته وأخذت سراويلي فنودي: ليس ذلك منك فخذ سراويلك،
فألقيته وأخذت

(١) مصباح الزائر ص ١٠٥.

سراويلي ولبسته، فقامت إلى مفتاح الباب أطلبه فنودي: الباب مفتوح.

فلما جئت إلى الباب رأيت قوما من الأكابر فسلمت عليهم فردوا ورحبوا بي، وذهبوا بي إلى موضع المسجد الآن، فلما أمعنت النظر رأيت أريكة فرشت عليها فراش حسان، وعليها وسائد حسان، ورأيت فتى في زي ابن ثلاثين متكئا عليها، وبين يديه شيخ ويده كتاب يقرؤه عليه، وحوله أكثر من ستين رجلا يصلون في تلك البقعة، وعلى بعضهم ثياب بيض وعلى بعضهم ثياب خضر.

وكان ذلك الشيخ هو الخضر عليه السلام، فأجلسني ذلك الشيخ عليه السلام ودعاني الإمام عليه السلام باسمي، وقال: اذهب إلى حسن بن مسلم وقل له:

إنك تعمّر هذه الأرض منذ سنين وتزرعها ونحن نخرّبها، زرعت خمس سنين والعام أيضا أنت على حالك من الزراعة والعمارة، ولا رخصة لك في العود إليها، وعليك رد ما انتفعت به من غلات هذه الأرض ليبنى فيها مسجد، وقل لحسن بن مسلم: إن هذه أرض شريفة قد اختارها الله تعالى من غيرها من الأراضي وشرفها، وأنت قد أضفتها إلى أرضك، وقد جزاك الله بموت ولدك لك شابين فلم تنتبه من غفلتك، فإن لم تفعل ذلك لأصابك من نقمة الله من حيث لا تشعر.

قال حسن بن مسلم: [قلت:] يا سيدي لا بد لي في ذلك من علامة، فإن القوم لا يقبلون ما لا علامة ولا حجة عليه، ولا يصدقون قولي، قال:

إنا سنعلم هناك، فاذهب وبلغ رسالتنا، واذهب إلى السيد أبي الحسن

وقل له: يجيء ويحضره ويطلبه بما أخذ من منافع تلك السنين ويعطيه الناس حتى يبنوا المسجد ويتم ما نقص من غلة رهق ملكنا بناحية اردهال ويتم المسجد، وقد وقفنا نصف رهق على هذا المسجد ليحلب غلته كل عام ويصرف إلى عمارته.

وقل للناس: ليرغبوا إلى هذ الموضع ويعزروه ويصلوا هنا أربع ركعات للتحية في كل ركعة يقرأ سورة الحمد مرة وسورة الإخلاص سبع مرات، ويسبح في الركوع والسجود سبع مرات، وركعتان للإمام صاحب الزمان عليه السلام هكذا: يقرأ الفاتحة فإذا وصل إلى « إياك نعبد وإياك نستعين » كرهه ماء مرة، ثم يقرأها إلى آخرها، وهكذا يصنع في الركعة الثانية، ويسبح في الركوع والسجود سبع مرات، فإذا أتم الصلاة يهمل:

ويسبح تسييح فاطمة الزهراء عليها السلام، فإذا فرغ من التسييح يسجد ويصلي على النبي وآله ماء مرة، ثم قال عليه السلام: ما هذه حكاية لفظه: « فمن صلاها فكأتما صلى في البيت العتيق ».

قال حسن بن مثله: قلت في نفسي: كأن هذا موضع أنت تزعم أنما هذا المسجد للإمام صاحب الزمان مشيرا إلى ذلك الفتى المتكى على الوسائد، فأشار ذلك الفتى إلي أن اذهب.

فرجعت فلما سرت بعض الطريق دعاني ثانية، وقال: إن في قطيع جعفر الكاشاني الراعي معزا يجب أن تشتريه، فإن أعطاك أهل القرية الثمن تشتريه وإلا فتعطي من مالك، وتجي به إلى هذا الموضع

وتذبحه الليلة الآتية، ثم تنفق يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر رمضان المبارك لحم المعز على المرضى ومن به علة شديدة فإن الله يشفي جميعهم، وذلك المعز أبلق كثير الشعر وعليه سبع علامات سود وبيض ثلاث على جانب وأربع على جانب سود وبيض كالدراهم.

فذهبت فأرجعوني ثالثة وقال: تقيم بهذا المكان سبعين يوما أو سبعا فإن حملت على السبع انطبق على ليلة القدر، وهو الثالث والعشرون وإن حملت على السبعين انطبق على الخامس والعشرين من ذي القعدة وكلاهما يوم مبارك.

قال حسن بن مثلة: فعدت حتى وصلت إلى داري ولم أزل الليل متفكرا حتى أسفر الصبح فأديت الفريضة وجئت إلى علي بن المنذر فقصصت عليه الحال فجاء معي حتى بلغت المكان الذي ذهبوا بي إليه البارحة فقال: والله إن العلامة التي قال لي الإمام واحد منها أن هذه السلاسل والأوتاد هاهنا.

فذهبنا إلى السيد الشريف أبي الحسن الرضا، فلما وصلنا إلى باب داره رأينا خدامه وغلمانه يقولون إن السيد أبا الحسن الرضا ينتظرك من سحر، أنت من جمكران؟ قلت: نعم فدخلت عليه الساعة وسلمت عليه، وخضعت فأحسن في الجواب وأكرمني، ومكن لي في مجلسه، وسبقني قبل أن أحدثه، وقال: يا حسن بن مثلة إني كنت نائما فرأيت شخصا يقول لي: إن رجلا من جمكران يقال له: حسن بن مثلة يأتيك

بالغدو ولتصدقن ما يقول، واعتمد على قوله، فإن قوله قولنا، فلا تردن عليه قوله، فانتبهت من رقدتي وكنت أنتظرك الآن.

فقص عليه الحسن بن مثله القصص مشروحا، فأمر بالخيول لتسرح، وتخرجوا فركبوا، فلما قربوا من القرية رأوا جعفر الراعي وله قطع على جانب الطريق، فدخل حسن بن مثلة بين القطيع وكان ذلك المعز خلف القطيع، فأقبل المعز عاديا إلى الحسن بن مثلة، فأخذه الحسن ليعطي ثمنه الراعي ويأتي به فأقسم جعفر الراعي أنني ما رأيت هذا المعز قط، ولم يكن في قطيعي إلا أنني رأيت، وكلما أريد أن أخذه لا يمكنني، والآن جاء إليكم فأتوا بالمعز كما أمر به السيد إلى ذلك الموضع وذبحوه.

وجاء السيد أبو الحسن الرضا عليه السلام إلى ذلك الموضع وأحضروا الحسن بن مسلم واستردوا منه الغلات، وجاءوا بغلات رهق وسقفوا المسجد بالجزوع، (الجدوع) وذهب السيد أبو الحسن الرضا عليه السلام بالسلاسل والأوتاد وأودعها في بيته، فكان يأتي المرضى والإعلاء - المعلولون - ويمسسون أبدانهم بالسلاسل فيشفيهم الله تعالى عاجلا ويصحون.

قال أبو الحسن عليه السلام بن حيدر: سمعت بالاستفاضة أن السيد أبا الحسن الرضا في المحلة المدعوة بموسويان من بلدة قم فمرض - بعد وفاته - ولد له فدخل بيته وفتح الصندوق الذي فيه السلاسل والأوتاد

فلم يجدها.

ثم قال المحدث النوري: وقد نقلنا الخبر السابق من خط السيد المحدث الجليل السيد نعمة الله الجزائري عن مجموعة نقله منه، ولكنه كان بالفارسية فنقلناه ثانيا إلى العربية ليلائم نظم هذا المجموع.

ولا يخفى أن كلمة التسعين الواقعة في صدر الخبر بالمثلثة فوق ثم السين المهملة كانت في الأصل سبعين مقدم المهملة على الموحدة واشتبه على الناسخ لأن وفاة الشيخ الصدوق كانت قبل التسعين، ولذا نرى جمعا من العلماء يكتبون في لفظ السبع أو السبعين بتقديم السين أو التاء حذرا عن التصحيف والتحريف، والله تعالى هو العالم^(١).

هذا ما ذكر في قصة بناء هذا المسجد، وظهرها أنها في اليقظة لا في المنام. وعلى أي حال فالحكاية المذكورة وإن لم تكن حجة شرعية، ليثبت بها استحباب الصلاة المذكورة بالكيفية الخاصة - كما هو مقتضى الصناعة - إلا أن يقال بثبوتها بعنوان آخر وهو كونه من صغريات قاعدة التسامح في أدلة السنن والتي تناولها العلماء بالدراسة في علم الأصول على اختلاف بينهم في توجيهها.

مضافا إلى أن أصل القضية أمر مسلم عند علماء الشيعة، حيث تلقوه بالقبول، وتسالموا عليه، وقد ذهب بعض الأجلاء منهم إلى أن ما

(١) جنة المأوى في ذكر من فاز بلقاء الحجة أو معجزته في الغيبة الكبرى - المطبوع ضمن الجزء الثالث والخمسين من بحار الأنوار - ص ٢٣٠ - ٢٣٤.

اتفقت سيرة الشيعة عليه والتزموا به لا يحتاج إلى دليل.
ويؤيد ذلك: ما يشاهده المؤمنون ويلمسونه من آثار العبادة والتوسل في هذا المكان المبارك،
الأمر الذي يكشف عن صحة هذه القضية وواقعيتها.
والحاصل: أن هذه البقعة لا تخرج عن كونها مسجداً من المساجد العامة بالعبادة، وموطناً من
مواطن الدعاء والتوسل بصاحب الزمان عليه السلام وردت فيها هذه الخصوصية وظهرت لها آثار جليلة
كثيرة.

نهاية المطاف

وبعد، فهذا آخر ما أردناه من هذه الصفحات المختصرة حول سيدة جليلة من سيدات البيت العلوي، اختصها الله تعالى بكثير من المميزات، وكان لها عنده تعالى شأن من الشأن، حتى غدت من أفضل النساء.

وقد أدرك القارئ العزيز الوجه في الاستطراد بذكر بعض المباحث الخارجة - كما يبدو - عن دائرة الموضوع، فإنه أمر تفرضه طبيعة هذه الدراسات التحليلية ذات القضايا المتداخلة. على أن فقدان عدة حلقات من مسلسل الأحداث أو قلة ما سجله المؤرخون، تضطر الباحث لأن يلتمس وجوه الملاءمة والانسجام بين المقدمات ونتائجها، أو الفحص عن مقدمات لبعض النتائج، بغية التوصل إلى إعطاء صورة واضحة بالمقدار الممكن، فيؤدي ذلك - بدوا - إلى خروج البحث عن دائرة موضوعة.

وأسأل الله تعالى أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يكون أداءاً لبعض الحق من الوفاء والإخلاص والموودة لغصن من أغصان

الشجرة الطيبة لا زلنا نتفياً ظلاله، ولا تزال السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام تغمرنا بألطفها وبركاتها، وتحوطنا برعايتها وعنايتها ونحن في حماها، فإنها سيدة عش آل محمد صلوات الله وسلامته عليه وكرامة أهل البيت عليهم السلام ^(١).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين الجمعة ٢٦ ذو القعدة الحرام ١٤٢٠ هـ.

(١) (سيدة عش آل محمد صلوات الله وسلامته عليه) و (كرامة أهل البيت عليهم السلام) عنوانا كتابين لمؤلفين فاضلين حول حياة السيدة فاطمة المعصومة عليها السلام ، وقد استفدت منهما كثيرا فجزاهما الله خير الجزاء.

الفهرس

المقدمة	٥
الشجرة الطيبة:	٧
السلالة الموسوية:	٩
أسباب انتشار السادة الموسويين:	١٥
السيدة تكتم:	٢٣
أمهات أكثر الأئمة <small>عليهم السلام</small> من الجواري... لماذا؟!:	٢٤
تنبيه:	٤٥
تعدد الأسماء:	٤٦
ولادة السيدة فاطمة المعصومة <small>عليها السلام</small> :	٥٤
أسماء وألقاب:	٥٩
١ - فاطمة:	٦٢
٢ - المعصومة:	٦٤
٣ - كريمة أهل البيت:	٧٠
في رحاب العلم والمعرفة:	٧٣
المكانة الاجتماعية والشأن الرفيع:	٨١
لماذا لم تتزوج السيدة المعصومة؟:	٨٦
المآسي والآلام:	١١٥
لوعة الوداع:	١١٩
إلى الرضا <small>عليه السلام</small> :	١٢٧
في قم:	١٣٩
أقول الشمس وبزوغها:	١٤١
تاريخ الوفاة:	١٤٧
الحرم الشريف	١٥١

١٦٣.....	الزيارة
١٦٨.....	نص الزيارة:
١٧١.....	خصائص الزيارة وبعض مميزاتها:
١٧٨.....	إيقاظ:
١٨٠.....	كرامات السيدة المعصومة <small>عليها السلام</small>
١٩٥.....	السيدة المعصومة <small>عليها السلام</small> في ضمائر الشعراء
٢٠٣.....	من عشق المستجدين
٢١١.....	عش آل محمد <small>صلوات الله وسلامته عليه</small>
٢١٧.....	النماذج الخيرة في العلم والعمل:
٢٢٤.....	قم وأهلها في روايات أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٢٢٩.....	مفاخر القميين:
٢٣٥.....	العلويون في قم:
٢٤١.....	مسجد جمكران
٢٥١.....	نهاية المطاف